إلى الهدى ائتنا

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٩٩/٩٦٢٣

الطبعة الأولى

ربيع الأول ١٤٢٠هـ/ يونيو ١٩٩٩م

الناشر

مطابع دار الصحيفة

جسر السويس / محطة الجراج / ش الأربعين / ١٠ ش العرب أمام مسجد الشهيبي

فاكس: ٢٩٧٨٤٧٤ - محمول: ٠١٢٣٢٢٥٨٨٨

إلى الهدى

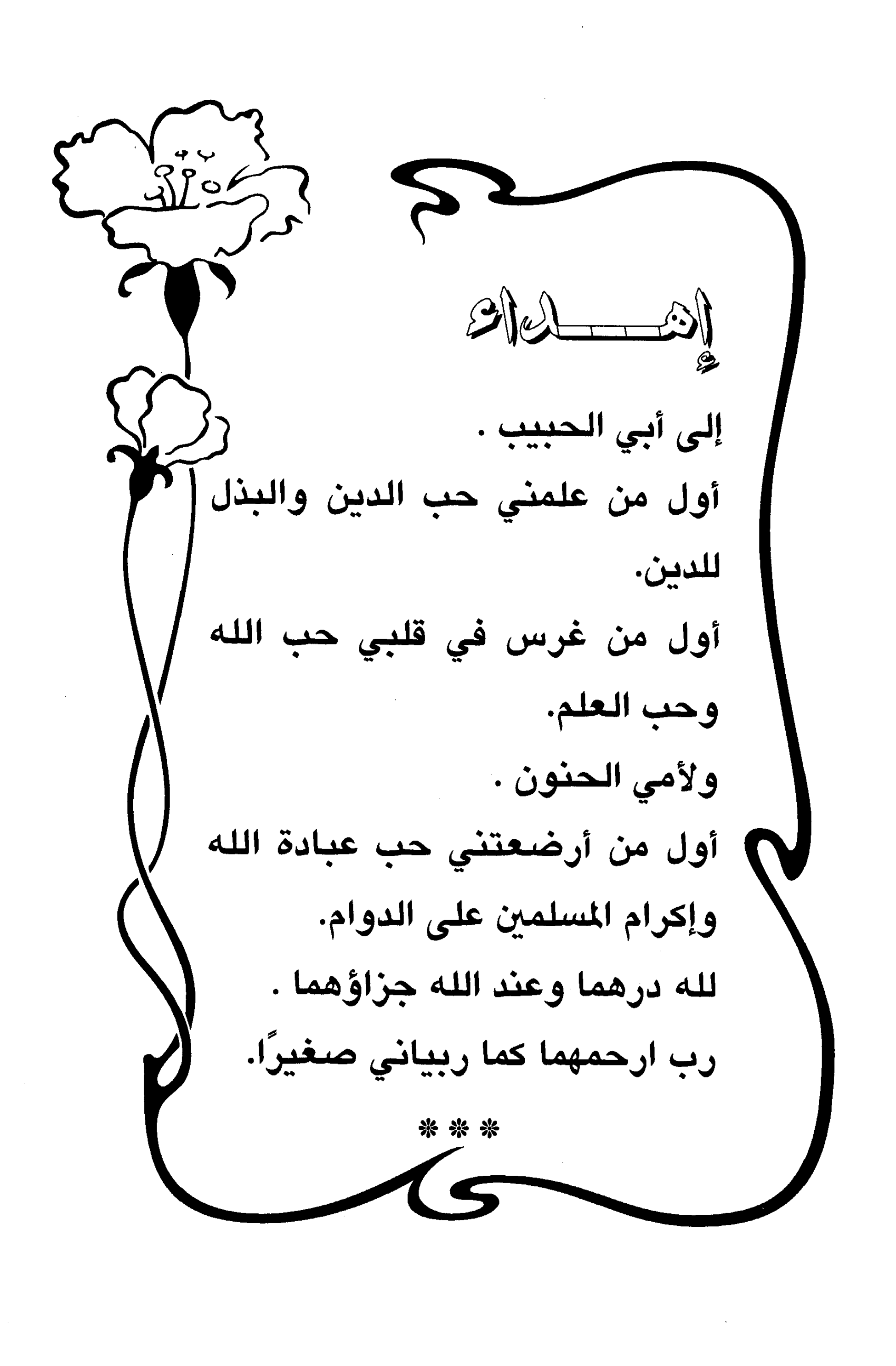
ائتنا

تأليف

الشيخ / محمد حسين يعقوب

الناشر
مطابع دار الصحيفة

بسم الله الرحمن الرحيم



إهداء

إلى أبي الحبيب .

أول من علمني حب الدين والبذل للدين.

أول من غرس في قلبي حب الله وحب العلم.

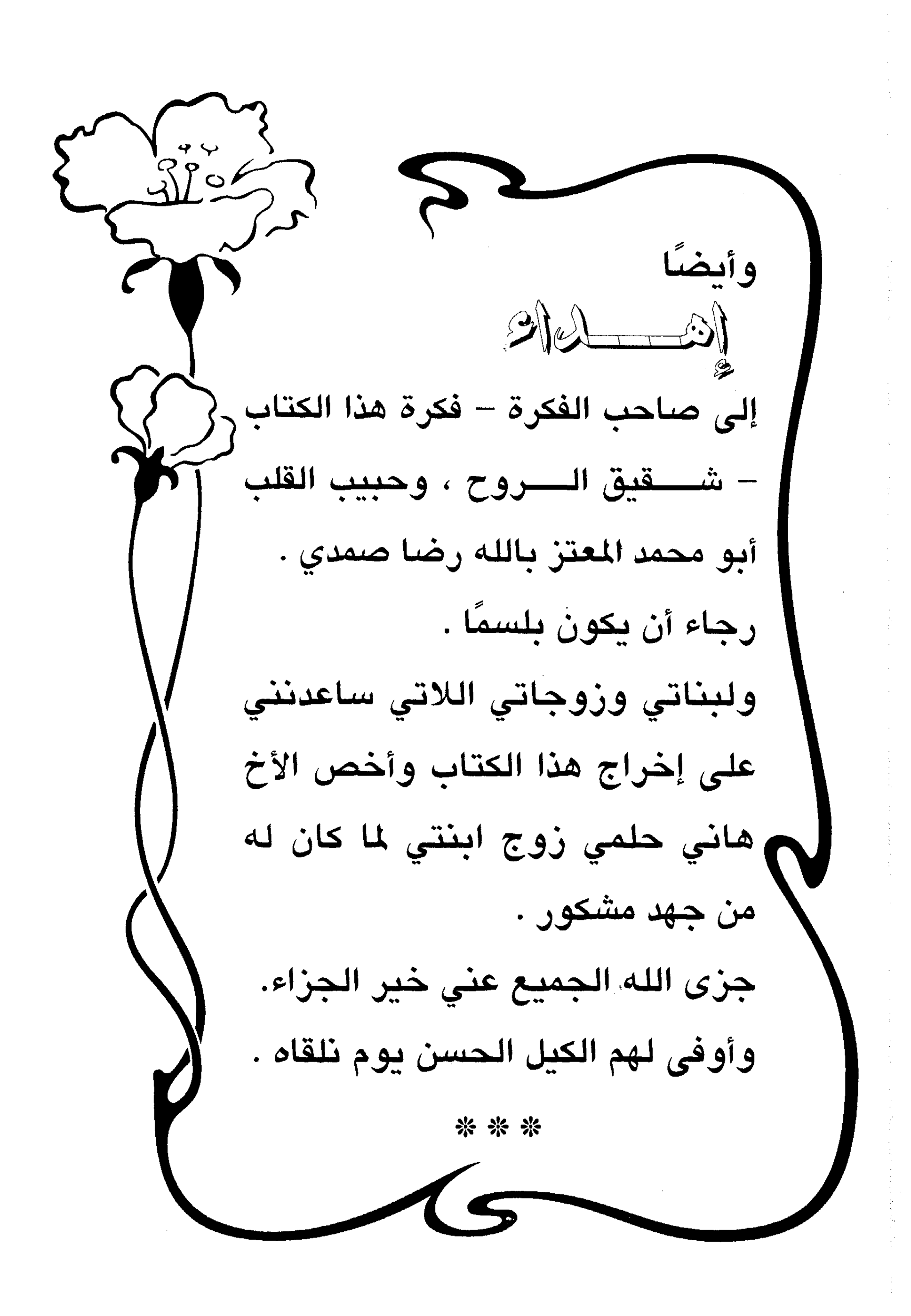
ولأمي الحنون .

أول من أرضعتني حب عبادة الله وإكرام المسلمين على الدوام.

لله درهما وعند الله جزاؤهما .

رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا.

***



وأيضًا

إهداء

إلى صاحب الفكرة - فكرة هذا الكتاب - شقيق الروح ، وحبيب القلب أبو محمد المعتز بالله رضا صمدي .

رجاء أن يكون بلسمًا .

ولبناتي وزوجاتي اللاتي ساعدنني على إخراج هذا الكتاب وأخص الأخ هاني حلمي زوج ابنتي لما كان له من جهد مشكور .

جزى الله الجميع عني خير الجزاء.

وأوفى لهم الكيل الحسن يوم نلقاه .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي قدم من شاء بفضله ، وأخَّر من شاء بعدله ، لا يَعترضُ عليه ذو عقل بعقله ، ولا يسأله مخلوق عن علة فعله ، هو الكريم الوهاب ، هازم الأحزاب ، ومنشئ السحاب ، ومنزل الكتاب ، ومسبب الأسباب، وخالق الناس من تراب ، سبحانه .

الواحد الأحد الماجد ، المتفرد بالتوحيد والتمجيد ، ليس له مثل ونديد، هو المبدئ المعيد ، الفعال لما يريد ، سبحانه .

جلَّ عن اتخاذ الصاحبة والولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، سبحانه .

سبق الأشياء علمُه ، ونفذتْ فيها إرادتُه ، ولا يَعْزُبُ عنه مثقال ذرة ، سبحانه .

لم يلحقْه في خلقِ شيءٍ مما خلق كلال ولا لغوب ولا نصب ، سبحانه .

خلق الأشياء بقدرته ، ودبرها بمشيئته ، وقهرها بجبروته ، وذللها بعزته ، فذلت له الرقاب . وحارت في ملكوته السموات السبع والأرض المهاد، وثبتت الجبال الرواسي ، وجرت الرياح اللواقح ، وسار في جو السماء السحاب ، وقامت البحار وهو الله الواحد القهار، سبحانه .

أستعينه وأستغفره وأتوب إليه ، وأعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل ل ، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه ،

اللهم صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد . كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب ٧٠ - ٧١].

أما بعد :

فإن أصدقَ الحديثِ كلام الله ، وخيرَ الهَدْيِ هَدْيُ محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - وشرَّ الأمور محدثاتُها ، وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكل ضلالة في النار .

ثم أما بعد .

يقول ربي وأحق القول قول ربي :

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ

تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد : ١٦ - ١٧] . اللهم أَحْيِ موات قلوبنا .

وقال الله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[النحل : ١١٠] .

ويقول الله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : ١١٩]

* قال رسول الله ﷺ : «إن الإيمان لَيخلَقُ في جوف أحدكم كما يخلق الثوب فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم »[١] اللهم جدد الإيمان في قلوبنا .

وقال ﷺ : «ما من القلوب قلب إلا وله سحابة كسحابة القمر ، بَيْنَا القمر يضيء إذ علته سحابة فأظلم إذ تجلت عنه فأضاء »[٢] .

* وقال ﷺ : « ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة أو ذنب هو مقيم عليه لا يفارقه حتى يفارق الدنيا ، إن المؤمن خُلِقَ مفتَّنًا توابًا نَسيًّا إذ ذُكِّر ذكر »[٣] .

* أيها الأحبة في الله : هذه الآيات وتلكم الأحاديث تشير إلىٰ قضية هي من أخطر القضايا ، وتشير إلىٰ موضوع هو من أهم الموضوعات التي ينبغي لكل مسلم أن يراقبها ويعالجها أن الإيمان يبلىٰ في القلب كما يبلىٰ

(١) أخرجه الحاكم (٤/١) والحديث قال الهيثمي في «المجمع» (٥٢/١) ورواه الطبراني في «الكبير»، وإسناده «حسن» وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة برقم (١٥٨٥) .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٩٦/٢) والديلمي (٨/٤٠) وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٢٦٨) .

(٣) رواه الطبراني (١٣٦/٣) والهيثمي في المجمع (٢٠١/١٠) . وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٢٧٦) .

الثوب ، يهترئ . . يصبح قديمًا لا يصلح للبس ، تشير الآيات إلى أن طول الأمد يقسي القلب . . اللهم رطب قلوبنا بذكرك يا رب .

تشير الآيات والأحاديث التي سقتها وعشرات من أشباهها وأمثالها أنه تعتري قلب المؤمن في بعض الأحيان سحابة من سحب المعصية فيظلم ، سحابة تحجب نور القلب ، فيبقى الإنسان في ظلمة ، ووحشة .

يضيع . يضل . يبتعد . يقصر . ينتكس . ينكص على عقبيه .

هذه الكلمات كلها مرادفات لمعنى واحد هو : ترك الصراط المستقيم واتخاذ طريق الشيطان الرجيم . . اللهم إنا نعوذ بك من الحور بعد الكور ، ومن الضلال بعد الهدى .

* إن الإنسان في مثل هذه الأوقات والتي قد تعتري كثيراً من المؤمنين كما جاء بنص الحديث « **ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة أو ذنب هو مقيم عليه لا يفارقه حتى يفارق الدنيا** »[1] .

* هذه الذنوب سحب تطفئ نور القلب ، فيظل الإنسان في التيه لا يدري ماذا يصنع ، يحتاج ساعتها إلى من يأخذ بيده للخروج من هذه الوحشة ، يحتاج إلى من يذكره «إن المؤمن خلق مفتنًا توابًا نسيًّا إذا ذُكّر ذكر»[2] . يحتاج إلى من ينبهه ، من يربت على كتفه ، من يهزه ، من يدفعه ، من يضغطه ، يضمه ، يعظه ، يوقظه فيقول : قم يا أخي فقد طال نومك واقترب الموت ﴿ **اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ** ﴾ [الأنبياء : ١ -٢] اللهم إنا نسألك حسن الخاتمة .

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تتمة الحديث السابق .

يحتاج الإنسان إلى ذلك الشخص المُنَبِّه كي يُفيقَ، وبعدها يسعى لزيادة إيمانه مع الاستعانة بالله عز وجل في كل خطواته فتنقشع السحب، فإذا نور القلب قد عاد ليضيء كما كان .

وهنا قاعدة لا بد من تأصيلها والتأكيد عليها وهي : أن الإيمان نُطْقٌ باللسان ، واعتقاد بالجنان ، وعمل بالأركان ، يزيد بالطاعات وينقص بالعصيان ، هذا معتقدنا : نعتقد أن الإيمان يزيد وينقص ، وأن الإنسان يطيع ويعصي ، وأنَّه ليس شرطا على عباد الله المتقين أن يكونوا معصومين، بل قد يعصي العبد وقد تضله المعصية، وتبعده عن الطريق لوقت يطول أو يقصر ، والمسافة قد تطول أو تقرب ولكنه لم يخرج من حيز الإسلام فإذا تاب وعاد تاب الله عليه .

اللهم تب علينا وعلى عصاة المسلمين .

بشراك - أخي التائب - بقول رسول الله ﷺ: « **إنَّ الله عز وجل يَبْسُطُ يدَهُ بالليلِ ليتوبَ مسيءُ النهارِ ويَبْسُطُ يدَه بالنَّهارِ ليتوبَ مسيءُ الليلِ حتى تطلعَ الشمسُ من مغربها** »[١] .

إنني قد أمسكت بقلمي اليوم لأكتب إليك . . لأخاطبك - أخي في الله - . وأنا أريد أن استوقفك معي لنتفقد إيماننا . . نتفقد إخواننا . . أكتب إليك لأسألك - حبيبي في الله - : كيف حالُ إيمانِك . . ؟ كيف حال قلبك مع الله؟؟! أسأله سبحانه وتعالى أن يجعل قلوبنا متعلقة به، راجية لعفوه وغفرانه وأن يجعل عملنا كله صالحًا وأن يجعله لوجهه خالصا .

* قال بعض السلف : (من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما ينقص منه ،

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٥٩) كتاب التوبة ، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة .

ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد إيمانه أم ينقص ؟ وإن من فقه الرجل أن يعلم نزغات الشيطان أنَّىٰ تأتيه) .

لا بد من وقفة لنرىٰ مواقع أقدامنا علىٰ الصراط ؟ أين نحن من الله؟ لا بد من وقفة لنتعاهد إيماننا ونجدّده . . اللهم جدد الإيمان في قلوبنا . . نعم . . لا بد من وقفة لنصلح حالنا مع الله لنتحسس موضع الداء ، نضع أيدينا عليه فنصف الدواء بعد التشخيص الصحيح والقبول للدواء ، فيحصل الشفاء - إن شاء الله - اللهم اشف قلوبنا واشف مرضانا ومرضىٰ المسلمين . آمين .

إن معرفة الداء ووضع اليد عليه من مستلزمات السير ، لأننا إن لم ندرك أدواءنا لم ندرك أخطاءنا ولم نعمل علىٰ مداواتها ، فإنها تعمل في الهدم . . تهدم أعمالنا . . تهدم أعمارنا . . تهدم إيماننا فتسوء الخاتمة والعياذ بالله ، لذلك لا بد لنا إذا أردنا أن نسير سيراً صحيحًا ، وأن نبني إيمانًا عاليًا أن نقف لنطهر الأساس . . لنرسي الجذور ، ونُرسّخ القواعد، ثم بعد ذلك يرتفع البنيان بإذن الله ، ولكن إذا ظللنا علىٰ معاصينا ، وأهملنا إخواننا الذين يتفلتون منا فأنَّىٰ لنا أن نبلغ التمكين ؟

مَتَى يَبْلغُ الْبُنْيانُ يَومًا تمامَه إذَا كُنْتَ تبنِيْه وَغيرُك يَهْدِمُ
وَلَوْ أنَّ ألفَ بَانٍ خَلْفَه هَادم فَكَيْفَ ببَانٍ خَلْفه ألفُ هَادمِ

إن الهدم للدعوة كما أنه يحدث من الخارج بالضغوط والظروف ، بالعصاة والفسقة ، بالمجرمين والظلمة ، فالهدم من الداخل أعظم ، الهدم من الداخل يحدث عندما يتفلت مقابل كل ملتزم جديد عشرة من الملتزمين القدامىٰ بسبب الفتور ، وإذا كان الإنسان يقوم ليلة ويعصي ألفًا . . فإننا

نلاحظ هنا نوعين من الهدم . . الهدم الداخلي في ذات الشخص بأن يهدِمَ الشخصُ إيمانَه ، وفي محيط الدعوة يهدمُ إخوانَه ، ويتركهم للتفلت والنكوص .

* إننا نريد أن نتوقف معًا نادي إخواننا الذين فُتِنوا ، وعصفت بهم الفتنة من كل جانب حتىٰ من داخلهم ، وتأثير الفتن إذا حدثت من الداخل يكون أشد وقعًا ، وألمها أشد وطئًا .

اسمحوا لي - أحبتي - أن أكون معكم صريحًا إلىٰ حدٍّ قد يؤلمكم ويؤلمني بألمكم ، فإنَّ الجرَّاح يقوم بفتح جرح في قلب المريض لكي يزرع قلبًا صحيحًا محل قلبٍ مريض ، ورغم ما في ذلك من الألم للمريض في حينه ، فإنه بعد الجراحة يعاود حياته بنشاط أكبر وحيوية أكثر . . وإن إنساناً رأىٰ آخراً يكاد يلتهمه قطار فدفعه دفعة شديدة طرحته أرضًا ولكنه أنقذه من تحت عجلات القطار ، أينقم المدفوع علىٰ من أنقذه ، نعم كانت الدفعة شديدة مؤلمة ولكنه أنقذه ، أَيْقظه ، نسأل الله تعالىٰ أن يقيض لنا من ينقذنا من النار بفضله ومنِّه .

إننا لا بد وأن نتكاشف ونتناصح ذلك خير وأولىٰ من ترك العلل تسرِي في الجسد دون تشخيص أو علاج .

إننا مع زيادة أعداد الملتزمين نغفل عن كثرة أعداد المتساقطين ، نغفل عن أعداد المفتونين ، هذا حلق لحيته ، آخر ترك المسجد ، وثالث نسي القرآن ، ورابع بات لا يصلي الفجر أبدا ، وخامس لم يعد يحضر مجالس العلم ، سادس انتقل إلىٰ عمل آخر وظيفته فيه أن يضل الناس ويصدهم عن سبيل الله ، هؤلاء جميعًا يحتاجون إلىٰ أن نمد إليهم يد العون أن نصرخ في آذانهم .

أخي في الله . . هلم إلينا . . حبيبي في الله .

إلى الهدى ائتنا

إنه النداء الذي علمنا الله إياه ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٧١] .

إلى الهدى ائتنا

ننادي من استهوته الشياطين في الأرض حيران .

ننادي كل من صار يدعو من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره .

ننادي عبد المنصب . . عبد الجاه . . أو عبد الدرهم . . من أسلم قلبه لغير الله . . عاشق المظاهر .

ننادي مدمن المعاصي .

ننادي هواة التفلت من دين الله .

ننادي الملتزمين الذين كانوا لنا في يوم من الأيام إخوة .

وإخوانًا عَهِدْتهُمْ دُروعًا   فَكَانُوها وَلَكِنْ للأعَادي

وَخِلْتُهُمْ سِهَامًا رَامِيَاتٍ   فَكَانُوها وَلَكِن في فُؤادي

وَقَالُوا قَدْ صَفَتْ مِنَّا قُلُوبٌ   وَقَدْ صَدَقُوا وَلَكِنْ عَنْ وِدَادي

إخوتاه . . دعونا نتأمل ظاهرة التساقط والتفلت ، ظاهرة الافتتان والانسلاخ ، إنها تسببت وما تزال تتسبب في الكثير من الإساءات البالغة للإسلام والالتزام ، وللدعوة إلى الله ، فإن أقل ما يقال : إنها حائط صد عن الإسلام ، إنها شهادة زور ضد الالتزام.

فيقول الناس : لو كان في الالتزام خير ما ترك التزامه .

دعونا نخاطب الكل : من أصابه الفتور فنسي قيام الليل ، وهجر المصحف ، وجف لسانه عن ذكر الله .

فنقول : أرضيتم بغير الله ربًا ، وهو رباكم بأنعمه وتحبب إليكم بالخيرات فبارزتموه بالمعاصي .

أم رضيتم بغير الإسلام دينًا وهو دين الفطرة.

أم رضيتم بغير نبيكم هاديًا وقدوة وهو الذي كان يبكي عليكم فيقول : يا رب أمتي ، مَنْ لأمتي من بعدي .

نادي مَنْ فترت هممُهم فنبعث فيهم الحماسة ونذكرهم ببداية القلب وقلب البداية نذكّرهم بالقلب في بداية الالتزام ، وبداية القلب مع الالتزام. . نذكر من انتكسوا. . من وقعوا في المعاصي وفرطوا في الطاعات . .

إلى الهدى ائتنا

* * *



بداية الغواية

بداية الزلل : « وإذا مَسهم طائف من الشيطان » .

ووسط الزلل : « كلا بل ران على قلوبهم » .

وآخر الزلل : « أم على قلوب أقفالها» .

أتبكي على معاصيك والإصـرار يضحك

أتخادع بالتـــوبـــة إنَّما تمكـر بدينـك

إلى الهدى ائتنا

بداية الغواية

إن بداية الفتور تكون بالتكاسل عن بعض الطاعات ، فبعد أن كان يقوم الليل كله ، ترك قيام الليل ، أو اجتزأ بعض قيام الليل بعد أن كان قيامه إحدىٰ عشرة ركعة ، صار ركعتين أو أربعًا ، وبعد أن كان يقرأ جزئين من القرآن صار يقرأ جزءًا أو حزبًا ، وبعد أن كان يصلي في اليوم والليلة أربعين صارت عشرين ثم عشرة ، هذه هي البداية .

بل وقد تكون البداية فتورًا في أداء بعض الطاعات ، يصلي ولكن بلا روح ولا إخلاص ، يقرأ القرآن ، ولكن بلا تدبر ، يذكر الله ولكن بلا خشوع ، ويحضر مجالس العلم ولكن يترك قلبه خارج المسجد ، هذه بداية تتراكم معها أمراضٌ أُخَر : استهانة بالذنوب ، واستكثار من العيوب ، تغافل عن المعاصي الواقعة ، إن لم يتب منها سريعًا ويعالجها بالاستغفار الكثير والاستكثار من فعل الطاعات فإنه سينزل إلىٰ دَرَك أحط ويتردىٰ في هاوية أبعد .

فيتدرج من التفريط في بعض الواجبات إلىٰ فعل بعض المحرمات ، ومع إهمال نفسه وقلبه يظل يتردىٰ ويتردىٰ حتىٰ يصل الأمر إلىٰ :

حلق اللحية التي كم جاهد حتىٰ يجعل من إعفائها أمرًا واقعًا في منزله وعمله .

وهجر المساجد التي كم ناضل ليفرغ لها أوقاتًا في وسط زحام المشكلات الدنيوية ، ثم يتزايد الأمر ويتفاقم بترك الصلاة في الجماعات ، ثم ترك الصلاة بالكلية ، وبعدها وإن لم يتداركه الله برحمة ، فإنه يصل - والعياذ بالله - إلىٰ الكفر والردة والعلمنة - ولاحول ولا قوة إلا بالله .

« اللهم يا ولىٰ الإسلام وأهله مَسِّكْنا بالإسلام حتىٰ نلقاك به »[1] .

---

(1) أخرجه مسلم (٤٩٢٧) كتاب التوبة .

فصل
من تقرب إلي شبراً

مَنْ مِنَّا ليس فيه شيء من التهاون والتفلت ، لا شك أننا كلنا ومع طول الأمد قَسَتْ منا القلوب وتكاثرت فينا العيوب ، وازدادت منا الذنوب، وقلت الطاعات كمًّا وكيفًا ، روحًا وإخلاصًا ، لا شك أننا كلنا وفي وقت ما قد أصابنا شيءٌ من ذلك ، فلذلك نُذَكِّر أنفسنا وإياكم برحمة ربنا وبقوله عز من قائل ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر: ٥٣] . .

ويقول ربنا في الحديث القدسي « **مَنْ تَقَرَّبَ إليَّ شبْرًا تقربْتُ منه ذراعًا، ومَنْ تقرب إلي ذراعًا ، تقربتُ منه باعًا ، ومن مشى إليَّ أتيته هرولة** »(١)

آه لو تدبرنا ما نسمع وما نقرأ لوجلت منا القلوب، ولما أطقنا صبرا عن الله .

أقول : إن هذه المشاكل إذا أدركناها في البداية وتداركناها قبل الغواية، نكون قد وضعنا لها حدًا فاصلاً ، لذا نسارع في معالجة هذه الظاهرة ، ففي بعض الأحيان قد لا تحتاج المشكلة لأكثر من كلمة أو قرار ، وقد لا يحتاج الأمر إلى أكثر من وقفة .

تجد بعض الناس وقد أدركته مشكلة : خلاف مع أهله في مسألة حلق اللحية ، فإذا هو يتردد ويسأل فلانًا وفلانًا ، إن هذا التردد سيودي بإيمانه

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٤٠٥) كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى ﴿ويحذركم الله نفسه﴾، ومسلم برقم (٢٦٧٥) كتاب التوبة ، باب في الحض على التوبة والفرح بها .

ولو بقيت لحيته ، إن الأمر يحتاج إلىٰ قرار مجرد قرار وهو : لن أحلق اللحية وانتهت ، ولا تشغل بالك ، وسيظل إيمانه في ازدياد . . بهذه الطاعة التي تقرب بها وهي الثبات علىٰ السنة ، وعدم طاعة المخلوق في معصية الخالق ، ومراغمة الشيطان بهذا الثبات .

قال تعالىٰ : ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا . . .** ﴾ [آل عمران: ١٧٣] .

قال تعالىٰ : ﴿ **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢)** ﴾ [الأحزاب: ٢٢] .

فهذه المواقف إذا انتهت بالثبات علىٰ الحق ، وعدم الإنصات للباطل ، وعدم التراجع عن الصواب أفادت زيادة الإيمان .

قال تعالىٰ : ﴿ **وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)** ﴾ [محمد: ١٧] وتيقن تمامًا أن « **من تقرب إلى اللَّه شبرًا تقرب اللَّه إليه ذراعًا** ».فتقرب إلىٰ الله بالثبات علىٰ الطاعة شبرًا ليتقرب الله إليك بالإعانة والمدد ذراعًا[١] .

وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، فالإيمان يزيد بهذه الطاعة ، واعلم يقينًا بأن هذا سيولد طاعات أخرىٰ جديدة .

بعض المشاكل ـ مشاكل الفتور ـ لا تحتاج أكثر من كلمة مثل الوسوسة ، فإنه عندما يوسوس إليه الشيطان يقول كما علمه رسول الله : «**آمنت بالله ورسله**»[٢] ويتفل عن يساره ، وانتهت ، أما كثرة اللجاجة فإن هذا مما يزيد المشكلة حدة .

---

(١) ليس المقصد هنا التأويل فمذهبنا كما هو معلوم مذهب أهل السنة والجماعة بإثبات الصفات فتقرب الله للعبد تقرب حقيقي كما قال الله لا كما يخطر بالبال ولكن تقربه سبحانه من بعده حقيقه يمد العبد بالإعانة والثبات كما ذكرت فتنبه .

(٢) أخرجه مسلم (١٣٤) كتاب الإيمان . باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها .

فصل
افتقاد الحب الأخوي يؤدي إلى سوء الظن بالصحبة

في أحيان أخرى قد يكفي لحل المشكلة القائمة زيارة من أخ كبير أو اعتذار ، أو لقاء أو حتى ابتسامة عند اللقاء ، قد يكون الأمر كذلك ، ولذلك فإنني لا أخاطب المبتلَيْن فقط ، ولكني أخاطب الأصحّاء لكي يعينوا المرضى «**والله في عونِ العبدِ ما كان العبدُ في عونِ أخيه**»[1] . إنني أريدك أن تأخذ هذا الكتاب لتهديه إلى أخ لم تره منذ شهر ، أو منذ فترة قد تقل أو تكثر عن ذلك إذا أحسست أن غيابه كان بسبب الفتور ، إذا شعرت بتباعده فخذ بيده ، وقل له « إلى الهدى ائتنا » ومن دعا إلى الهدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه .

إلى الهدى ائتنا

لتكن شعاراً . . لتكن دعوة . . لتكن مصباح هداية . . لتكن مأوى لعابري السبيل من الفارين عن طريق الله .

أيها الإخوة ، نقول : إن الأمر أحياناً لا يحتاج إلى أكثر من كلمة ، قرار ، زيارة ، لقاء ، اعتذار ، معاتبة ، نصيحة ، توضيح ، مكاشفة أو حتى

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر .

مجرد مصافحة مع ابتسامة رقيقة وهدية بسيطة، كلمة مجاملة لطيفة أو ثناء عاطر عابر ، أو ربما لأقل من ذلك من تلك التكاليف السهلة اليسيرة ، أما حين تُتْرك المشكلة وتؤجل ، فإنها حينذاك تأخذ من الدعوة كثيراً من الطاقات والأوقات ، ثم قد تنجح الجهود بعد ذلك، وقد لا تفلح في إعادة الأخ إن عاد أصلاً .

إن الحقيقة التي وددت أن أشير إليها في بداية الموضوع وتَقدمَته : أن السرعة في حسم الأمور ومعالجة المشكلات من شأنها أن تنأىٰ بالدعوة عن الكثير من المتاعب ، وأن تجنبها العديد من الهزات الداخلية التي لا تنتهي في أغلب الأحيان إلا بخسارة البعض وتساقطهم والتسبب أيضًا في جذبهم للبعض الآخر وضياعهم .

ولذلك يحتاج إخواننا الذين أصابهم الفتور أن يشعروا بوجودنا بجانبهم بالتشجيع والتثبيت أن يشعروا فعلاً بالحدب الأخوي المتمثل في قول رسول الله « **المؤمن مرآة المؤمن ، والمؤمن أخو المؤمن، يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه** »[1] ياله من معنىٰ!! : «**يحوطه من ورائه** » ليتني أشعر بمن يحوطني من ورائي، يضع يده علىٰ ظهري يحميني أن أسقط، ويرفعني إن سقطت، ويمسح ظهري ويربت علىٰ كتفي إذا قمت .

أخي في الله : اظهر في الصورة وامدد يدك لأخيك وقل .

إلى الهدى ائتنا

لعل الله ينفع بك فينفعك ذلك يومًا ما .

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩١٨) كتاب الأدب ، باب في النصيحة والحياطة وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٩٢٦) .

فصل
إن بعض الظن إثم

قد يظن أحدكم أنَّ تساقط البعض وابتعادهم عن الدعوة ظاهرة صحية، زعمًا بأنها لتنقية الصف وتنظيف الجو من الدخلاء والمنافقين، فإن المتساقطين أصلاً لا يريدهم الله ولهذا طُردوا !!!

ولهؤلاء نقول . . سبحان الله . . إنه أخوك مهما يكن من أمر، أنا وأنت معرضان لأن يقع أحدنا في مثل ما وقع فيه من فتور، وأنا وأنت حينها سنحتاج إلىٰ من يأخذ بأيدينا، لمن ينبهنا ويذكرنا، ثم إن هذا السقوط لا يخلو من أذىٰ للدعوة، فإنه يُسيء ظن الناس بها، فيقولون: لو كان في الدعوة خير ما تركها هؤلاء وانفصلوا عنها بعد أن كانوا من الذابين عنها، ولو كان في اللحية خير ما حلقوها، ولو كان في مجالس العلم خير ما أنفوا منها، ولو كان هناك خير في الكتب ما باعوها، ولو كان في الأشرطة الإسلامية خير ما تخلصوا منها . . . إن كل هذا سيكون شاهد زور ضد الدعوة . .

نعم . . إن الفتور ثُلمة في سيفك، وحجر عثرة في طريقك . . . وسُبَّة في عرضك . . وإن ظنك هذا لمن الخذلان والله ! .

فقد قال الصادق المصدوق : **«ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله»**[1] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر .

بل إنني أقول : إن مهمة دعوة هؤلاء الذين ابتعدوا وجنحوا ، واجب على جميع المسلمين وعلى كل الملتزمين ، فواقع الإسلام لا يأذن لنا أن نفرط في إخواننا ، واحتدام الخطر لا يأذن ، والفقه لا يأذن ، والقلب لايأذن والمروءة لا تأذن ، والوفاء لا يأذن . . . اهتف بأخيك :

إلى الهدى ائتنا.

يقول النبي ﷺ « **مثل المدهن في حدود الله والواقع فيها مثل قوم استهموا سفينة فصار بعضهم في أسفلها وصار بعضهم في أعلاها ، فكان الذين في أسفلها يمرون بالماء على الذين في أعلاها فتأذوا به فأخذ فأسًا فجعل ينقر أسفل السفينة، فأتوه فقالوا : مالك ، قال : - تأذيتم بي ولابد لي من الماء فإن أخذوا على يديه أنجوه ونجّوا أنفسهم وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم** »[(١)] .

فانظر إلى قوله : « **تأذيتم بي ، ولابدَّ لي من الماء** » .

إنَّه وضع تعليلاً لطيفًا ليخرق السفينة ويغرق أهلها .

هذا ـ والله ـ هو الإصلاح المخروق تلكم ـ والله ـ هي العواطف المؤذية .

كذلك أنت قد تذهب لتزوره . فيقول لك : إنني أعلم هذا الكلام وأكثر منه ، لقد كنت أقوله للناس من قبلك بعشر سنوات على الأقل ، نعم قد تجد من يقول لك ذلك .

تذهب لتدعوه ، لتسأله لماذا لم تعد تحضر معنا مجالس العلم . . ؟ فيقول لك : يا ولدي ما مجالس العلم التي تتكلم عنها ؟!! إنني أنا ـ أصلاً ـ قد دعوتك لكي تحضر معي فيها ، ستجد من يقول لك هذا وأكثر ، قد يقول

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨٦) كتاب الشهادات ، باب القرعة في المشكلات .

قوله « المدهن » أي المحابي قال الحافظ ابن حجر : والمراد به من يرائي ويضيع الحقوق ولا يغير المنكر .

لك أحدهم : إن هذا حقي أفعل فيه ما أشاء ، ثم يقول إنني لا أريد أن أظهر في مكان حتىٰ لا أوذي أحدًا . . إلخ .

ستجد وتسمع ، إنها قصة القواعد الساذجة من المسلمين الغيورين علىٰ دين الله زعموا !!

إنها عاطفة ملتهبة ولكنها باردة .

إنها مشاعر صادقة ولكنها كاذبة .

إنها رحمة خالصة ولكنها مهلكة .

إنهم المصلحون إصلاحًا مخروقًا .

ستجد أمثال هؤلاء كثيرًا ، ولكن قد لا تحتاج المشكلة إلا لمجرد التذكير .

كذلك أقول : إن المشكلة قد تحتاج من الشخص نفسه إلىٰ مجرد حضور درس علم ، أو قيام ليلة ، أو تدبر آية ، أو زيارة قبر ، أو رؤية محتضر ، أو زيارة مريض ، أو صدقة لمحتاج ، أو مساعدة . . قد يحتاج صاحب المشكلة [مشكلة الفتور] لمجرد دمعة من خشية الله يذوب تحتها القلب ، دمعة واحدة فقط في لحظة ذكر لله ، ووجل للقلب من الله جل جلاله ، ولكن تأخير مثل هذا أو عدم معرفته يجعل المرض يتفاقم ، والأعراض تتضاعف ، والعلاج يصعب ، وقد يؤدي التأخير إلي الهلاك .

ثمة شيء آخر في هذه التقدمة الهامة .

إلى الهدى ائتنا

فصل
وجبت محبتي للمتحابين في

إن الإخوة كسائر الناس ـ أنا أقولها لمن يباشر العلاج ، ولمن وقع في المرض ـ إنهم كسائر الناس تمر بهم ظروف صعبة ، ويتعرضون لأزمات ومشكلات مختلفة منها العاطفي ، ومنها النفسي ، ومنها المالي ، ومنها العائلي ، وغير ذلك ، فإن وجدوا من يعينهم ويساعدهم على مواجهتها ومعالجتها وحلها وتجاوزها بسلام ، امتلأت نفوسهم ثقة بإخوانهم ودعوتهم وتابعوا المسيرة بمزيد من الحماس والعطاء ، أما إذا حصل العكس ، فإنهم سيصابون حتمًا بخيبة الأمل .

كثيرًا ما أقول تفقدوا إخوانكم ، أنت عندما تحضر مجلس العلم ، تعرّف على مَنْ بجوارك ، ومن أمامك ، ومن خلفك ، تفقده ، زره ، تابعه وائت إليه، أحبه ليحبك الله «**وجبت محبتي للمتحابين فيَّ** »[1] تفقد جيرانك . . تفقد زملاءك في العمل .

إن الذي وقع صريع المرض ، صريع فتنة ، أو صريع آفة ، يحتاج أن يجد بجواره أخًا ينتشله ويأخذ بيده ، فإذا وجد امتلأت نفسه ثقة بإخوانه ، وتابع المسيرة ، أما إذا حصل العكس فإنه إن غاب عشرات الأيام ، ،لم يجد من يسأل عنه ، ووقع في المعصية ولم يجد من يدعوه إلى التوبة ، وباشر

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢١٥٢٥) والإمام مالك في الموطأ برقم (١٧٧٩) . وإسناده صحيح كما ذكر محقق المسند (١٦/ ١٦٢) ط دار الحديث .

الأعمال البعيدة عن طريق الإسلام ، ولم يجد من يزجره أو ينهاه ، يأمره أو يذكره ، فإنه سيصاب حتمًا بخيبة أمل ثم بإحباطات نفسية ، تقذفه خارج إطار الدعوة ، أو خارج إطار الإسلام بالكلية .

إنني أنبهه . . وأُنَبِّه الجميع : أن العلاقة التي يفرضها الإسلام على الجسم الإسلامي قول رسول الله ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[1] إن الجسم الإسلامي والبنية الإسلامية والبيئة الإسلامية ، تصنع من أفرادها حين تصهرهم في بوتقة الأُخُوَّة ، تصنع من انصهارها الفكري والروحي والحسي ، الجسد الواحد الذي أشار إليه رسول الله ﷺ، الأخ المسلم يجب أن يشعر بهذا الانصهار ؛ هذه الوحدة مع إخوانه في الله . هذا الشعور - أيها الإخوة - لا ينشأ من فراغ ، إنما ينشأ من خلال التكافؤ والتضامن النفسي والمعنوي والحسي ، والمادي ، هذا الانصهار ينشأ من خلال السهر الدائم ،والمتابعة المستمرة والحب الصادق والانفعال العاطفي الدائم والمشاركة في المشاكل والهموم .

إنني لا أبالغ عندما أقول إن وحشة الغربة وقسوة الظروف ، وضراوة التحدي ، التي يواجهها المسلمون الملتزمون في هذه الأيام لا يخفف منها ولا يزيلها ، إلا صدق التوجه إلى الله والاحتساب له والشعور بالحدب الأخوي من حوله « **المؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه**»[2] .

إننا بحاجة أن نستشعر إخوانًا لنا يحوطوننا من خلفنا ، يقيمون

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخاري رقم (٦٠١١) كتاب الأدب ، باب رحمة الناس والبهائم ، ومسلم برقم (٢٥٨٦) كتاب البر والصلة والآداب باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم .

(٢) صحيح . تقدم تخريجه .

ظهورنا إذا أوشكنا على السقوط أو الهبوط ، يأخذون بأيدينا فعلاً إذا وقعنا، ينبهوننا إذا غفلنا ، نسأل الله الكريم أن يجعلنا إخوانًا متحابين ، اللهم ألف بين قلوبنا يا الله .

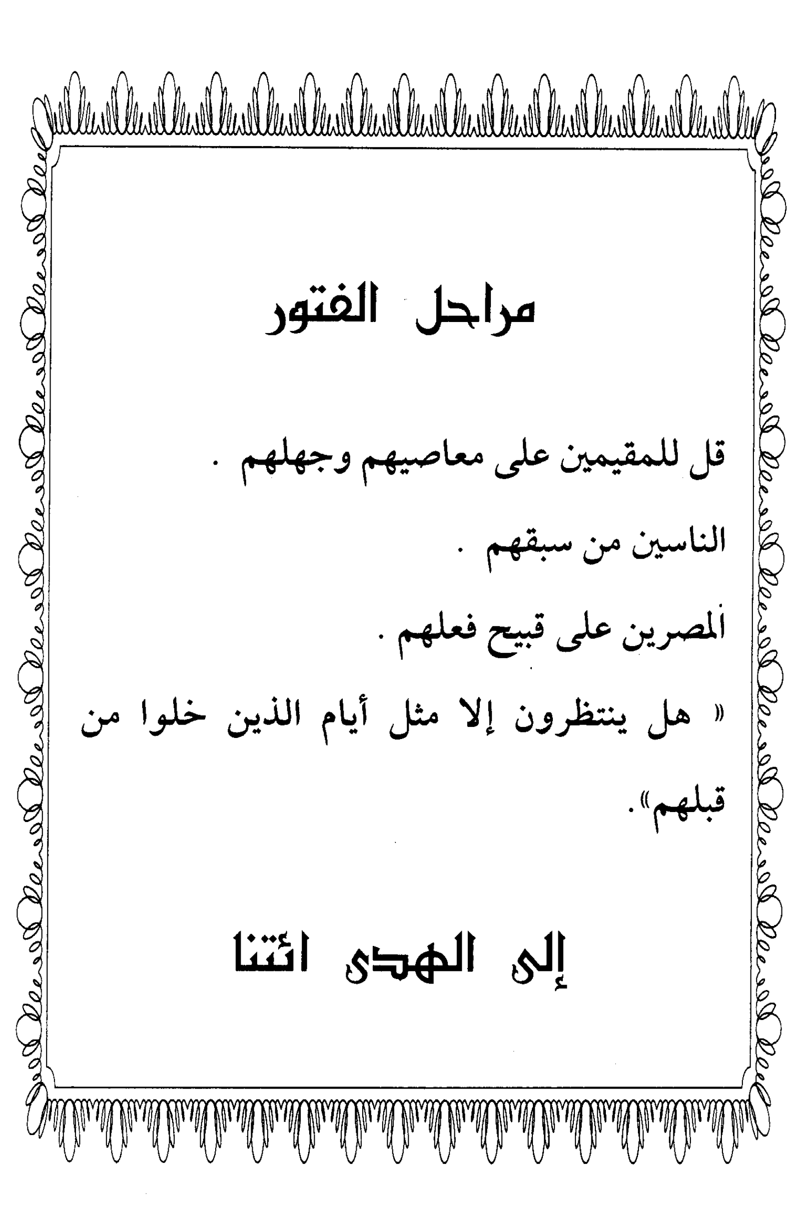
أيها الإخوة : إن الشعور بالحدب الأخوي يشيع روح الأخوة، ونحن مدعوون جميعًا إلى هذا ، إلى إشاعة روح الأخوة ، وتوثيق العرى على الحب في الله، إنها ستوفر علينا حتمًا الكثير من الأزمات والمشكلات .

وختامًا لهذه التقدمة أقول : إن هذا الموضوع لك ولغيرك ، فإن كنت ممن أصابهم الفتور ، فإني سأحاول الأخذ بيدك والله المستعان فإن قمت على قدميك وتقدمت في الطريق خطوة فهيا خذ بيد غيرك فإنك بذلك تشكر نعمة الله عليك ، الله الذي أقامك وأنقذك من الضلال إلي الهدي، وَثبِّت أقدامك بأخيك . . قال تعالى : ﴿ **وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ** ﴾ [الفتح : ٢٩] أي : فقواه .

وإن كنت في عافية ـ نسأل الله لنا ولكم دوام العافية ـ فاستشعر تلك النعمة وتعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، وأحسن حتى يحسن الله إليك ، هيا يدك في يدي ؛ لنساعد كل أخ مفتون تاه الطريق من تحت أقدامه، قال رسول الله ﷺ : « **ومن فَرَّج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على مُعسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة** »[1] .

* * *

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر .



مراحل الفتور

قل للمقيمين على معاصيهم وجهلهم .

الناسين من سبقهم .

المصرين على قبيح فعلهم .

« هل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم».

إلى الهدى ائتنا

فصل
مراحل الفتور

اعلم ـ رحمني الله وإياك ـ . . . أن كل عمل أو دعوة تعترضها قضايا عادية، تحتاج إلىٰ حسم ، كما تعترضها مشكلات تحتاج إلىٰ حل ، إن من سنة الله في الحياة ألا تمضي الحياة سهلة كسيلان الماء في الوديان والأنهار ، وإنما لا بد من عقبات ولا بد من آفات ولا بد من مشاكل تعترض قال تعالىٰ ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ ﴾ [البلد: ٤] ، والله سبحانه كما أنزل الداء أنزل له الدواء نسأل الله أن يداويَ أمراضنا ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

إن في الحياة عقبات ، وأمام الدعوة قضايا ومشكلات كل منها يحتاج إلىٰ حل ، ومن الطبيعي أن كل دعوة تعتمد صيغًا معينة وأساليب محددة لمعالجة قضاياها ومشكلاتها .

إنني كثيراً ما ألح علىٰ أن دعوتنا دعوة واقعية ، نعالج الأمور بواقعية ، إننا لسنا كما يُفْتَرىٰ علينا دائمًا بقولهم (ما زال السلفيون يتكلمون من أبراجهم العاجية) أبدًا !! . . إننا ننزل إلىٰ واقع المسلمين ، لأننا نعيش مع الشباب في مشكلاتهم ، ولكننا فقط لا ننزل إلىٰ حضيض المشاكل ، لنجعل الحلول موافقة للأهواء والرغبات .

انتبه معي ، فإنني إذا أردت أن أعالج فيك أمرًا، فلا ينبغي أن أنزل لما تحبه وتهواه[1] ، إن الطبيب حين يصف الدواء لا يستشير المريض ، ولا

---

(١) بعض الدعوات والمناهج تداعب أهواء الناس وتحاول دائمًا أن تربت على عواطفهم بزعم البديل الإسلامي في الأفراح والأغاني والسينما والمسرح . . . إلخ .
وكل هذا كان ثمرته هذا الالتزام الأجوف والالتزام الصوري الذي سرعان ما ينكص بعده أو لا يستطيع معه القيام بعزائم الأمور ولذلك دومًا نناشد إخواننا أن خير الهدي هدي محمد ﷺ .

يراعي في ذلك هوىٰ المريض ، إنما يراعي كيف يُشْفَىٰ ، وفي أسرع وقت وبأيسر وسيلة ، نسأل الله أن يشفي مرضانا ومرضىٰ المسلمين ، وأن يخص من ذلك مرضىٰ القلوب .

لذلك أيها الإخوة . . نقول إنه بقدر ما تكون صيغ المعالجة وأساليبها سهلة وواضحة وسريعة ، بقدر ما يكون سير الدعوة منتظمًا وأجواؤها سليمة ، وبقدر ما تتباطأ الدعوة عن متابعة قضاياها ، وحسم مشكلاتها ، بقدر ما يتسبب ذلك في تزايد المشاكل ، فالمشكلة قد تبدأ صغيرة محدودة ، ولكن تركها من شأنه أن يضخمها إلىٰ جانب أنها تتسبب أيضًا في توالد مشكلات أخرىٰ من جوانب أخر ، لذا نقول إن ما أذكره في هذا الكتاب هو الأسباب والعلاج لاستدراك الفائت والمعالجة الحاسمة السريعة لجميع الأمراض .

إنني لم أشأ أن أذكر مظاهر الفتور ، وقد ضربت صفحًا عن ذلك وأعرضت عنه ، ولكني سوف أذكر السبب والعلاج المباشر ، وقبل ذلك أمهد بذكر المراحل التي يَسْفُل بها المرء من جراء فتوره ، وقد سبقني كثيرون في سرد الأسباب والمظاهر ، ونحن نقول ونؤمن بأن عمل كل منا هو لبنة في بناء صرح الدعوة ، يحاول أن يستكمل به جهد الآخرين علىٰ قدر ما يوفقه الله إلىٰ ذلك .

ولقد أردت ألا يكون العلاج نظريًا في هذا الكتاب ، وإنما أردته علاجًا واقعيًا بحيث يسهل علىٰ كل منا تطبيق ما جاء به علىٰ نفسه ، بدون أن يشعر بأن من حوله يطبقون عليه ما قرأوا ، أو يسقطون عليه ما استنبطوا ، نسأل الله لنا ولكم العافية .

إنني - أولاً - أريد التنبيه على أن ما سيأتي معنا في السطور التالية ليس مخاطبًا به شخص غير موجود بيننا، بل إنني أنادي نفسي وقلبي أنا وغيري فاللهم أصلح حالنا أجمعين وأحوال جميع المسلمين .

ولا تظن - أخي الكريم - أنك بمنأى أو بمعزل أو في عصمة من هذا المرض الخطير والداء العضال (الحور بعد الكور) ولكنها مراحل أربعة :-

(١) **الفتور في العبادات** ، وعدم حضور القلب في الطاعات ، وتوقف النمو الإيماني ، فإن تم التدارك وأسعفك الله برحمته واليقظة مرة أخرى وإلا استحكم المرض فكان : . . .

(٢) **التوسع في المباحات** ، والوقوع في المكروهات ، واستثقال الطاعات فإن تم التدارك والعودة مرة أخرى بالتقدم خطوتين للأمام بدلاً مما حصل من التأخر وإلا استحكم فكان : . . .

(٣) **الاستهانة بالذنوب المحقرات** ، والتردي بالوقوع في المحرمات ، والانشغال بالدنيا ، والانغماس في الشهوات فإن تم التدارك وإلا كان : . . .

(٤) **التخبط** ، **التلون** ، **وترك الواجبات** ، **واقتراف الكبائر** ، واستيلاء الشهوات على القلب ، وتنعمه بمرارة البُعد عن الله .

فيكون الفرار من الله والبعد عن طريقه والوقوع في حزب الشيطان فإن أدركته من الله عناية وإلا فسوء الخاتمة لازم ، والموت على الكفر حتم والعياذ بالله .

قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ** ﴿١٠﴾ ﴾ [الروم: ١٠] .

إلى الهدى ائتنا

المرحلة الأولى

الفتور في العبادات

وعدم حضور القلب في الطاعات وتوقف النمو الإيماني

هذه المرحلة خطيرة بلا شك، وهي واردة عارضة لا بد منها في حياة المؤمن في فترات حياته، يشير إليها قول الله تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١] فالشيطان يطوف بالعبد دومًا لا يدري من أين يدخل عليه ، فإذا وجد من العبد فتوراً أو غفلة هجم عليه مغتنمًا هذه الفرصة فيصير العبد وكأنه هوىٰ من عَلٍ إلىٰ سفل، وحين يرتطم القلب بهذه الوهدة فأحد أمرين : إما أن يُفيق وينتبه ويبدأ في الارتفاع ، وإما أن يغمىٰ عليه فيستمر في التردي والنزول .

والتوقف في حياة الإيمان لا يمكن أن يكون ، فالعبد إما في زيادة وإما في نقصان، ومن لم يكن في زيادة فهو في نقصان بلا شك ، والنقصان لا يتوقف عند حدٍ أيضًا ، فالنزول سهل فإذا أصابَ العبدَ الفتورُ فهو يقرأ القرآن بلا تدبر، فإذا قرأه بلا تدبر فَقَد لذة القرآن، فإذا فقد اللذة غاب القلب، فصارت عبادته عادات روتينية يؤديها بلا قلب، فسَهُلَ التوقف والترك وأخطر ما في الأمر عدم الإحساس بالفقد .

إذا وقف في الصلاة لم يستمتع، ولم يستشعر لذة الوقوف بين يدي الرب جل جلاله .

إذا ذكر الله لم يَعِشْ الذكر ويستشعر ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢] فيعْشُ عن ذكر الرحمن فَيُقَيَّض له الشيطانُ فيصير قرينَه .

وهكذا إذا صام فليس له من المعاني ولا المشاعر ولا التأثير إلا الجوع والعطش .

وإذا قام وإذا تصدق وإذا حضر مجلس علم وإذا دعا إلى الله وإذا . . . وإذا . . . وإذا . . . وهكذا تفقد أعماله روحها .

والواجب على العبد في هذه المرحلة عدم السكوت بل المدافعة والمجاهدة لما يجد وصدق اللجوء إلى الله في أن يعافيه مما هو فيه ، وأن يرد عليه إيمانه، وأن يجاهد في زيادة الإيمان بزيادة الطاعات ، وأن يحتمي بصحبه إيمانية تذكره بالله وتشغله بما يزيد إيمانه وطاعاته وتهتف به .

إلى الهدى ائتنا

* * *

المرحلة الثانية

التوسع في المباحات والوقوع في المكروهات، واستثقال الطاعات

ويكون بداية التنازل بترك النوافل والمستحبات، قيل لبعض السلف هل يجوز أن أوسع لنفسي في المباح . . ؟ قال: عند نفسك من الغفلة ما يكفيها .

والمباح : هو الذي لا حرج على فاعله فليس من المكروهات ولا من المحرمات ، واستعمال المباح في التَقَوِّىٰ على الطاعة ، طاعة ، ولكن الآفة في التوسع والاستكثار فليكن تناول المباحات بقدَر ، وليكن شعارك في الدنيا هو قول النبي ﷺ « **مالي وللدنيا** »[١] وقد قال ربنا جل جلاله : ﴿ **وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٢] .

فالتوسع في المباحات ـ الذي هو خطر على الإيمان ـ هو الاستزادة منها والانشغال بتحصيلها وتعلق القلب بالاستكثار منها وذلك يولد آفات منها :

* ١ـ الانشغال بالمباحات يفوت الأرباح والمكاسب العظيمة والمنازل العالية في الجنة قال تعالىٰ : ﴿ **ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ** ﴿٨﴾ ﴾ [التكاثر: ٨] فأكل الطيبات مباح ولكن ملء البطن لا ، قال ﷺ: «**ما ملأ آدمي وعاءَ شراً من بطنه بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه**»[٢] .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦١٣) كتاب الهبة . باب هدية ما يكره لبسها .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠) كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ . باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل. وقال : حسن صحيح - واللفظ له- وابن ماجه (٣٣٤٩) كتاب الأطعمة . باب الاقتصاد في الأكل وكراهية الشبع .

والعمل الدنيوي وجمع المال من الحلال مباح بل مندوب إليه ولكن التوسع في ذلك حتىٰ ينشغل القلب بالدنيا عن الرب جل جلاله فذلك هو الحرام بعينه .

قال ﷺ : «**تَعسَ عبدُ الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أُعطي رضي، وإن لم يُعْطَ سخطَ** »(١) . وقال تعالىٰ : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨)**﴾ [يونس: ٧، ٨] .

* ٢ ـ ولا يزال الشيطان يزين للعبد التوسع بقوله لا حرج ، لا حرج حتىٰ يقع الإنسان في المكروهات . فالمباحات باب الشهوات، والشهوات لا تقف عن حد بل تقود إلىٰ شر ، قال تعالىٰ : ﴿**كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١)**﴾ [طه: ٨١] . فأمر سبحانه بالأكل ونهىٰ عن الطغيان فيه فتأمل !!

* ٣ ـ فإذا توسع في المباحات وقع في المكروهات ، حينها تميل النفس إلىٰ البطالة والكسل، وتتقاعس عن العمل، وتطلب الراحة، ويعجز الإنسان عن حمل النفس ، فإنه طاوعها فاستأسدت عليه ، ووافق هواها فتمنعت عليه، وأعطاها مناها فاستولت عليه ، فحينها يستثقل طاعة الرحمن ويضيع وقته في طاعة الشيطان ، فتجده يقوم إلىٰ الفرض من الصلاة رغماً، وتصبح الطاعات ثقيلة علىٰ نفسه بعد أن كان ممن يستهويه «**أرحنا بها** »(٢) . فيصير من أهل الانشغال بالمباحات، في جميع الأوقات،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٧) كتاب الجهاد والسير . باب الحراسة في الغزو في سبيل الله . .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٢٥٧٨) ، وأبو داود في سننه (٤٩٨٥) كتاب الأدب ، باب في صلاة العتمة .

وصححه الشيخ الألباني في صحيح أبي داود (٤١٧١) ، والمشكاة (١٢٥٣) .

فيضيق وقته عن الجمع بينها وبين نوافل العبادات، ويزين له الشيطان ترك ذلك؛ بأنه مواظب على الفرائض فيترك نوافل الصلاة والصيام ، وهذه بداية التنازلات وأول موت القلب .

* * *

المرحلة الثالثة

الاستهانة بالذنوب المحقرات والتردي بالوقوع في المحرمات والانشغال بالدنيا والانغماس في الشهوات

اعلم - أخي في الله - أن الشيطان ملحاح بطيء اليأس، فهو يزين للعبد اقتراف الذنوب ويحسنها في عينه، وهو إذا ما وجد منك عزمًا على السير إلى الله وعدم الالتفات إلى المحرمات والكبائر أوقعك في الصغائر، وهون عليك الأمر بقوله إنك في أمان فإنك اجتنبت الكبائر، وما غشيت إلا اللمم..؟ أو ما علمت أنها تكفر باجتناب الكبائر وفعل الحسنات، ولا يزال يهون أمرها على العبد حتى يصر عليها فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالاً منه.

فالإصرار على الذنب أقبح من الذنب، فلا صغيرة مع الإصرار.

يقول ﷺ: « **إياكم ومحقرات الذنوب، فإنَّهن يجتمعن على المرء فيهلكنه كقوم نزلوا في بطن واد، فجاء ذا بعود وذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم، وإن محقرات الذنوب متى يُؤْخَذُ بها صاحبها تهلكه**»[1].

وهذه المعاصي والصغائر لها داعيها في نفس العبد خصوصًا إذا كان حديث عهد بتوبة، فإن رواسب الجاهلية تعود بسرعة فبمجرد فتور العبد عن الطاعات، وتوقف إيمانه عن النمو والزيادة، تظهر هذه الأهواء

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٢٣٠٢)، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٩٠) «رواه أحمد ورجاله في رجال الصحيح».

وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٣٨٩)، وقال: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين.

والأدواء التي كانت راكدة في قاع الضمير وأعماق النفس فتطفو شهوات الذنوب مرة أخرىٰ علىٰ السطح، ويعود التلهف علىٰ فعل الذنب، وقد يكون صغيرة من الصغائر ولكن كقطرات المطر، إذا تجمعت صارت سيلاً يجرف كل ما يقف أمامه، وتكون بداية النهاية فإنه معلوم من استقراء الواقع أن هذه الصغائر عادة تجتمع وتكثر وتتكاثر، فلا يزال العبد يستكثر منها حتىٰ تجتمع عليه فتهلكه، ثم إنها تقود إلىٰ الكبائر والعياذ بالله.

ومن آفات الوقوع في صغائر الذنوب أن الشيطان يُنسي العبد التوبة منها أو الإقلاع عنها وذلك بتهوينها في القلب وشغل العبد عنها بأنواع من المشاغل مثل:

* ١ ـ الدنيا وزينتها وزخارفها والتعامل في الدنيا لا بد أن يفتح باب المعاصي، وهذا وارد مع كل الإخوة الذين فتحت عليهم الدنيا فالتعامل مع النساء والاختلاط لازم، وهذا مؤد إلىٰ الممازحة والملامسة والمنابذة ونظرة فابتسامة فسلام و . . . . . ؟!!

* ٢ ـ الانشغال بالدنيا يفتح شهية النفس للاستمتاع بالشهوات، فشهوة البطن وشهوة المظاهر والمفاخر وشهوة الكلام والتشدق وشهوة حب المدح والثناء وشهوة . . . شهوات، وشهوات، وشهوات. فيُضيِّع العبد دينه في بطن شهوات الغي والجهل والضلال. أعاذنا الله وإياكم.

دعك من كل هذا و . . .

إلى الهدى ائتنا

المرحلة الرابعة
التخبط والتلون
فيكون الوقوع في الكبائر والبحث عن مخرج فيكون الوقوع في البدع ثم يكون ترك الواجبات وإن كان على فترات

إن الذي يسقط من أعلى الجبل لا يستقر إلا في أقصى نقطة في سفحه. والذي يغرق في بحر لا يقر إلا في قاع البحر وقراره . كذلك الذي يسقط من عين الله ويسقط من سماء الالتزام يهوى إلى المعاصي والكبائر ويغرق في لجة الذنوب والموبقات . لا يقف الأمر عند حد الصغائر والمحقرات واللمم، فنظرة إلى امرأة متبرجة تقود إلى اللمس فيما بعد ثم الوقوع في العادة السيئة، ثم الزنا ، فالإدمان ، فالسرقة ، فالقتل فالكفر عياذًا بالله عياذًا وذلك إن لم يستدرك في كل مرحلة من هذه المراحل بتوبة نصوح وحسنات ماحية للذنوب رافعة للدرجات يتداركه الله بها .

وعادة من يتركون طريق الالتزام من باب (حلاوة الروح) كما يقولون يبحثون عن مخرج فيبتدعون أو يستمرئون بدعًا تكون عوضًا عما فرطوا فيه من الطاعات ، وهذا من أعجب أهواء النفوس وقد قيل : « **إن الفتنة أن تستحل ما كنت تراه حرامًا** » وقد تكون البدعة عقدية وهي بلا شك من تزيين الشيطان ، وقد قلنا : إن الشيطان يزين المعاصي والآثام في عين العبد فيغريه أولاً بارتكاب الصغائر والمواظبة عليها ، وترك السنن ، والنوافل والتوسع في المباحات ، ثم إذا استقرت كل هذه العادات الرديئة في عقله

وقلبه حَرَّضه على الكبائر ، فإذا وقع فيها سوّف به وفتح له باب الإرجاء ، وقال له : إن الإيمان هو نفس التصديق فلا تقدح فيه أعمال الفسوق والعصيان ولا الأعمال السيئة أو المعاصي ، وربما أجرىٰ على لسانه كلمة طالما أهلك بها الخلق وهي قوله : (لا يضر مع التوحيد ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك حسنة) وهذا هو معنىٰ الإرجاء الذي هو من شر البدع التي أفسدت الدين .

وإذا ظفر بك الشيطان في البدعة كان أحب إليه من ارتكابك للكبيرة ؛ لأن مرتكب الكبيرة قد يتوب يومًا ما فينقض جهد الشيطان الذي بذله في أزه على المعاصي والكبائر ، أما البدعة فإنها تناقض الدين وتدفع ما بعث الله به رسوله وهي تتضمن القول على الله بغير علم وتعادي صريح السنة .

وهي اعتبار ما رَدَّه الله ورسوله وردّ ما اعتبره .

كما أن صاحبها لا يتوب منها ولا يرجع عنها ، بل إنه يدعو إليها ظنًا منه أنها قربة إلىٰ الله جل وعلا .

« فقد تشتد الغفلة على العبد المقارف للذنوب حتىٰ يفرح بشهوته المحرمة ، وهذا الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها ، وجهله بقدر من عُصِيَ ، كذلك فإنها دليل على سوء العاقبة فإن فرح العبد بالمعصية أضر عليه من مقارفتها ، والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبدًا بل يباشرها والحزن مخالطٌ لقلبه ، ولكنَّ سُكر الشهوة يحجب عنه هذا الشعور ، ومتىٰ خلا قلب العبد المؤمن من هذا الحزن فليتَّهم إيمانه وليبك على موت قلبه .

وهذه الملاحظة قَلَّ من ينتبه إليها ، وهي لا شك مهلكة للعبد إن لم يتداركه الله برحمة فيتوب عليه قبل الموت ، فيندم على ما فاته ، ويشمر لاستدراك الفائت .

ذلك أن الغفلة إذا بلغت هذا الحد توصله ولا بد إلىٰ الاستقرار علىٰ

المخالفة والعزم على المعاودة ، وذلك ذنبٌ آخر لعله أعظم من الأول ، وتلك علامة الهلاك ، فينتقل بعد ذلك ولا بد إلى مرحلة المجاهرة بالذنب» وتلك هي الطامة الكبري لقول رسول الله ﷺ : «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين**»[١] .

* * *

أيها المطرود أُب . . . يا شارد الطبع من سفر الهوى عُدْ . . وأذب جامد الدمع بنيران الأسى . . لعل شفيع الاعتراف يسأل في أسير الاقتراف . .

عد . . ارجع . . ارجع :. هلم . . تعال . . أقبل . .

لذة أرواح الاسحار لا يستنشقها مزكوم غفلة .

أخي المطرود : لو وقفت على جادة التهجد ليلة لرأيت ركب الأحباب . . لو سرت مع القوم لحرك قلبك صوتُ الحداة .

اجلس الليلة على مائدة السحر . . وذق طعم المناجاة . . تنسيك كل لذة في الدنيا .

قم لربك وانتبه له . . ناده وابك على نفسك . . وقل : آه على زمان فات . . وعلى قلب كان حيًا فمات . .

إلهي وسيدي كيف الطمع فيما مضى . . ؟!! هيهات

أين الزمان الذي بان . . ؟ أتراه بان . . ؟

أين القلب الصافي كان وكان . . ؟!!

اللهم ردّ على قلوبنا أصل الإيمان . .

يا من كان له قلب فانقلب . . قيام الليل يستوحش لك . . صيام النهار يسأل عنك . . ليالي الوصال تعاتبك . .

---

(١) متفق عليه . اخرجه البخاري رقم (٦٠٦٩) كتاب الأدب ، باب ستر المؤمن على نفسه ، ومسلم رقم (٢٩٩٠) كتاب الزهد والرقائق ، باب النهي عن هتك الإنسان عرض نفسه .

أخي وحبيبي . . يا من ابتعدت عن الله وما ابتعد عنك . . يا من كان قريبًا فطرد . . يا من كان مشاهدًا فحجب .

يا عزيزي . . ما ألفت الشقاء فكيف تصبر؟! . .

أخي . . أصعب الفقر ما كان بعد الغنىٰ . . وأوحش الذل ما كان بعد العز . . وأشدهما ما كان علىٰ الكبر . .

يا هذا . . بِتْ ببَيْت الأحزان قبل أن يبيتك البيات . . ثب إلىٰ المثيب وثبة ثبات . . ولا تجاوز الجناب ودر حول الدار واستقبل قبلة التضرع . . وقل في الأسحار .

إلهي وسيدي عبيدك سواي كثير ، وليس لي ربٌّ سواك .

إنْ كَان لِّي ذَنْبٌ تَجَرَّمتُه ... فأستأنف العَفْوَ وَهَبْ مَا مَضَى
لا تَبْرِ عودًا أنت ريَّشْتَه ... حَاشَا لباني الجُود أن ينقُضَا
قَد كُنتُ أرجوك لنيل المنُى ... اليوم لا أطلبُ إلا الرِّضا

ويحك إلىٰ كم تعدو خلف مركب الهوىٰ وما تربح إلا الغبار . .

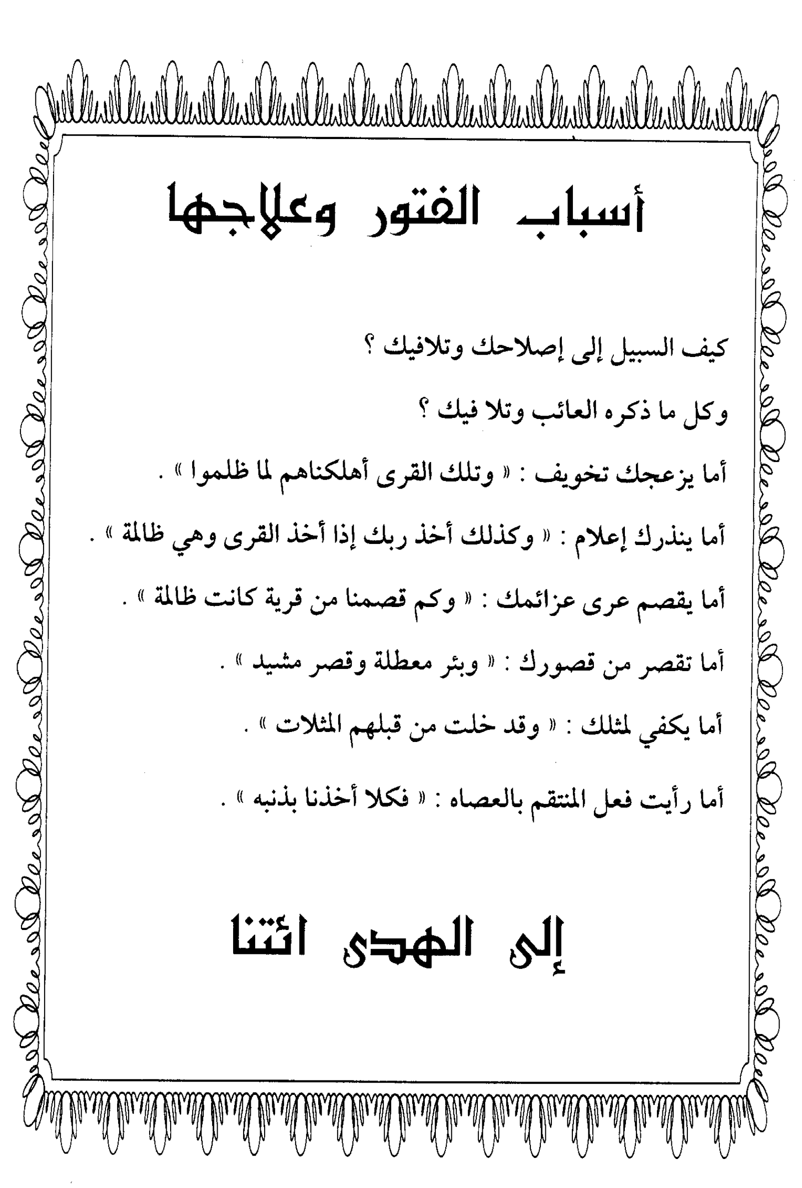
نحن لك علىٰ الوفاء ما زلنا ، وأنت ما ثُبت ولا أثبت الوفاء يومين . . ونحن ما زلنا لك علىٰ الوفاء .

إنني حين أنادي هذا المطرود . . هذا المبعد . . قاسي القلب . . أقول : مصيبتنا في التفريط واحدة وأهل الأحزان أهل . . . . .

إن مجلس الذكر مأتم الأحزان . . هذا يبكي لذنوبه . . وهذا يندب عيوبه . . وهذا يبكي علىٰ فوات مطلوبه . . وهذا لإعراض محبوبه . . فأين أنت منهم . . ؟

أين أنت من هؤلاء . . . ؟؟؟؟؟؟

إلى الهدى ائتنا



أسباب الفتور وعلاجها

كيف السبيل إلى إصلاحك وتلافيك ؟

وكل ما ذكره العائب وتلا فيك ؟

أما يزعجك تخويف : « وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا » .

أما ينذرك إعلام : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة » .

أما يقصم عرى عزائمك : « وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة » .

أما تقصر من قصورك : « وبئر معطلة وقصر مشيد » .

أما يكفي لمثلك : « وقد خلت من قبلهم المثلات » .

أما رأيت فعل المنتقم بالعصاه : « فكلا أخذنا بذنبه » .

إلى الهدى ائتنا

[أسباب الفتور]

ما هي الأسباب . . ؟ ما هو العلاج . . ؟

هيا بنا إلى الطرح الموضوعي أيها الإخوة ومواجهة ظاهرة التفلت والانسلاخ من الالتزام . . وبالله التوفيق .

أيها الغافل المسكين .

ماذا أعطاك إبليس حتى تخلص له هذا الإخلاص . . ؟

وماذا علمت من قدرته حتى ترجو منه النجاة والخلاص . . ؟

أوقعك بأزه في خطله . . وأجلب عليك بخيله ورجله . . استحوذ عليك بغوايته فأنساك الخالق ﴿**اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ**﴾ [المجادلة: ١٩] .

أترضى أن تكون من حزب الشيطان؟ يا بؤسه من اسم !! .

كيف استحوذ عليك الشيطان، واستمالك حتى صار في قلبك هو الباسق السامق . . ؟

يا مسكين : إذا فاتك ربك . . بربك ماذا ستدرك . . ؟

وإذا أدركت رضاه ماذا سيفوتك ؟

أخي . . اذكر ﴿**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الذاريات : ٥٥] .

قال :﴿ **الذِّكْرَى** ﴾ ولم يقل التذكير لأن الواعظ يذكر فلا يكون تذكيره نافعًا إلا إذا هيج التذكير ذكراه . . بربك تذكر فأبصر . .

كلامي ما زال يمس ظاهرك ألا تفتح لي قلبك . . افتح باب قلبك . . بَلِّغ كلامي قلبك . . إنك لا بد أن تتذكر . . ﴿**أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ**

الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) ﴾ [الأعراف: ١٠٠] .

أخي وقرة عيني . . أحذرك العاقبة . . وأنذرك غب ذنوبك السابقة . .

احذر غضب ربك . . فمن غضب عليه لعنه وطرده من رحمته . . احذر أن تطرد . . احذر أن تُلعن . .

احذر أخذه وعقابه ﴿ **إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** ﴾ [هود: ١٠٢] .

احذر انتقامه وعذابه ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ** ﴾ [إبراهيم : ٤٧] . .

احذر سطوته وبطشه ﴿ **إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ** ﴾ [البروج : ١٢] .

احذر النار يا رفيق الفجار . . احذر الجحيم . . احذر الحميم . . احذر الغساق . . احذر الاحتراق . . احذر الويل «**واد في جهنم تستعيذ جهنم منه**» احذر غشيان النار للوجوه . . احذر إحاطة السرادقات النارية . . احذر شراب المهل والحميم . . احذر الأكل من شجرة الزقوم . . احذر ثعابين الهاوية وعقارب الحطمة . . ﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ** ﴾ [الهمزة : ٥ ـ ٩] .

احذر فوات الأوان . . وإسقاطك من الميزان . . احذر حجاب الله . . فإنك إذا أكثرت البطء والتباطؤ ومللته ملَّك . . ووكلك إلىٰ نفسك . . ففاتتك العناية والكلاءة . . وذهب عنك التسديد والتوفيق . . وبت صريع الأماني والآمال كأنك في غياهب الضلال والآجال .

إلى الهدى ائتنا

السبب الأول

الجهل والهوى

لعل أهم الأسباب التي تؤدي بالعبد إلى الفتور ، عدم فهم الدين نفسه، ،هذا هو الجهل الذي أقصده قد يبدو هذا غريبًا لأول وهلة ولكن الأغرب من ذلك أن نتصور عبداً وقد ذاق حلاوة الإيمان وفهم دينه فهمًا صحيحًا ثم ينصرف عن الالتزام والطاعة وحب الله ورسوله إلى معصية ، هل تتصور ذلك ؟! لا يمكن ،دائمًا نقول : هناك عيب وهناك مشكلة ، لا بد من البحث عنها ، وعندما تبحث تجد أن أكبر مشكلة تواجه الملتزمين عدم فهم الإسلام، أقصد الفهم المعتمد على الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة[١] .

الفهم الذي يستطيع أن يقيم في ذهن الأخ المعالم الرئيسية للحياة كما يريدها الإسلام .

إن المسلم إذا اتضحت أمام ذهنه هذه الحقائق ، الحقائق الإسلامية صعب عليه أو استحال أن يحيا بدون الإسلام ، لا يمكن أن تجد إنسانًا فهم الإسلام ، ذاق حلاوة الإيمان ، عاش نعيم ولذة الطاعة ، ثم يترك !!! لا يمكن . . مستحيل أن تجد إنسانًا يعرف الإسلام ثم يعيش بدونه ، لا

---

(١) وقضية « المنهج » في الفهم والاستدلال قضية خطيرة ، أما ترى هذه الأقوال الشاذة التي تخرج علينا ليل نهار ، وهذا كله نتيجة حتمية لعدم الوقوف على المنهج الحق في « فهم النصوص » أعني منهج السلف الكرام الذي أمرنا باتباعه قال تعالى : ﴿ **فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ** (١٣٧) ﴾ [البقرة: ١٣٧] .

ولمزيد بسط حول هذه القضية راجع رسالتنا « منطلقات طالب العلم » يسّر الله إخراجها .

يمكن !!! فأي إنسان انتكس وترك فاعلم أنه لم يفهم يقينًا ، لم يعش أصلاً حياة الإسلام حقيقة ، وإن عاشها ظاهراً ، لذلك سهل عليه الترك .

قيل لرجل من السلف : إن قومًا ذهبوا ثم رجعوا ، مشوا ثم عادوا ، قال : لو وصلوا لما رجعوا .

فلو وصل له الفهم السليم للإسلام ، لنمط الحياة ، وشكل الحياة في الإسلام لعاش ولو عاشه لما استطاع أبداً أن يعيش بدونه فالتخلي عن أي جزئية من الإسلام في حياته هو الموت .

تعالوا - إخواني - لنحاول فهم معنىٰ الحياة :

أيها الأحبة . . إنني أتساءل معكم . . هل للحياة مقياس تقاس به ؟! هل هناك مقياس فعلاً تقيس به أن فلانًا حيٌّ ، وفلانًا ميت رغم أنه حي ؟ قلت : نعم ، إن هناك مقياسًا ، وهذا المقياس ليس شرطًا أن يكون ترمومتر من زجاج مدرج ، وإنما هذا المقياس مثل خط الاستواء .

إن خط الاستواء هو خط وهمي (لم يأت أحد بقلم ومسطرة ورسم خطًا علىٰ الكرة الأرضية في الواقع) ولكنه موجود في ذهن كل من يريد أن يحدد مكانًا علىٰ ظهر العالم . كل منطقة في العالم تحدد بالقرب والبعد من خط الاستواء .

الخط المحدد الذي يخصنا نحن اسمه خط الإيمان ، هذا الخط بالضبط كخط الاستواء غير مرسوم ولكنه موجود ، غير مشاهد ولكنه واضح ، وعلىٰ قدر القرب منه تزيد حرارة الإيمان ، وبقدر البعد عن هذا الخط تقع في المحيط المتجمد الشمالي ، أو المحيط المتجمد الجنوبي ، الغلو في أحد الطرفين يُصَيِّر الحياة متجمدة ، لا حي ولا ميت ، هذه دعوة الله في الكتاب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]. وصلوا إلي هذا الغرض ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] .

هذا مقياس الحياة : ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ [الأنعام: ١٢٢] . هذه هي الحياة الحقيقية حياة القلب حين يستشعر حلاوة الإيمان .

كلما اقتربت من خط الإيمان زادت حلاوة الإيمان ، وكلما تباعدت عنه فقدت الحياة ، حياة الإيمان .

الذي يفهم الإسلام ، يفهم كيف يعيش الحياة ، فيحيا حياة هنيئة طيبة . ولذلك تجد الآيات فرقت أيضًا بين كلمة المعيشة وكلمة الحياة مع الإيمان، قال الله تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] .

وأما في الآخرين فقال تعالى :﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤] .

تأمل كيف وعد الله من آمن وعمل الصالحات بحياة طيبة وأكد هذه الحياة الطيبة بلام القسم ونون التوكيد المشددة ثم أتىٰ بالمصدر ﴿لنحيينه حياة﴾ وأما الآخر فمعيشة البهائم بل هو الضنك في المعيشة .

الشاهد: أن المسلم إذا اتضحت أمامه قضايا الإسلام استحال أن يعيش بدون إسلام ، بل سيجد نفسه ـ وبصدق والله ـ مدفوعًا إلىٰ زيادة الإيمان بالعلم النافع والعمل الصالح ، إنني أتساءل أنا وأنت عن شباب من الناشئة، امتلأت قلوبهم أول مقدمهم الدعوة ، إيمانًا ومحبةً ، أُخوةً وحماسًا ، فما لبثوا أن بردت حماستهم، واختلفت آراؤهم، وتغيرت وجوههم ، وضاعت طاعاتهم ، وخرجوا إلىٰ ضعف إيمان فرق بينهم ، إن هذا وصف يترجم ظاهرة متكررة في معظم المناطق في أوقات متعاقبة ، والجميع تساءل . . ما السبب . .؟

إن أحد هذه الأسباب بل ومن أهم الأسباب :

الجهل والهوى

أ ـ الجهل بالسنن الربانية في إصلاح القلوب بعد إصلاح الظاهر :

أيها الإخوة : إن القلب الإنساني يشعر بلذة عارمة إذا تمكن صاحبه من تنفيذ ما يعتقده صوابًا ، ولكن هذا القلب لا يقنع بل يتسع إلىٰ آفاق ممتدة مترامية ، يتطلع إلي إشباع كامل يستغرق هذا الامتداد الواسع ، إن القلب حين ينفذ ما يعتقده صوابًا ، فيسعد ، فإنه يريد تصاعد اللذة فلا يصبر بما أودع الله فيه من سر العجلة ﴿ **وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً** ﴾ [الإسراء: ١١] . فيخرج مدفوعًا بطمعه وعجلته ، إلىٰ إفراط في تشغيل الجوارح أو تفريط لعدم القدرة علىٰ فعل ذلك . وكلا الأمرين يؤدي إلىٰ الفتور والترك والانتكاس .

نضرب مثالاً لذلك أحد الإخوة دُعي إلىٰ الهدىٰ فالتزم ، أعفىٰ لحيته ، يستشعر سعادة غامرة أنه قد أعفىٰ لحيته وصار من الإخوة ، يريد بعد هذه السعادة التي تستمر يومًا أو يومين ، أسبوعًا أو أسبوعين ، شهرًا أو شهرين ، يريد أن يفعل شيئًا آخر ؛ لأن هذه اللذة قد فترت ، يقوم الليل ، يصوم النهار ، يقرأ القرآن ، يطلب العلم ، يريد أن يفعل هذا كله فإما أن يجنح إلىٰ الإفراط وهو لا يعلم **أنَّ هذا الدينَ متينٌ فأوغلْ فيه برفق فإن المنبت لا أرضًا قَطَعَ ولا ظهرًا أبقي** . وقد قال رسول الله ﷺ : « **إن الدينَ يسرٌ ولن يشادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه** »[1] فإن اشتد علىٰ نفسه قد يؤدي إلىٰ انقطاع ، أو يرىٰ هذا التكاثر من الطاعات ، فلا تساعده نفسه عليه فينفلت ؛ لأنَّه فَقَدَ اللذة الأولىٰ ، هو في البداية قد بدأ بأريد وأريد وأريد وأريد ، استشعر لذة، يريد تصاعد اللذة ، فأحد أمرين يغالىٰ أو يفرط .

والموَفَّق من رزقه الله من يأخذ بيده علىٰ هدىٰ ، وبسكينة وبعلم ،

---

(١) اخرجه البخاري رقم (٣٩) كتاب الإيمان ، باب الدين يسر .

بفهم وخبرة ، لا بد من فهم الإسلام لكي نتوغل فيه بحكمة وفهم لطبيعة هذا الدين ، لنعرف كيف نحيا الإسلام .

إننا قد نجد بعض الإخوة حال الالتزام قد بدأ يغالي عند تعامله مع والديه ، إخوته ، زملائه في العمل والدراسة والمصنع ، هذا الغلو يجر إلىٰ تفريط ؛ لأنه سيصاب بالإحباط . إنه يريدهم أن يتغيروا وبسرعة يريد أن يغير وجه الكون ليكون موافقًا لآماله العريضة في أن يكون الناس جميعًا مثله فيفاجأ بصعوبة ذلك أو باستحالته فينتكس .

ينبغي أن نعلم أن فهم الإسلام عصمة ، وفهم الإسلام بفهم السلف . لذلك حينما نجد من يشغل جوارحه بما يعود علىٰ القلب باللذة حتىٰ تتعب ، وتنتكس ، وينعكس تعبها علىٰ القلب في صورة ملل ، فتختلط اللذة بالمغارم ، وتعود اللذة ثقلاً محمولاً بعد ما كانت مركبًا حاملاً ، كان يجد لذة عظيمة جدًا في قيام الليل ، بعد ذلك صار قيام الليل حملاً ثقيلاً ضَغْطًا نفسيًا ، معاناة ، وتظل المغارم تضغط عليه حتىٰ ينكمش ويضيق بعد الاتساع الذي جبل عليه وشب في كنفه ، فلا يعود في قلبه محلٌ لحلم فيبدأ في التراجع ، تجد الأخ يصيبه الملل من كثرة ما يسمع من حديث مكرر يتملكه السأم من أمره وممن حوله ، فلا يواظب علىٰ حضور مجالس العلم ، ويتراخىٰ في صلته بإخوانه ، ثم تنقطع ، ثم يهوي ، تنقطع ، ثم يهوىٰ ، لماذا . . ؟ يقول : إنني أذهب ، فماذا أسمع . . ؟ أنا أعرف هذا الكلام كله ، سبحان الله . . لعلك لو صدقت مع الله إذا سمعت الكلام ألف مرة ، ازددت في كل مرة معنىٰ ، ولكل مرة مغزىٰ ، ولكل مرة دافعًا إلىٰ العمل بجزئية من الكلام ، ولكل مرة هدفًا ، ولكل مرة حلاوة ، ولكل مرة تقدمًا ، ولكل مرة رفعة ، ولكل مرة خطوة .

أما إذا وقع الملال في القلب فسيعود كره الحضور والابتعاد عنه وذكر

التكرار تكأة تعود به من حيث أتى ، هذا سببه عدم فهم الإسلام .

فما العلاج . . ؟

اعلم - رحمني الله وإياك - أن العلاج يتمثل في عدة أمور هي :

أولاً - الفهم العميق للإسلام ونظرة الإسلام للحياة .

كيف تعيش الإسلام وهذا يتأتي بسؤال [العلماء - الدعاة - من سبقوك على الطريق - بالبحث] .

هناك ثلاث آيات نفهم بها الحياة في ظل الإسلام ، إنها بمثابة ثلاثة أنوار تضيء الطريق إلى الله .

(١) ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦] .

تفهم بها لماذا خلقنا الله ؟

خلقنا لعبادته .

فتعيش عبداً : تعيش لتعبد الله ، تتصرف تصرف العبيد لا تصرف الأحرار ، فليس شرطًا أن يكون للعبد كل ما يريد أن يعيش كما يهوي ، لا . . إنه عبد فليكن مراده مراد سيده .

إذا فهمنا قضية العبودية استطعنا أن نستريح في :

مفارقات الحياة ، القضاء والقدر ، الصبر ، والحب ، والرضا ، الأسباب ، والنتائج .

كل هذه المسائل وعشرات أمثالها تزول عند قناعتنا أننا عبيد لملك حكيم، فنستسلم، ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام .

فنعيش على مراد الله منا لا على مرادنا من الله .

(٢) ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴿٢﴾ ﴾

[الملك: ٢].

تفهم بها لماذا تموت ؟

إن الحياة قصيرة ، والجنة سلعة غالية ، لذلك تحتاج إلىٰ عمل دائب متواصل بل وأحسن الأعمال فلا بد أن تفهم من هذه الآية :

* أن مدة الحياة ابتلاء .

* أنها منافسة علىٰ حسن العمل .

* أن الموت خلق مع الحياة فكن علىٰ أهبة الرحيل .

فمن فهم أنها ابتلاء ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣] من فهم أنها بلاء وابتلاء فأنىٰ له التنعم، والتلذذ بالراحة والدعة قال ﷺ : «**إياك والتنعم فإنَّ عباد الله ليسوا بالمتنعمين**»[1] إنه سيدع الإخلاد إلىٰ الراحة وطلب التنعم ليعيش حياته منافسة ومسارعة لطلب رحمة الرحيم وجنة النعيم .

(٣) ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ [الكهف: ٧، ٨] .

نفهم من هذه الآية السر في خلق متاع الدنيا . . إن الله خلق جميع ما علىٰ الأرض زينة لها، زينة زائلة ، وإنما هي مخلوقة للابتلاء هل سنستعملها بالإحسان العمل أم ستكون فتنة تشغل عن الله . ؟!!

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢١٦٠٠) ، (٢١٦١٣) وصححه الشيخ الألباني كما في الصحيحة (٣٥٣) ، وصحيح الجامع (٢٦٦٨) .

والحديث وصية النبي ﷺ لمعاذ بن جبل - رضي الله عنه - لمـَّا بعثه إلىٰ اليمن داعيًا إلى الله فتنبه !!

إن كل ما على الأرض زينة وليس له قيمة بالنظر إلى الجنة إن الله خلق لك ما على الأرض جميعًا لتستعين به على طاعة الله ويبلغك رضوان الله، إن هذه المخلوقات من جبال وأنهار وبحار وسيارات وعقارات وأموال وأطعمة ومشروبات وملبوسات كل ما على الأرض ابتلاء لحسن العمل ، هل ستستغلها في تحسين عملك لله، وفي طلبك لرضا الله، وتجعلها مطيّة لتبلغك الجنة أم أن كل هذه ستصبح لك أهدافا تستعين بها على تحقيق ملذاتك وإشباع شهواتك . ما على الأرض ابتلاء . . كيف ستخرج منه ؟

في كل هذه الآيات الثلاث تفهم أنك «**(١) عبد (٢) مبتلى (٣) الدنيا زينة زائفة فهل ستخدعك فتهلكك وتعطلك** ؟

فإن فهمت كان شعارك « مالي وللدنيا »[1] **كما كان شعار النبي ﷺ ويصدق فيك « الدنيا قنطرة واستيطان القناطر بله »**.

العلاج الثاني ـ علو الهمة في طلب علم الكتاب والسنة :

السعي الدائب في زيادة العلم ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾ [طه : ١١٤] أشرطة ـ كتب ـ مجلات ـ بحوث ـ مشايخ ـ زد كل يوم علمًا ، لا بد أن تزداد كل يوم علمًا . وكلما زدت علمًا زدت ثباتًا ويمكنك ـ أخي الكريم ـ أن تستعين على ذلك بمطالعة سير السَّلف لتدرك مدى حرصهم على الطَّلب وبذلهم الغالي والنفيس لينالوا درره ، إذ لا ينال العُلم براحة الجسم .

وقد قال الإمام الشافعي : « حق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من علمه ، والصبر على كل عارض دون طلبه ،

(١) تقدم تخريجه .

وإخلاص النية لله تعالىٰ في إدراك علمه نصًا واستنباطًا ، والرغبة إلىٰ الله تعالىٰ في العون عليه » .

ومن يصــــطبر للعلــــــم يظفر بنيــله
ومن يخطب الحسناء يصبر على البذل
ومن لم يذل النَّفس في طلب العلى
يــســيرًا يعش دهـــرًا طـــــويلاً أخَا ذُل

ثالثًا ـ دفع الهوى وصدق الإخلاص والتعامل مع الله بيقين :ـ

دفع الهوىٰ (**نون الهوى من الهوان مسروقة**) فالهوىٰ هو الهوان، ولكن سرقت نونه فانتبه ، ادفع هوىٰ نفسك وتجرد لله ورسوله واسترشد بذي الخبرة ممن سبقك في الطريق من الدعاة ، واعمل بنصائحهم وإرشاداتهم تصل سريعًا إن شاء الله .

إن الابتسار طريق الاندثار (**الأطفال المبتسرون هم الذين يتم وضعهم في الحضانة لعدم اكتمال النمو**) اصبر ليتكامل نموك في محضن التربية وفي رحم العلم ، فإن لم يتكامل النمو سريعًا وولد إيمانك ناقصًا اندثرت من علىٰ الطريق أسرع .

الزم المشايخ والدعاة ، اقترب منهم ، استضىء بأنوار علمهم ، وهدايتهم ، اقترب من الدعاة في مجالسهم ، في كتبهم (**كتب ا لسلف**) .

كان عبد الله بن المبارك يخلو مع الكتب ، يقول : أجالس الصحابة، فالابتسار طريق الاندثار ، ومذ خلق الهوىٰ خلق الهوان .

اعلم ـ رحمني الله وإياك ـ أن الهوىٰ لا يتصرف إلا بربع قلب خاوٍ من العلم ، فالجهل خندق يحول بين الطالب والمطلوب ، العلم يدل علىٰ القنطرة .

وإن كتابة العلم في ليلِ الجهلِ تفتقر إلى مصباح فطنة ، ودهن الذهن غال ، ما قدر لصٌ قَطٌّ على فَطِنٍ ، ومتى نام حارس العلم انتبه لص الهوى .

يا من ثبت قلبه في حرب الشهوات ، اعلم أنه لن تتزلزل قدمك ، فأول ما ينهزم من المهزوم قلبه ، إذا انهزم القلب انهزمت الجوارح . . . . فطالما ثبت قلبك في حرب الشهوات ، فأبدًا لن تتزلزل قدمك . . .

وما دمت في حرب العود ، فلا تبالِ بالجراح فإنه قد يصاب الشجاع . . .

إنما المهادنة دليل الذل . . . وإن تأثير الذنوب على مقاديرها .

* * *



قال يحيى بن معاذ :

المغبون من عطَّل أيامه بالبطالات .

وسلَّط جوارحه على الهلكات .

ومات قبل إفاقته من الجنايات .

أما تسمع رجع الصدى :

إلى الهدى ائتنا

السبب الثاني
توقف النمو في أيٍّ من جوانبه
العلمية أو العملية أو الدعوية

القلب يطلب دائمًا المزيد فإذا توقف النمو في أي من جوانبه العلمية، أو التربوية ،أو الإيمانية ، أو الدعوية فإنه يؤدي إلى الانتكاس والانتقاص والرجوع ولكن اعلم أن [**ورود الفتور أمر عارض يجب ألا يُسَلَّم له ، فالمسلم إن كانت له فترة فلتكن استراحة مقاتل**] .

لتكن الفترة استراحة مقاتل يعود بعدها إلى العطاء والجهاد ، أما النوم فلا . وهذا معنى ما في كتاب الله جل جلاله ﴿ **وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ** ﴿٣٦﴾ **وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ** ﴿٣٧﴾ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ** ﴿٣٨﴾ **وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ** ﴾ [الزخرف : ٣٦ - ٣٩] .

نقول : إن الفترة لازمة لكل الناس ولكن كن خفيف النوم ، فإن حراس الوعاظ يوقظون ، ينبهون ، يمرون ، يذكرون ، فاحرص أن تكون خفيف النوم ، واستجب لهذه الدعوة .

إلى الهدى ائتنا

أما من أدمن النوم وأطال الرقاد ، واستلذ بالسبات، وعمق نومه ، وذهب في شخير طويل، فإن صوت شخيره يغطي على صوت الدعاة الحداة «**إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضُراط، حتى لا يسمع التأذين**»[1]

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري رقم (٦٠٨) كتاب الأذان ، باب فضل التأذين ، ومسلم رقم (٣٨٩) كتاب الصلاة ، باب فضل الأذان وهروب الشيطان عند سماعه .

تجد كثيراً من الناس يولي وله ضُراط حتىٰ لا يسمع الدعوة ، وهناك من الآراء ما هو إلا كهيئة الخلاء لا يؤتي إلا لضرورة يريد أن يفر من الدعوة فيقول لك : الملتزمون كلهم كذابون ، سيقول إنهم منافقون ، سيقول : رأيتهم أسوأ الناس ، سيقول ويقول ويقول .

يا بني : لا تصدقه وأقول لك : إنك لو سألته فإنه سيكذب نفسه ، وإنما هو كمثل حائط انهدم فإنه لا بد أن يثير غباراً يستر به عورته .

إن سبب النكوص غفلة عرضت فاستمرت فطالت ، فأرقت فاستحيا أن يعود ، كثير من الإخوة أقابله وأسلم عليه ، فإذا قلت له : أين أنت . . ؟ ، يقول : غبت مرة فغلبني الخجل من لقاء الشيخ ، ثم غبت بعدها مرتين ، ثم تعودتُ الغياب ، وقلت : لا يصلح الحضور ؛ لأنني غير منتظم .

ونفس الشيء يحدث مع قيام الليل ، فإنه نام ليلة ، ثم نام الليلة التالية نام الثالثة ، قد يقوم فيخجل ويقول : لا فائدة نم نم فينام نومة الموت .

إن الإنسان إذا فتر فلا بد أن يرجع ، اسمع إلىٰ الحديث الجميل الجليل ، يقول ﷺ: « **إن عبداً أصاب ذنبًا فقال : ربِّ أذنبت ذنبًا فاغفرلي ، قال ربُّه : أعَلِمَ عبدي أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب؟ قد غفرت لعبدي ، ثم مكث ما شاء الله وأذنب ذنبًا آخر فقال : ربي أذنبت ذنبًا فاغفر لي ، أعَلِمَ عبدي أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب؟ ، غفرت لعبدي ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أذنب قال : ربِّ أذنبت آخر فاغفره لي . فقال : أعَلِمَ عبدي أنَّ له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرتُ لعبدي ثلاثًا فليعمل ما شاء** »[1].

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري رقم (٧٥٠٧) كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى يريدون أن يبدلوا كلام الله ، ومسلم رقم (٢٧٥٨) كتاب التوبة ، باب قبول التوبة وإن تكررت الذنوب والتوبة .

إذا أذنبت فلا تستح أن ترجع ، وإن أذنبت ثانية فلا تستح أن ترجع ثانية وإن تبت وأذنبت الثالثة فلا تستح أن ترجع رابعة وخامسة وعاشرة ومائة وألف وألفين ومليون ، والله يقبل توبتك إن شاء الله ما لم تخرج روحك ، أو تطلع الشمس من مغربها ، تب فإن ربك كريم ، فلذلك أقول : إذا فترت سارع وارجع ، إذا زاد الفتور حاول وارجع ، إذا غمست في الفتور فاستعن بالله ومد يدك وستجد من ينقذك إن شاء الله .

يا من فَقَد قلبه . . وعدم الحيل في طلبه . . تنفس في كرب الوجد . . فبريد اللطف يحمل الملطفات . . ريح الأسحار ركابي الرسائل ، ونسيم الفجر . . ترجمان الجواب ﴿ . . . **إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا** ﴿٧٨﴾ ﴾ [الإسراء : ٧٨]

أخي . . يا من ابتعدت قم هيا وناد . .

يا دائرة الشقاء أين أولك . . ؟ يا أرض التيه متى آخرك . . ؟

قم الليل فهو شفيع مشفع . . تمسك بالبكاء فهو رفيق صالح . . ادخل في زمرة المتهجدين على وجه التطفل بلسان التذلل . . قال الله في الحديث القدسي : «**وإن تقرب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعًا وإن تقرب إليَّ ذراعًا تقربتُ إليه باعًا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة** »[1] .

الله يناديك ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الزمر :٥٣] .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخاري (٧٤٠٥) كتاب التوحيد . باب قول الله تعالى : ويحذركم الله نفسه﴾ ، ومسلم (٢٦٧٥) كتاب الذكر والدعاء والتوبة . باب الحث على ذكر الله تعالى .

ولكن أبواب الملوك لا تطرق بالأيدي ولا بالحجارة . . ولكن بالنداء والدعاء الخفي . . بالدموع والتذلل . .

فإذا رأيت نفسك متخبطة لا مع المحبين . . ولا مع التائبين فاعلم أنك ضعت .

ولكن ابسط رماد الأسف، واجلس مع رفيق اللهف ،وابعث رسالة القلق مع بريد السعداء لعله يأتي الجواب بكشف الجوىٰ .

أيها الأحبة في الله .

تخلل الفترات للسالكين أمر لازم لا بد منه ، هذا كلام ابن القيم :

يقول : « فمن كانت فترته إلىٰ مقاربة وتسديد ولم تخرجه من فرض ولم تدخله في محرم رجي له أن يعود خيراً مما كان » .

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : ذُكر رسول الله ﷺ رجال ينصبون في العبادة من أصحابه نصبًا شديدًا فقال رسول الله ﷺ : **«تلك ضراوة الإسلام وشرته، ولكل ضراوة شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى الكتاب والسنة فَلأَمٍ هو، ومن كانت فترته إلى معاصي الله فذلك الهالك»**[1] .

هذا حديث واضح المعالم بأبي أنت وأمي يا رسول الله عليك وعلىٰ آلك يبين لك ما الفتور الذي يحْتاج إلىٰ علاج . فإن حصل أن الإنسان فتر وأوقعه الفتور في محرَّم وترك فرضًا ، يقول ابن القيم : «وملاك عودة ذاك أمران» ، هذا الذي وقع في الحرام وترك الواجب ملاك علاجه أمران «أحدهما : أن تنقل قلبك من وطن الدنيا فتسكنه في

(١) صحيح السلسلة الصحيحة (٢٨٥٠) .

وطن الآخرة ، ثم تقبل به كله على معاني القرآن واستجلائه وتدبره ، وفهم ما يراد منه وما نزل من أجله ، وأخذ نصيبك من كل آياته ، وتنزيلها على داء قلبك ، فإذا نزلت هذه الآيات على داء القلب ، برأ القلب بإذن الله » .

الله أكبر . هذا هو العلاج ، فقد قلنا : إن المرض سببه أن إيمانه لم يزد ، علمه لم يزد ، طاعته لم تزد فمن لم يكن في زيادة فهو في نقصان . ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الإسراء : ٨٢] ﴿ **إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ [الأنفال : ٢] .

* * *

[علاج توقف النمو]

*** أول خطوة في طريق العلاج هي « تدبر القرآن »**

أخي الكريم . . تلك وصفة يضعها لك ابن القيم كطبيب «**إن كل ما شغلك عن القرآن فهو شؤم عليك**» القرآن يا شباب ، كثيراً ما ألقىٰ إخواني، فاسأل ما هي أخبارك مع القرآن . . ؟ أقول له : متىٰ كانت آخر مرة ختمت فيها القرآن ؟ وكيف حالك مع القرآن ؟ كم يكون وردك اليومي؟ فيقول إني خجل . . نعم والله يجب عليك أن تخزىٰ من نفسك إن كان حالك مع القرآن أنك لا تختمه إلا مرة كل شهر أو شهرين .

تفكر تعرف قدر ما فاتك . .

وابك علىٰ ذنب حرمك الفوز وأفاتك . . اسكب دموع أسفك فُرَبَّ دمع بالأسىٰ سُفِك . . لعلك تغاث في موقفك . .

* كان لقوم جارية فأخرجوها للنخاس فأقامت أيامًا تبكي ثم بعثت إلىٰ سادتها تقول : بحرمة الصحبة ردوني فقد ألفتكم .

يا من كان له مع الله معاملة . . يا من كان يقوم فصار من أهل البطالة . . يا من كان يذكر فهجر وانشغل بالكلام . . يا من حفظ القرآن فنسيه ووقع في قلبه لؤم وعليه يلام . . يا من كانت له مع الله عبادة فوقع تفريط . . قم في الدياجي وامدد يد الذل وقل : قد كانت لي خدمة فعرض تفريط أوجب البعد . . فبعزتك وقدرتك . . بعفوك ورحمتك . . بعظمتك وجلالك . . بعزك وذلي . . إلا رحمتني ، بقوتك وضعفىٰ . . إلا أخذت بيدي . . بغناك وفقري إلا أخذت بيدي . . بغناك وفقري إلا هديتني وأصلحتنىٰ وعاملتني .

قل : إلهي قد كان لي معك عبادة وخدمة . . ردوني فقد ألفتكم .

يا هذا . . .

لا تبرح الباب ولو طردت . . ولا تزل عن الجناب ولو أبعدت . . وقل بلسان التملق : إلىٰ من أذهب . . . ليس لي غيرك . . ؟

إن طردت فقل : سيدي . . إلىٰ من تطردني . . ليس لي غيرك . . ؟

إن أبعدت فقل : سيدي . . ليس لي غيرك . . علىٰ من أتوكل . . من أدعو . . ومن يستجب . . ؟

إن أُقْصيت فقل : سيدي . . ليس لي إلا أنت فإلىٰ من أنسب . . ؟

إني ـ والله أحبكم في الله ـ ولذا أدعوكم إلىٰ هذه المصارحة ، إنه من الخير أن نعترف أن صلة الكثيرين منا بكتاب الله ما زالت محدودة ضيقة ، إن أكثرنا يستسهل سماع شريط للقارئ الشهير فلان أو فلان من القراء المشهورين والعلماء المعروفين الذين نسأل الله أن ينفع بعلومهم .

وهذا الاستسهال هو داؤنا فقد انقطعت الصلة بيننا وبين كتاب الله صار استماع الشريط بديلاً عن قراءة الجزء من القرآن ، قد نسمح بهذا أحيانًا هذا صحيح ، إننا نعترف ، ولكن يجب أن تعلم ـ رحمني الله وإياك ـ أنه علىٰ قدر صلتك بالقرآن تكون صلتك بالرحمن ، إن صلتك بالقرآن ، كلام من الله إليك وقراءتك لكلام الله بين يديه .

إن أحسننا حالاً هو من يقنع بقراءة الورد اليومي ، للأسف قد لا نكلف أنفسنا عناء مراجعة المفردات أو قراءة منتظمة ، فاحصة بتوجيه سليم ، كثيراً ما تجد من يتكلف عناء الاتصال التليفوني بأحد المشايخ والعلماء ليسأل عن تفسير آية لا يتكلف النظر إليها في كتاب التفسير ، وهو قد يملك أثمنها وأنفعها وهو لا يدري قيمة الكتاب الموجود في مكتبته .

إنه لا يتكلف حتى قراءة كتاب « **كلمات القرآن للشيخ أبي ذر القلموني** » لمعرفة حتى معاني الكلمات .

وكثيرًا ما يكتفي الأخ بمعرفة آيات مختارة من القرآن لعلها تمثل ناحية أو أكثر من نواحي الإسلام ، دون تصوير شامل بما يجب على المسلم أن يفهمه ويؤمن به ويعمل له .

إننا نحتاج - وأنا أصدقكم في النصيحة راجيًا الله أن أكون لكم ناصحًا أمينًا - أن نرتب لأنفسنا دراسة منظمة طويلة الأمد واضحة الهدف تخرج جيلاً من الذين يفهمون دينهم ويفهمون كلام ربهم فهمًا صحيحًا .

إن هناك فرقًا كبيراً بين أن نجعل محور دراستنا اختيار الآيات المؤثرة ، أو التفسيرات الفنية ، نزين بها الخطب أو ننعش بها الحفلات ، وبين الدراسة الممتعة التي تحتاج إلى عناء وسهر لا نستهدف إلا استنقاذ النفس من الجهل ، استنقاذ النفس من غضب الله عندما تقرأ كلامه بغفلة أو تتعامل مع كتابه بلا وعي ، بحاجة إلى أن نضع برنامجًا لدراسة القرآن ، لفهمه ولتعلمه ، إننا بحاجة إلى ذلك - والله إن التقرب إلى الله بفهم كلامه الذي أرسله إلينا ليخرجنا من الظلمات إلى النور .

أنا أود أن يُفَرِّغَ كل منا نفسه بحيث لا تطلع عليه إلا عين الله ويحاول أن يسأل نفسه . . ماذا أحفظ من كتاب الله . . ؟ وماذا أفهم مما أحفظ . . ؟

هل راجعت فهمي على كتب التفسير المأثورة ، والسنة المعتمدة . . ؟ أم أن فهمي للقرآن قد جمعته من سماع أشرطة العلماء . . ؟ هل عملت بما فهمت . . ؟ وكم مر علي من الشهور والأعوام دون أحفظ

جديداً . . ؟ كم مر من الشهور والأعوام دون أن أطبق على حياتي جديداً ، أو أن أعمل في حياتي بجديد . . ؟

إنني أريد أن نبيت الليلة مع هذا السؤال . . نتساءل أين نحن من كتاب الله . . ؟ لنتساءل يا أهل القرآن ماذا فعل القرآن بقلوبكم . . ؟ نتساءل هل أعظم جهودنا موجهة نحو كتاب الله ، وما يرضى الله؟ هل نحاول أن نستكمل النقص في فهمنا لكتاب الله . . أم قعدت بنا هممنا . . . ؟

مع هذه الأسئلة ، فلا شك أن كثيراً منا سيُحسون بالإثم والتأثم في حق كتاب الله .

إن كثيراً من الناس يتفانون في نشر كتب ، وبث أفكار ، وخدمة آراء حين يراها الإنسان أو يسمع عنها يخجل من موقف المسلمين مع كتاب الله ، مع كلام الله الذي بين أيدينا ، كلنا مقصرون ولا شك ، ولا يستثنى من التقصير إلا من رحم ربك ، ونسأل الله أن يغفر تقصيرنا وأن يرحم ضعفنا ، ولكن في نهاية هذا الأمر فإن العلاج هو القرآن للخروج من الفتور أرجو ألا نقيس أنفسنا بمن نعيش بينهم ، فتظن أنك بقراءتك جزءاً من القرآن يومياً أنك أفضل ممن لا يقرؤه بالكلية ، تظن أنك بفهمك بعض الآيات فإنك أفضل ممن لا يقرأ القرآن وكأنه أعجمي لا يفهم ما يقرأ . . لا . . ليس هذا هو المقياس . . إنما المقياس قوله تعالى : ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾ [الأحزاب : ٢١] .

وإنني لأخاف والله كلما قرأت حديث رسول الله ﷺ «**ويل لمن قرأها**

ولم يتفكر فيها »[١] ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران : ١٩٠] .
إنه ينبغي عليك أن تراجع نفسك على كلام الله ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد : ٢٤] ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِه وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص : ٢٩] .

انتبه لهذا . . إنك مطالب بالتدبر والتذكر ، التأسي برسول الله ﷺ وأصحابه ، منهجنا نأخذ من السلف ، القرون الثلاثة الخيرية ، كيف كان تعاملهم مع القرآن ، نسأل الله أن يرزقنا التدبر في آياته .

أما العلاج الثاني لتوقف النمو فهو : سياسة النفس :

أن يسوس نفسه ، أن يسدد ويقارب ، حتى يعود إلى طاقته وقوته في العبادة ، إن نفسك تحتاج منك إلى سياسة ، قال رسول الله ﷺ : «**إنَّ الدين يُسرمتين ولن يشاد الدين أحدٌ إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا ، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيءٍ من الدلجة** »[٢] .

هذه هي سياسة النفس ، أن تسوسها وتروضها شيئًا فشيئًا ، إن النفس تحتاج إلى سياسة ، عِدْها ومَنِّها ،إنها تريد الله، ما العيش إلا في الجنة .

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في التفكر وابن المنذر وابن مردويه والأصبهاني في الترغيب وابن عساكر . .

وأخرجه ابن حبان (٥٢٣) في صحيحه . كما في الدر المنثور للسيوطي من حديث عائشة - رضي الله عنها - .

وذكر المتقي الهندي في كنز العمال بلفظ : « ويل لمن قرأ هذه الآية ثم لم يتفكر فيها » وعزاه للديلمي عن أم المؤمنين عائشة أيضًا .

(٢) أخرجه البخاري (٣٩) كتاب الإيمان . باب الدين يُسر .

العلاج الثالث : أن يجتهد في الزيادة .

أن يرفع لنفسه بالفكر أعلام الآخرة . . كيف يكون ذلك . . ؟

إن رسول الله ﷺ سوف ينتظر على الحوض يتلقى المؤمنين . . إن المؤمنين في ظل عرش الرحمن . . . اسألها :

هل أنت من السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله . . ؟!!

هل سيكون نورك على الصراط كالشمس . ؟!!

هل تكونين ممن يمر كالبرق . ؟!!

هل تكونين ممن يكون في ملكه قصر يتراءى لأهل الجنة كالكوكب الدري ؟!! هل وهل وهل ؟!!! إنك بهذا تغريها بالاجتهاد في العبادة والزيادة فيها ؛ لأنها سوف تستقل ما تفعل وما منه تنصب ، في سبيل ما ترجو وتطلب .

العلاج الرابع : أن تشعل في نفسك روح المنافسة .

قال تعالى بعد وصف الجنة ﴿**وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾ [المطففين : ٢٦] .

من نافسك في دينك فنافسه ، ومن نافسك في الدنيا فألقها في نحره . . . ولإشعال روح المنافسة عدة وسائل :-

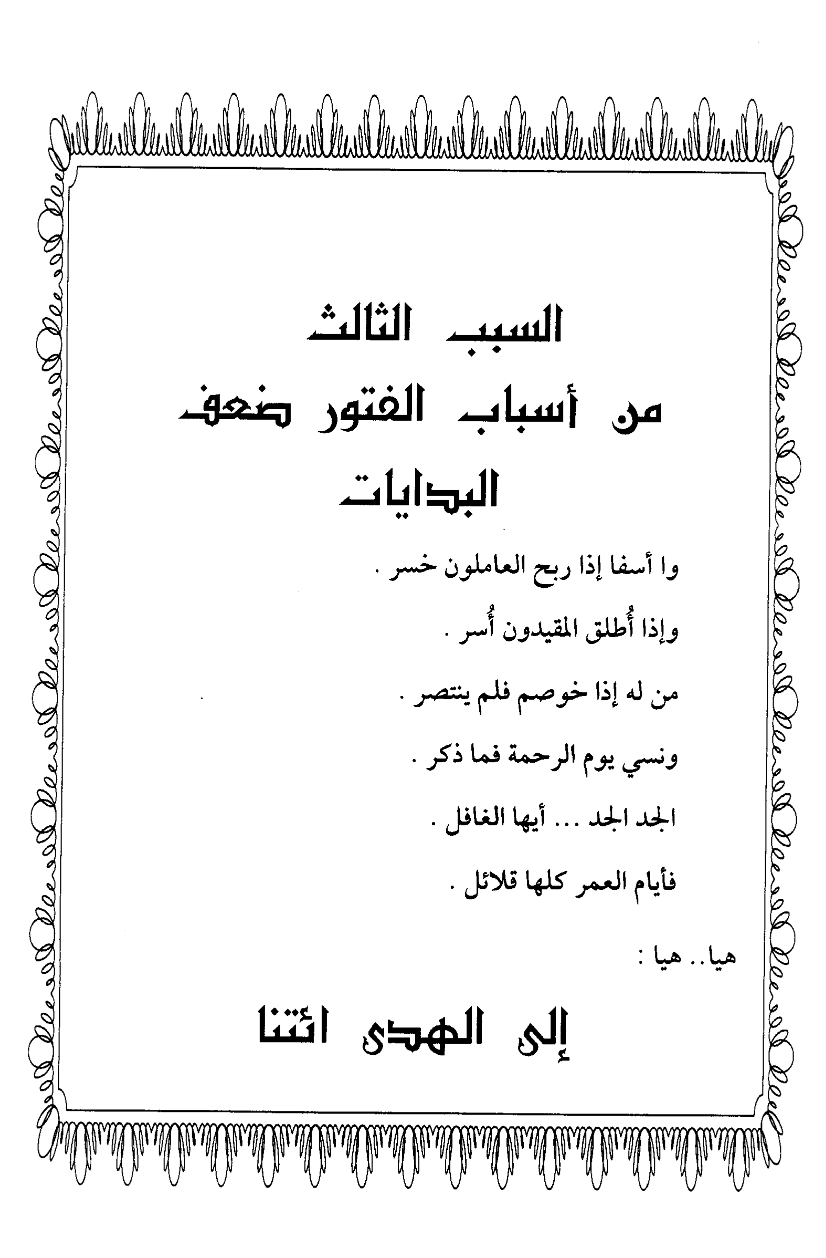
أولاً - بقراءة سير السلف .

ثانيًا - برؤية أصحاب الهمم العالية من أقرانك .

ثالثًا ـ حث وتنشيط النفس بآيات القرآن، وتذكيرها بعبادة النبي محمد ﷺ . . كيف أنه قد تفطرت قدماه من طول القيام ، كان يقوم أكثر من ثلثي الليل وحين يقال له : ألست قد غفر الله ما تقدم من ذنبك ما تأخر . . ؟ فيقول : « **أفلا أكون عبدًا شكورًا** »[1] إنه يستمتع بالعبادة ، بلقاء ربه ، بالمثول بين يديه ، حتىٰ بعد أن علم أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . . . أليس هذا النبي هو أسوتك ، قائدك ، حبيبك صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا . . . أما عن سلفنا الصالح فكانوا يتنافسون في العبادة ، فقد كان التابعون ينهرون أنفسهم إذا أرادت القعود بهم عن أعمال الصحابة ويقولون لها (**لقد كان الصحابة خلف النبي ﷺ على جياد مضمرة ، ونحن خلفهم على حمر عرجاء، أفتريدين أن تقعدي بنا عنهم فيفوزون برسول الله ونقعد ، والله لنلحقن بهم ولو حبوًا** ، حتى **يعلموا أنهم قد خلفوا رجالاً**) كانوا يعملون في رفع الدرجات ونحن ما زلنا نعمل في محو السيئات .

* * *

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري رقم (١١٣٠) كتاب الجمعة ، باب قيام النبي ﷺ الليل حتى ترم قدماه، ومسلم رقم (٢٨١٩) كتاب صفة الجنة والنار ، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة.



السبب الثالث
من أسباب الفتور ضعف البدايات

وا أسفا إذا ربح العاملون خسر .

وإذا أُطلق المقيدون أُسر .

من له إذا خوصم فلم ينتصر .

ونسي يوم الرحمة فما ذكر .

الجد الجد ... أيها الغافل .

فأيام العمر كلها قلائل .

هيا.. هيا :

إلى الهدى ائتنا

السبب الثالث
ضعف البدايات وتخلخلها

إذا كانت بداية الالتزام ضعيفة ، خالية من الأصول والبناء المنهجي وكانت تعتمد على العواطف والعلاقات الشخصية لا يمكن أن تورث ثباتًا، فصفاء الانتهاء من صفاء الابتداء . أكرر ، إنَّ البداية الضعيفة والخالية من الأصول المنطقية والبناء المنهجي والتي تعتمد على العواطف والعلاقات الشخصية لا يمكن أن تورث ثباتًا ، فمن كانت له بداية محرقة كانت له نهاية مشرقة .

فلا بد من بداية مشتعلة، بداية سديدة قوية، بداية ثابتة راسخة، على أصول وقواعد وأسس، أما البدايات العاطفية فإنها تفتر مع مرور الأيام .

أيها الشباب . . إننا نقول أن من لا يجد الحماس إلا في مجلس الوعظ فقط ، عليه أن يتهم إيمانه ، فإن الغرض من مجلس الوعظ هو إشعال النار في معاصيك ليستنير بها قلبك، فإن كان في قلبك حلفا فإنها لن تضيء طويلاً، والمطلوب أن يكون في قلبك مصباحٌ متقدٌ بزيت الإخبات .

وقد يكون الوعظ كضرب السياط يؤلمك آثاره ، ولكنني أريد قلبك قلب الحر، أن يبقى منيرًا « **قلبًا أجرد فيه سراجٌ يزهر، ذلك قلب المؤمن** »[1] وكما قيل : العبد يقرع بالعصا ، والحر تكفيه الإشارة .

---

(١) أخرج الإمام أحمد في مسنده (١٠٧٤٥) عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ «القلوب أربعة قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس، وقلب مُصفح ، فأمَّا القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره ، وأمَّا القلب الأغلف فقلب الكافر، وأمَّا القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر، وأمَّا القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق كمثل القرحة يمدها القيح والدم فأي المدَّتين غلبت على الأخرى غلبه عليه» . قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء: فيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه . وكذا في المجمع (١/ ٦٣) .

فأنا لا أريد لك قلبًا يقرع بالعصا ولا يرتدع ، إنما أريد قلبك حرًا ، يؤلمه ألا يكون في زمرة الصالحين .

إننا نريد البداية الحقيقية ، بداية منهجية في التربية وفي طلب العلم ، أن تكون دائمًا في زيادة في القرآن ، في الفقه ، في العقيدة ، في السيرة

بداية التربية : بصيام ، قيام ، ذكر ، تلاوة قرآن ، زيارة مقابر ، بكاء ، خشوع .

بداية حقيقية على منهج الله في الدعوة إلى الله ، بداية بدعوة الناس إلى المساجد ، حضور مجالس العلم ، إهداء الأشرطة والكتب ، بالكلمة اليسيرة والزيارة اللطيفة والهدية الجميلة ، بداية منهجية لمن يريد أن يستمر .

أما من دخل حقل الالتزام على أنه مستشفى لعلاج مرضى القلب ، يزود رواده بالإيمانيات والروحانيات وكفى ، إن من دخل الالتزام على أنه قراءة قرآن في زاوية المسجد فقط ، فإن هذا ولا شك يختلف عن شخص يعرف الطريق إلى الله يعلم أنه قد انضم إلى جيش يقاتل ، يدافع ، يواجه ، يخطط ، حين تدخل الالتزام فأنت تدخل معركة مع الشيطان ، ومعركة مع النفس ، ومعركة مع الهوى ، ومعركة مع المجتمع المتفلت والمدافع عن التفلت ، ومعركة مع الأعراف والتقاليد التي تخالف عقيدتك ، ومعركة مع الأصدقاء والأهل والجيران والأقارب ، فإن أعددت للأمر عدته ، لبست للحرب لأمتها ، فإنه لا «**ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل** »[1] القضية أننا ما دخلنا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٤٣٧٣) . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رجال رجال الصحيح .

واللأمة : الدرع ، وقيل : السلاح ، ولأمة الحرب أداته كذا في النهاية (٤/ ٢٢٠) .

لنلعب ، ولا لننام لقد قال رجل لابن الجوزي : إني لم أنم البارحة شوقًا إلى المجلس ، قال : لأنك جئت تريد أن تتفرج ، المطلوب ألا تنام الليلة من هول ما سمعت .

وجاء رجل لبعض السلف فقال : قطعت إليك مسافة كذا وكذا ، قال : ليس هذا الأمر بقطع المسافات ، فارق نفسك بخطوة تبلغ المطلوب . .

فالمطلوب أن نعمل يا شباب .

إنني أريدك أن تعلم أن النبي ﷺ لم يكن إمامًا لقبيل من الناس صلحوا بصلاحه فلما مات انتهى كل شيء ، لا ، ولم يكن أيضًا دليلاً قال للناس أمسكوا بذيل قميصي أقودكم ، أبدًا وإنما جاء ليقذف في قلبك نورًا وبصيرة ، فترى الطريق ، وقال : اذهب فقف وحدك أو مع قبيل من الناس لنرفع أكف الضراعة إلى الله ونقول : اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم .

إنه من العبث أن نتشبث بأذيال الكلام ونترك العمل ، يجب أن نعمل ، أن نتحرك ، هذا هو الفهم للإسلام وللدعوة وللالتزام دخول حقيقي في معركة مع ما حولك من باطل ، معركة تقودها بالحكمة والموعظة الحسنة والتحبيب وتقريب القلوب إلى الله ، معركة تقودك بعد أن تدعو باللين والحكمة ، أن تتدرج إلى هجر الباطل والانفصال عنه ومقاطعته ليشعر حينها بأنه قد صار منبوذًا في دنيا المسلمين الملتزمين .

أما من لا يأتي بهذا الفهم وتلك النفسية ، سينقطع به الطريق وتظهر عنده نية التراجع ، ثم يطول به الطريق فيضعف مشيه وينهار

عزمه، فمن يقصر في البداية ، يذهل عن الغاية ، وفي تذكر البداية شحذ للهمم وعون للمواصلة .

لذا قال بعض السلف : واشوقاه إلىٰ أوقات البداية . . يعني لذة أوقات البداية ، وجمع الهمة علىٰ طلب رضا الله والسير إليه .

انظر بعد أن يسير الملتزم في الطريق فترة يتذكر أيام البداية ، هذا إذا كانت بداية قوية ، راسخة ، أما إذا كانت البداية خالية ومتلونة وضعيفة وفيها اتباع للهوىٰ ، فإلام تشتاق . . ؟ إننا نقول: إن البداية إذا كانت قوية فإنها تظل مصدراً لإشعاع النور فيظل السائر مدة يسير بقوة الدفع الأول .

إن الطالب الجاد تعرض له فترة فيشتاق في تلك الفترة إلىٰ حال قلبه في بداية الطلب و الاجتهاد .

هذا أبو بكر الصديق - رضي الله عنه وأرضاه - يمر علىٰ رجل يبكي من خشية الله فيقول : هكذا كنا نحن حتىٰ قست قلوبنا .

قد يقبل الأخ المسلم علىٰ العمل لدينه ويكون السبب الرئيسي في هذا العواطف والعلاقات الشخصية ، قد يلتزم ؛ لأنه صار صديقًا لأحد الملتزمين ، فإذا غَضِب عليه يترك الالتزام ، إذا رأىٰ فلانًا قد وقع في الخطأ يرجع علىٰ عقبيه ، وهناك آفة أخطر من ذلك ، وهي أن ترىٰ إنسانًا بدأ التزامه بأن رأىٰ شيخًا من الشيوخ أو عالمًا من العلماء ، عليه هالة من النور وجلالٌ من أثر العبادة ، محبوبًا ، معروفًا للناس ، يُجلّونَه ويُعَظّمونه ويأخذون برأيه في جميع أمورهم . فيلتزم ليكون مثل هذا

الشيخ ، يريد أن يكون خطيبًا ، كاتبًا ، مؤلفًا ، مصنفًا يُصَنِّف كتابًا من عشرين مجلدًا مكتوبًا عليها اسمه .

يدخل إلىٰ طريق الالتزام علىٰ هذه الآمال العريضة ، يرىٰ نفسه في أحلام اليقظة وقد ارتقىٰ المنابر ، أسد المنابر يرسل الصواعق أو أنه في وسط الإخوة يحملهم إلىٰ رياض الجنة ، وتمر الأيام والشهور والأعوام، فإذا به لا يدرك ولو جزءًا يسيرًا مما أمَّل ، ولا يبلغ بعض ما أراد ، لا يصل إلىٰ ما كان يطمع ، فيبدأ في إدراك بعض الحقائق المرة بالنسبة له ، وهي أنه لا يصلح وأنه لكي يصل إلىٰ ما يريد يشترط أولاً أن يحرر الإخلاص ، وهو فوق ما يطيق ، فماذا يصنع حينئذ . .؟ إنه يترك ، يفتر ؛ لأنه لا يجد ما يريد .

قد يكون هناك ما هو أخطر من ذلك ، وهو أن يرىٰ الأخ الحديث الالتزام بعض المثالب ، فيرىٰ من كان يثق بهم ويرىٰ فيهم قدوة أو أسوة علىٰ تقي، ودين ، وحسن خلق يفجؤه أن يرىٰ في نفوسهم نوازع الدنيا، أو يرىٰ فرقًا بين أقوالهم وأفعالهم، فيتفطر قلبه بالفجيعة، وتضيق نفسه، وتضيق ويُفَضِّل أن ينصرف بهدوء ونسي قول سلفنا الصالح : بأن كل الناس يؤخذ منهم ويرد إلا الصادق المعصوم ﷺ، وأن العصمة قد انتهت بموت النبي ﷺ، ويُنَصّب من نفسه حاكمًا يحاكم هؤلاء الشيوخ الوعاظ علىٰ تفريطهم ،وينسىٰ أنه يقع في مثل ما وقعوا فيه بل أضعافه . ينسىٰ أنه ليس أحدٌ حجةً علىٰ الشرع، بل الشرع حجة علىٰ الجميع ولكن التزامه أصلاً للأشخاص فيكون انهدامه وانهزامه بسبب الأشخاص فينكث وينتكس خصوصًا حين تغلبه نفسه ودنياه

وهواه ؛ لأن الدنيا والنفس والهوىٰ والشيطان يجاهدونه ويحاولون أزّه إلىٰ المعاصي ما أمكنهم ، وأنه إنْ لم يرحمه الله ـ تعالىٰ ـ فلا عاصم له ، حيث لا عاصم من أمر الله إلا من رحم .

والعلاج من كل هذا أو من بعضه يتمثل في :

أولاً ـ تحرير الإخلاص .

إنك تحتاج إلىٰ الإخلاص في بداية الطريق . . انظر إلىٰ الرجل الذي جاء إلىٰ النبي ﷺ وهو في غزوة من الغزوات ليقول له : أرأيت يا محمد إن اتبعتك وقاتلت معك فقتلت ، فأين أكون . . ؟ قال : في الجنة ، قال ابسط يدك أبايعك ، فبسط يده فبايعه ، فخرج معه ففي الغزوة غنم رسول الله غنائم وكان الرجل يرعىٰ ظهورهم ، فقسم له رسول لله ﷺ قسمًا وأرسله إليه مع بعض أصحابه ، فأتىٰ الرجلُ رسول الله ﷺ وهو يحمل قسمه في حجره ، حتىٰ وقف بين يدي رسول الله ﷺ ثم ألقاه ، وقال : ما هذا ؟ قال : قسم قسمته لك ، قال : ما علىٰ هذا تبعتك ، إنما تبعتك لأصاب بسهم هاهنا وأشار إلىٰ حلقه فأستشهد فأموت فأدخل الجنة ، قال له رسول الله ﷺ : « **إن تصدق الله يصدقك** » فدخل الرجل في المعركة فأصيب بسهم ما تجاوز الموضع الذي أشار عليه لرسول الله ﷺ[1] .

---

(١) أخرجه النسائي في سننه (١٩٥٣) كتاب الجنائز ، باب الصلاة على الشهداء ، وصححه الشيخ الألباني في صحيح النسائي .

انظر إليه ، عندما أخلص لله سبحانه وتعالىٰ أعطاه الله ما أراد ، فأخلِص تخلص ، قل لنفسك أخلصي تتخلصي .

فيا من هجرتنا علام تبعتنا ، ما الذي أتىٰ بك إلينا . . يا من عاديتنا علام تابعتنا . . ماذا كنت تطلب ؟!! ، أكنت طالب دنيا ، ها أنت قد عدت إليها ، وما خسرنا من بعدك من شيء وإنما أنت الخاسر .

أما إن كنت طالب آخرة فلما تأت الآخرة بعد ، لم نصل لتكتشف أنَّا قد خدعناك . . ما وعدناك شيئًا في هذه الدنيا .

عندما بايع الصحابةُ رسولَ الله ﷺ في بيعة العقبة الثانية[1] قالوا : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، قال : لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأولادكم ونساءكم ، ولربي : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا ، قالوا : ما لنا إن فعلنا ذلك؟ فماذا قال لهم : هل قال ملك الأرض؟ نُقود؟ إمارات ووزارات ؟ لا وإنما قال لهم : الجنة ، فقالوا : ربح البيع .

إنهم لم يوعدوا في هذه الدنيا بشيء، قال لهم : « سترون بعدي أثرة فاصبروا حتىٰ تلقوني »[2] .

ينادي ربك ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ [التوبة : ٣٨] .

---

(١) راجع زاد المعاد (٣/ ٤٥ - ٤٧) ط مؤسسة الرسالة .

(٢) متفق عليه. أخرجه البخاري (٢٣٧٧) كتاب المساقاة . باب القطائع - واللفظ له - ومسلم (١٠٥٩) كتاب الزكاة . باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام .

وعلىٰ ما سبق يكون تحرير الإخلاص ، أن تقف وتسأل نفسك علام عاهدت ؟ ولماذا التزمت ؟ .

ثانيًا ـ تقرير أنه ما من معصوم بعد النبي ﷺ :

أن تعلم أن العصمة قد انتهت من الأرض بوفاة النبي ﷺ أن كل من علىٰ الأرض من بعده ، يجاهدون أهواءهم ، ونزواتهم ، والشرور التي قد تكون في داخل أنفسهم ولا يقدح هذا في كونهم صالحين مخبتين ، منيبين ، أوابين إلىٰ الله فكما قال رسول الله ﷺ : « **ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة أو ذنب هو مقيم عليه لا يفارقه حتى يفارق الدنيا ، إن المؤمن خلق مفتنًا توابًا نسيًا إذا ذُكِّر ذَكَر** »[١] وقوله ﷺ : « **والله لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وأتى بقوم آخرين يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم** »[٢] فليس من شرط عباد الله المتقين أن يكونوا معصومين ، قال الله تعالىٰ في وصف المتقين : ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾** ﴾ [آل عمران: ١٣٥] فكونه قد أذنب لا يقدح ذلك في إيمانه ، فإذا زل شيخك أو مثلُك الأعلىٰ فلا يحل لك أن تقتدي به في زلته ، ولكن يجب عليك أن تأخذ خير ما عنده ، وتكافئه بخير ما عندك من الدعاء له بالخير والعصمة كما كان بعض السلف إذا ذهب إلىٰ مجلسُ العلم يتصدق بصدقة ويقول : « اللهم استر عيب معلمي عنىٰ ، ولا تذهب بركة علمه مني » .

---

(١) صحيح : تقدم تخريجه . .

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٤٨) كتاب التوبة ، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة .

ثالثًا ـ أن تكون البداية منهجية ومؤصلة :

كما أسلفنا أن البداية المنهجية تتدرج بك من البداية المشتعلة إلىٰ الطريق المستقيم ، فإن بدايتك تكون في بدايتها كمنبع النهر عبارة عن شلال هادر يشق الصخر بسرعة حتىٰ يسير في مجراه ، ثم بعد الاستقرار في المجرىٰ يكون أقل سرعة ، ولكنه أكثر ثباتًا واستقرارًا فبعد قوة البداية يسير بك المنهج العلمي التربوي الذي تتبعه إلىٰ أن يضعك علىٰ الجادة التي يصل من سلكها كما قال النبي ﷺ بعد أن رَبيَّ أصحابه وعلمهم وقبل أن يتركهم « **قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**»[١] .

وكما قيل : « **الانسياب الموزون وليد المركز الثابت** » .

رابعًا ـ أخذ النفس بالعزائم وعدم التفريط في أيٍّ من فروع المنهج:

أنت كمسلم لك منهجان ينبعان من نفس المنبع ويصبان في ذات المصب ، يأخذان بيدك من الضياع حتىٰ يوصلاك إلىٰ الجنة وهما :

أ ـ المنهج العلمي .

وهو الذي يقوم علىٰ الدراسة المنتظمة لأصول العلم : العقيدة ، الفقة ، التفسير ، التربية فإياك والتفريط في أي منها علىٰ حساب الآخر ، وذلك حتىٰ تتعلم فرض العين من العلم الشرعي الذي يجب عليك تعلمه ، ثم بعد أن تعرف أمور دينك كما ينبغي فهنا إذا أحببت أن تتخصص في علم منها فلا بأس فتكون سلكت طريق تحقيق فرض الكفاية .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٦٦٩٢) ، وابن ماجه (٤٤) كتاب المقدمة ، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين – واللفظ له – وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٩٣٧) .

ب ـ المنهج التربوي .

من العبادات التي تتقرب بها إلىٰ ربك ـ سبحانه وتعالىٰ ـ من صيام، وقيام ، وذكر ، وتلاوة قرآن ، زيارات ، صدقات ، دعوات . . . الخ .

ويجب أن تعلم أنك إن فرطت في أحد المنهجين علىٰ حساب الآخر ضللت ، فإذا كنت قد فرطت فعليك أن تستدرك بأسرع ما يمكنك، ولك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة فقد كان إذا فاته ورده في الليل صَلاَّه في النهار .

وتذكر أيام كنت تدرس العلم الدنيوي فإنك كنت تصل الليل بالنهار للحصول علىٰ أعلىٰ الدرجات ، وأنت في هذا تعلم أنك إن رسبت في أحد الأعوام ، فإنك تستطيع إعادة السنة في العام التالي ، أما في تعاملك مع الله سبحانه وتعالىٰ فأنت تعلم أنه قد لا تكون هناك فرصة للإعادة وقد تموت علىٰ الذنب فما يفيدك كل ما فعلته أو استمتعت به من تفريط وراحة، وعندها تنادي ﴿ **رب ارجعون** ﴾ فيقال لك ﴿ **كلا** ﴾ لا عودة لا رجعة فقد انتهىٰ أجلك وأغلق كتاب أعمالك .

خامسًا ـ استشعار نفسية المعركة :

أن تعرف أنك بالتزامك لست تلعب ولا تلهو ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾** ﴾ [الطارق: ١٣، ١٤] . . إن الإيمان ليس لعبة يتلهىٰ بها الإنسان متىٰ شاء ويتركها وقتما شاء ، فأنت قد تجد بعض الناس يلعب ، يلتزم فترة ثم ينكص علىٰ عقبيه ، ثم يعود للالتزام ثم يعود للتفريط ، إنها ليست لعبة ، فعليك أن تخشىٰ من خسف القلب ، خف أن يطبع علىٰ قلبك في مرة من المرات فلا تستطيع أن تعود .

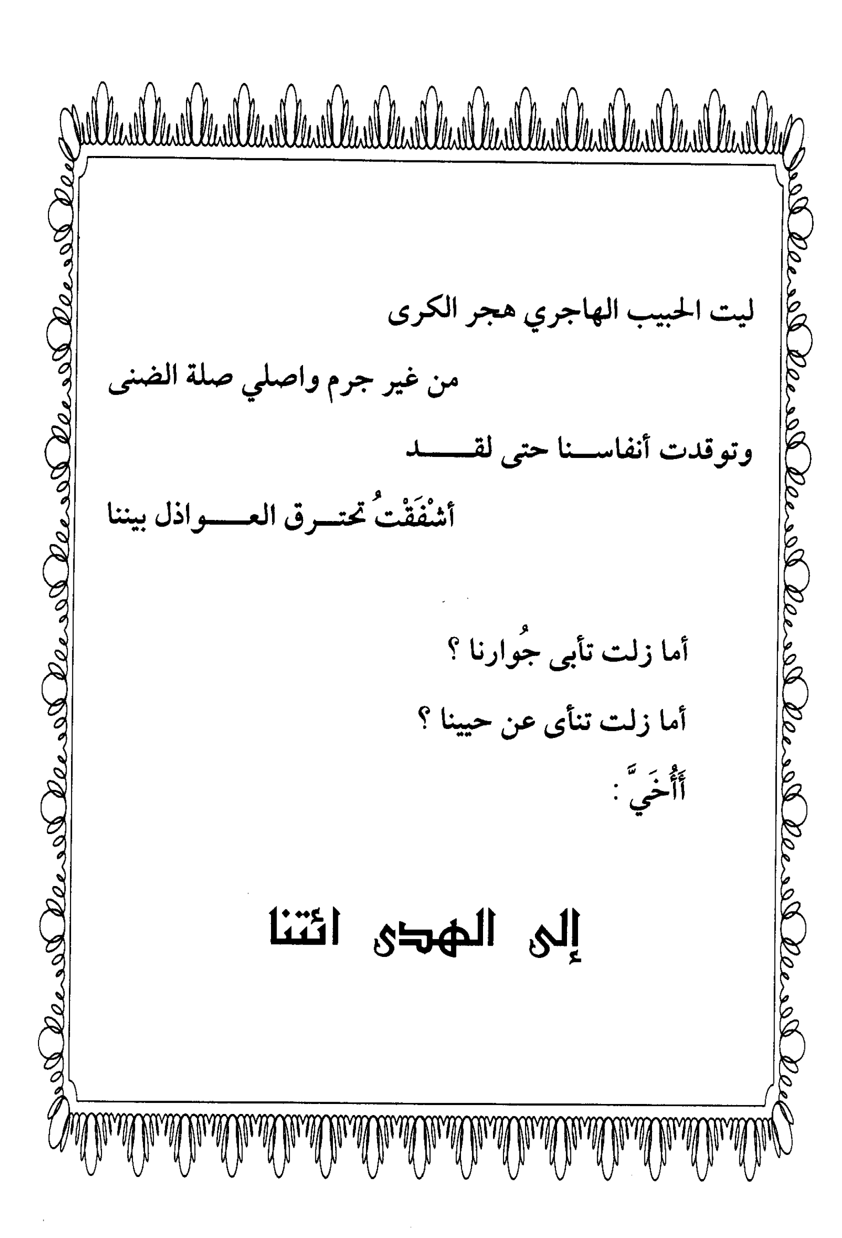
نعم ينبغي أن تدخل إلى حقل الالتزام بمعرفة حقيقة الالتزام ، بنفسية المعركة التي تخوضها وتقودها ضد الشيطان والهوي ، ضد الدنيا والنفس الأمارة بالسوء ، وإذا كان عدوك (نملة) فلا تَنَمْ لَه ، فما بالك إذا كان عدوك كل أولئك .

إذا كان عدوك عادات في النفس مألوفة كأنها معبودات ، هنا لا بد لك من مواجهتها بنفسية المعركة ، وأن تسير هكذا جنديًا مجاهدًا تحمل هم دعوة تريد أن تصل بها إلى الجنة . . نسأل الله تعالى ألا يحرمنا من الجنة . اللهم آمين .

وما زلنا ننادي :

إلى الهدى ائتنا

* * *



ليت الحبيب الهاجري هجر الكرى

من غير جرم واصلي صلة الضنى

وتوقدت أنفاسنا حتى لقد

أشْفَقْتُ تحترق العواذل بيننا

أما زلت تأبى جُوارنا ؟

أما زلت تنأى عن حيينا ؟

أأُخَيَّ :

إلى الهدى ائتنا

فصل

إننا ما زلنا نطلب إخواننا الغائبين ، ننادي عليهم . . نلتمس لهم الأعذار . . نذكر لهم العلاج . . نلتمس الأسباب التي أبعدتهم . . نلتمس الأسباب التي أقصتهم . . نلتمس الأسباب التي عطلتهم وأخرتهم ، ونصف لهم دواء لعلهم به يعودون . وشرط حصول النفع بالدواء قبول المداوىٰ ، نسأل الله أن يشفي مرضانا ومرضىٰ المسلمين ، وأن يشفي قلوبنا وقلوب المسلمين .

إن الفترة التي تعرض للقلب بين الحين والحين تعرض للسالك، ينفعه فيها ذكر البداية المحرقة ـ كما قدمنا ـ ولكي تعلم قيمة البداية الراسخة من كلام النبي ﷺ فاقرأ قوله : «**نَزَلَتِ الأمانةُ في جَذْرِ قُلوبِ الرِّجالِ**»[1] .فمن لم تكن له بداية مؤصلة تأصيلاً علميًا ولم تكن له بداية مبنية بناء منهجيًا ،ماذا يصنع الآن ؟ إنه يجب أن يبدأ من جديد . نعم ، لا تستبعد ذلك فقد نقل ابن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية أنه قال : [**سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية في آخر حياته المباركة ، يقول : أنا منذ أربعين سنة أصحح إيماني ولا أظن أني آمنت إيمانًا جيدًا إلى الآن**] هذا شيخ الإسلام، فأنت تحتاج أن تصحح إيمانك أن تجدد إيمانك . ذكرت لك كلام النبي ﷺ وهو يخاطب أمثال هؤلاء : «**نزلت الأمانةُ في جذرِ قلوبِ**

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٤٩٧) كتاب الرقاق ، باب رفع الأمانة ، ومسلم (١٤٣) كتاب الإيمان ، باب رفع الأمانة والإيمان من القلوب وعرض الفتن .

الرجال » فلابد أن تبدأ بنزول الأمانة في جذر قلبك ، تصحح إيمانك «فاسْأَلُوا الله أنْ يُجَدِّدَ الإيمانَ في قُلوبِكُم» اللهم جدد الإيمان في قلوبنا .

وقال الله عز وجل : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ الآية ثم قال بعدها : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الحديد : ١٦ ـ ١٧] .

يقول أهل التفسير : إن هذه إشارة إلىٰ أنه سبحانه . يحيي القلوب بعد موتها ، فالذي يحييٰ الأرض يحييٰ القلوب .

فأنت تحتاج إلىٰ تجديد إيمانك ، أن تصححه ، أن تبني عقيدتك ، أن تؤسس منهجك مرة أخرىٰ ، وثالثة ، وعاشرة ، ومائة ، وألف ، إلىٰ أن تموت .

قال ربك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾ [آل عمران: ١٠٢] .

قف واسأل نفسك . . لماذا التزمت ؟

علام اتبعت النبي ﷺ؟

علام أحببت الله ؟ وصحح .

لا نقول إن كانت قد فسدت بدايتك فقد انتهت القضية ، لا ، طالما فيك عين تطرف ، قلب ينبض ، وعضو من أعضاء جسمك يتحرك ، فمازال أمامك فرصة ، ما لم تطلع الشمس من مغربها ، وما لم تغرغر ، مازالت أمامك فرصة لكي تصحح إيمانك، أن تصحح عقيدتك ، وليس

عيبًا أن يرجع الإنسان عن خطئه ، إنما العيب أن يعرف الخطأ ويصر عليه . . . اللهم بصرنا بعيوبنا .

قال ابن القيم في ـ مدارجْ السالكين ـ : (**وفي هذه الفترات والغيوم والحجب التي تعرض للسالكين من الحِكَم ، ما لا يعلم تفصيله إلا الله**) لا بد من عرض الفترات [**فترة يعني : الكسل أو الفتور**] لا بد أن تعرض للسالك وفيها من حكمة الله في ورودها ما لا يعلمه إلا الله ، وبها يتبين الصادق من الكاذب ، فالكاذب ينقلب علىٰ عقبيه ، ويعود إلىٰ طبيعته وهواه وحب النفس .

أما الصادق فيعالج ، يجاهد . . يصابر . . يرابط . . وينتظر الفرج ، ولا ييأس من روح الله .

إن السالك علىٰ الطريق ويصيبه الفتور فهو أحد رجلين .

أحدهما : إذا هوىٰ في ذنب صغير ، يتردىٰ من نظرة إلىٰ كلمة حرام ، إلىٰ سرقة ، فكسل عن الصلاة وضياع الفريضة ، يتبعها وقوع في معصية . . . الخ فهو دائمًا في تردٍّ وتدهور .

أما الآخر صاحب البداية الطيبة المؤصلة المنهجية فإنه حين يفتر ، يصبر . . يعالج . . يجاهد . . يصابر . . يرابط ويدعو ربه ، ويذل له ، ويطلب منه أن يرد عليه قلبه . يلقي بنفسه علىٰ باب ربه طريحًا ذليلاً ، مسكينًا ، مستكينًا ، ينتظر أن يرحمه مالكه وإلهه ومحبوبه ويمن عليه بما يصلحه ، وهذا الافتقار من أعظم الأسباب التي يرحمك الله بها ويعيدك علىٰ الجادة التي ضيعتها بتفريطك .

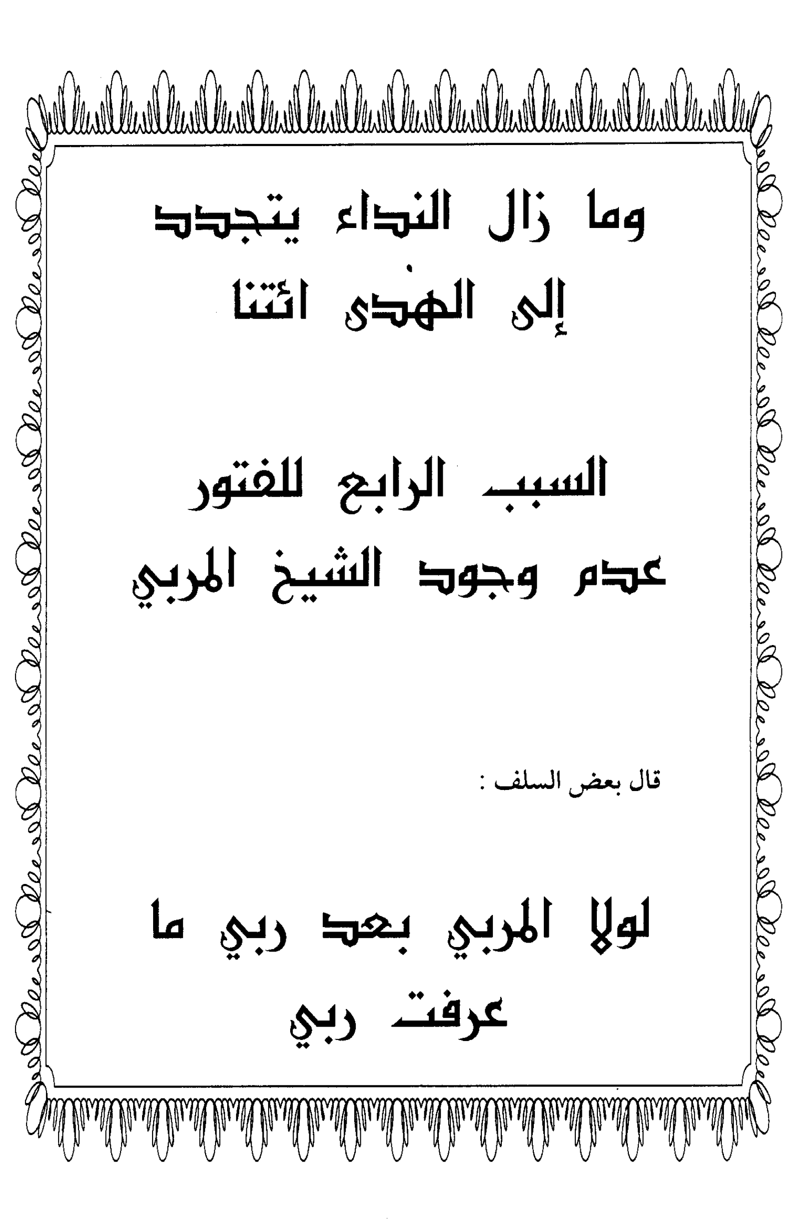
فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ [الطور : ٢٨]
إنه هو ـ سبحانه ـ الذي سبب لك هذا السبب ، فالسبب ليس منك بل السبب من الله ، الذي مَنَّ به عليك ، هو الذي جردك وأخلاك عما يؤذيك ويطردك عن بابه .

وهو أيضًا الذي يحول بين المرء وقلبه ، فلما ألقيت نفسك بين يديه جمع عليك قلبك ، فإذا رأيته قد أقامك في هذا المقام ، مقام الذل والانكسار ، مقام الافتقار والرجوع ، مقام الانطراح والصبر والاصطبار والمرابطة ، إذا رأيته أقامك هذا المقام فاعلم أنه يريد أن يرحمك ، أما إذا وضعت القلب في غير هذا الموضع فاعلم أنه قلب مضيع إذا لم تجد قلبك على باب الله فقد ضاع .

إذا رأيت نفسك تأنس بالأغيار ، وتستوحش من الواحد القهار ، فاعلم أنك لا تصلح له ، إذا لم تجد قلبك هناك على باب ربه طريحًا ، ذليلاً ، فاعلم أنه قلب مضيع ، فسل ربك الذي قلبك بين أصابعه يقلبه كيف يشاء أن يرده عليك ويجمع شملك به . هذه فائدة البداية المنهجية .

وهذا علاج من لم يبدأ هذه البداية .

* * *



وما زال النداء يتجدد
إلى الهدى ائتنا

السبب الرابع للفتور
عدم وجود الشيخ المربي

قال بعض السلف :

لولا المربي بعد ربي ما عرفت ربي

السبب الرابع

عدم وجود الشيخ المربي المتابع

قد يلتزم الفتى بعد سماع كلام شيخ من المشايخ ، ثم بعد ذلك تنهدم صورة الشيخ في قلبه بناء على تضليل مضلل ، أو كذب كاذب [(١)] أو حتى لمجرد الظن فماذا يحدث له . . ؟ ينهدم إيمانه كما ذكرنا آنفا ، وليس معنى ذلك ألا يتخذ الإنسان شيخًا لنفسه ، ليس معناها ألا يقترب من الشيخ ، ولكن تذكر ما قلناه آنفًا في مسألة المؤانسة واجتماع الإخوان .

---

(١) قال تعالى عن المنافقين : ﴿ **يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ، لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور** ﴾ [التوبة :٤٧] فهناك من يقلب الأمور يبتغي فتنة الناس ، وفي المؤمنين سمّاعون يصدقون وَشْي الواشين وكلام المغرضين من الحاقدين والظالمين .

ينبغي على المسلم وخصوصًا الملتزم أن يعلم أن الدعاة رموز الدين ، وقد قال بعض السلف: «لحوم العلماء مسمومة ، وعادة الله في هتك أعراض منتقصيهم معلومة ، وما وقع فيهم أحد بالثلب إلا ابتلاه الله قبل موته بموت القلب » .

فانتبه فإن السامع شريك القائل ، وذُد عن عرض أخيك وشيخك ، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانًا ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره . التقوى هاهنا وأشار إلى صدره - ﷺ - ثلاث مرات . بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسْلم حرام دمه وماله وعرضه» [متفق عليه واللفظ لمسلم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة] وفي الحديث إشارة إلى أنَّ هذه الأمور مسببات لدخن القلب مانعات من الحصول على التقوى . . . .

وعلى هذا فإذا أخطأ داعية ولو في حقك شخصيًا فإنه يغتفر له ما لا يغتفر لغيره ، فهو وإن أساء إليك مرة فإحسانه إليك أكثر ، فتأمل. إن إساءته لك في دنياك ولكن نفعه لك في آخرتك ﴿ وللآخرةُ خيرٌ لك من الأولى ﴾ [الضحى : ٤]والدعاة كونهم رموز الدين فتشويه صورتهم أو محاولة إيذائهم أو إسقاطهم من أعين الناس كبيرة عند الله، وقد قال بعض السلف : «من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه » وقد قال رسول الله ﷺ : «إذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبيث» [أخرجه أصحاب السنن الأربعة . وصححه الشيخ الألباني وانظر تخريجه موسعًا في بذل الإحسان (٢/١٣ - ٤٥) لأخينا وشيخنا وحبيبنا الشيخ أبي إسحق الحويني] .

إن الإنسان يلتقي بإخوانه ، فكيف يكون اللقاء منضبطًا ؟! ذكرنا أن اللقاءات أنواع من الاختلاط والمخالطة ، ومن المخالطة ما هو كالدواء لا يؤخذ إلا لضرورة ، ومنه كالخلاء لا يؤتى إلا لحاجة، ومنه كالطعام والشراب يؤتى بقدر محدود فإن زاد ضر .

هناك من لا يختلط به إلا كهيئة الدواء لا يؤخذ إلا لضرورة ، وهذه مخالطة الفسقة والغافلين عن ذكر الله ، فأنت مضطر لمخالطة مثل هؤلاء الذين قد تلقاهم في الشارع . . في الأماكن العامة ، ويكون الإنسان مضطرًا لمعاملتهم . وهناك ما يؤتى ولا يعاشر إلا لحاجة ، مثل « دورة مياه»، هذا التعامل مع بعض الباعة والتجار الذين لا يُحكمون الله في معاملتهم لا بيعًا ولا شراءً.

ومنه من مخالطته كالغذاء ، وهؤلاء هم الدعاة والمشايخ المربون مثل الأكل تأكل منه بقدر ثم إذا أخذت حاجتك تترك الطعام، قد تترك الطعام وأنت تشتهيه ، وقد يكون اجتماعك مع الشيخ ممتعًا وتريد أن تظل معه عشر ساعات لا تمل ، ولكن هذا مع إمكانه قد يسبب لك تخمة ، وعليه فيجب عليك أو على شيخك على ضوء ما يعرفه منك أن يقطع الجلسة في أي وقت حتى لا تصاب بتلك التخمة العلمية .

فتكون أنت قد حصلت على حاجتك ثم تبتعد لكي تعود مرة أخرى عندما تحتاج إلى ذلك ، وهنا تحضرني ملحة طريفة أحب أن أسوقها ، فقد سئل بعض السلف عمن يأكل أكلة في اليوم ، فقال : هذا أكل الصديقين **[وقد ذكر عن عشرات من السلف أنهم كانوا يأكلون مرة واحدة في اليوم**

ويشربون مرتين ، منهم الإمام أحمد ، والإمام الشافعي ، والإمام أبو حنيفة] ثم سئل عمن يأكل أكلتين ، قال : طعام المؤمنين ، ثم سئل عمن يأكل ثلاثة مرات فقال : قل لأهله يبنوا له معلفًا .

الشاهد أنك حين تتعامل مع شيخك ، ليس لك أن تفرض نفسك عليه ليل نهار ، وإنما لحاجة كحاجتك لطعامك ، ثم اجعل حاجتك معه ، ثلثا لطعامك ، وثلثا لشرابك ، وثلثا لنَفَسِك ، ولا تزد فتهلك ، لأنه ساعتها هو بشر وأنت بشر ، ستبدو العيوب والذنوب ، ويكون الفتور وتبتعد .

فعدم وجود الشيخ المربي المتابع سبب من أسباب الفتور ، كما أن كثرة القرب منه يثير الملل فتظهر العيوب .

فالشاهد أن يكون ذلك بقدر ، إن الأخ الذي يرتبط بشيخ صالح مربٍّ ذي بصيرة فهذا الشيخ المربي الذي يجمع بين العلم النافع ، والعمل الصالح ، قدوة في الإيمان ، والبصيرة النافذة ، وخبرة التربية الطويلة ، يكون من أهم العوامل التي تقود العبد إلى الله .

ولهذا يقول بعض السلف : إن من فضل الله على الشاب إذا نسك أن يوفقه لشيخ من أهل السنة يأخذ بيده .

نقول : إن في الساحة علماء ، ودعاة كثيرين بل وطلبة علم أكثر ، ولكن المربين قليل ، المربي ذو العلم والبصيرة ، الذي ينظر إليك فيقول : فيك عيوب كذا وكذا ، من كذا وكذا ، زد في كذا وكذا ، لا تصنع كذا وكذا ، إنه حين يراك يُهديك في كل مرة عشرات من عيوبك التي يطلع عليها من معاملتك معه ويعرفها بخبرته من تصرفاتك ، ويهديك دلالة على علاج تلك العيوب ، والذنوب ويهديك دعوة لعمل خير أنت تحتاجه لزيادة الإيمان

والثبات ، ويأخذ بيدك في كل لقاء ، هذا لقاء يزيد الإيمان وغيبته عن حياتك يسبب خيبتك في حياتك ، إن هذا الشيخ المربي الذي يتعهد الإنسان ويغذيه مما عنده من الأخلاق والفضائل لو ابتعد الملتزم عنه فترة من الزمن ، فإنه يحس قسوةً في قلبه .

انظر لما توفي رسول الله ﷺ وواراه أصحابه التراب قال أنس : ولما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي ـ وإنَّا لفي دفنه ـ حتى أنكرنا قلوبنا[١] .

يعني أصابتهم وحشة ؛ لأن المربي والمعلم القدوة ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد مات .

وقد ذكر سيف بن عُمر أنَّ أم المؤمنين عائشة قالت : تصف الحالة بعد وفاته ﷺ « **عمَّ النفاق في المدينة وما حولها ، وكادوا الدين ، وبقي المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة المظلمة الشتائية بالأرض المسبعة ...** »[٢] .

هكذا عند فقدان الشيخ المربي يكون الأمر ، تحتاج إلى وجود الشيخ فإن الذي يسير مع نفسه ، فالنفس تميل إلى البطالة، تميل إلى الكسل إلى الخمول تجده يقصر ثم يقصر ، ثم ينكص ، أما إذا لقي شيخه فإنك تجده يلقاك ، فيسألك ما هي أخبار القرآن . . . أخبار الذكر ، قد تستعد مرات وساعات قبل أن تلقاه ، قبل ما تراه ، تقول حتى لا يفتضح أمري معه ، فإنه ينظر في وجهك فيرى، هذا المربي يعلم حالك بخبرته الطويلة ومعاشرته لك ، فإن تربيته لك بالمعاشرة وطول الصحبة .

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦١٨) في المناقب . باب في فضل النبي ﷺ . وقال : حديث غريب صحيح .

وابن ماجه (١٦٣١) في الجنائز . باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ .

(٢) انظر كنز العمال (٣٨١٦٠) .

أحد أبنائنا كنت تراه إذا رؤي ذكر الله ، فعلاً طيلة فترة الصيف ، حين بدأت الدراسة ، وذهب إلى الجامعة ، ظهر الأسى على وجهه ، ظهر السواد تحت عينيه ، ظهرت قسوة القلب في تعامله ، هكذا يظهر الأمر حين يقع العبد في المعاصي ، تحتاج إلى الشيخ الذي يذكرك . . يأمرك . . ينهاك .

تحتاج مع الشيخ إلى الصبر عليه ، الصبر على جفوة الشيخ ، الصبر على قسوة الشيخ ، الصبر على زجر الشيخ ، وإلا ستفقده وإذا فقدته فقدت نفسك ، إنك تحتاج إلى الصبر .

(**تنبيه مهم**) فرق بين كلامنا هذا وما عند الصوفية[١] ، قال عمرو بن ميمون الأزدي : صحبت معاذًا في اليمن فما فارقته حتى واريته التراب ، ثم صحبت بعده أفقه الناس عبد الله بن مسعود فما فارقته حتى واريته التراب .

الصبر للمدد الطويلة هي التي تأتي بالأثر ، يقول أبو حنيفة رحمه الله : «**ثبتُّ عند حماد بن سليمان فَنَبَتُّ . اثْبُتْ لِتَنْبُتَ وتُنْبِتَ**» .

وإنما ملازمة الشيخ ومصاحبته المدد الطويلة ، ستجعله يعرف قضاياك ولهجات لسانك فيساعدك على التخلص من عيوبك وذنوبك .

قال الله لنبيه الكريم : ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ** ﴾ [محمد : ٣٠] .

---

(١) إنَّ الصوفية يعتبرونه شرطًا ولكننا لا نقول بذلك، بل نقول هو الأفضل .

فهم يشترطون الاستسلام التام في يد الشيخ ونحن نقول : إنما الطاعة في المعروف ، فأيما قول جاءك بلا دليل فاضرب به عرض الحائط ، لذلك نحن نقول بأهمية وجود المربي السلفي على نسق فعل وعلم وتربية السلف رضوان الله عليهم أجمعين ، ولذلك مزيد بسط في رسالة «أصول الفقه التربوي» يسر الله إخراجها .

هذه هي ، إنه من طول الممارسة والمتابعة والمداومة يعرفهم في لحن القول ، يعرفهم بسيماهم في سيما الوجوه .

الشاهد أن غياب الشيخ يكون أحد أسباب الفتور ، لأنك تسير مع نفسك ، هي التي تأمرك ، فتحضر مجلس العلم أو لا تحضر ، لا أحد يحاسبك ، فحينها تفتر ، تظل تفتر ، وتتدنىٰ حتىٰ تضيع .

المشكلة أننا اليوم لا نجد الشيخ المربي ، فماذا نفعل ؟ ونمو الدعاة ليس علىٰ قدر نمو الملتزمين ، يلتزم كل يوم أعداد كثيفة والدعاة أعداد محدودة ، كما أنك قد تكون سببًا في عدم وجود شيخ يسمعك ؛ لأنك تعلم يقينًا أن عدد الدعاة محدود للغاية بالنسبة لأعداد الشباب ، فإذا كانت لديك مشكلة فاستشرت فيها أحد الدعاة فأحالك إلىٰ من ينوب عنه فإنك ترفض ذلك وترفض أن تتوجه بمشكلتك لهذا الداعية الصغير ، وأنت لا تعلم أنك بهذا تدفن كل من رشحه شيخك ليكون داعية المستقبل ومربىٰ الأجيال القادمة ، فأنت بصدك عنه تحكم عليه بالفشل حتىٰ قبل أن يبدأ ، إنني أقول ، إنك تدفن هؤلاء الشباب ، إن الكثير منهم يصلح كمربٍ ولا يصلح لشيء غير ذلك ينبغي علينا أن نعده ، وأنا أقول : إن التربية وأساليبها يكون العامل الأساسي فيها هو الخبرة .

مثلاً هناك كتب تعالج قضية الفتور من أفضلها كتاب «**ظاهرة ضعف الإيمان**» للشيخ محمد المنجد . ونحن نقول : إن قراءة الكتاب مهمة وعلاج جيد ، ولكن بالإضافة إلىٰ قراءة الكتاب الذي يعتبر مربيًّا لك ولكنه لن يرد عليك ولن يتناقش معك في المشكلة .

إن الشيخ الذي يعيش وسط الشباب ، يسمع منهم ، يحل مشاكلهم ، يتجول بينهم ، يعيش حياتهم ألصق شيء بهم ، هذه الخبرة أكثر غزارة ومنفعة من المطالعة في الكتب ، لأن الواقع متجدد فلذلك أقول : إنه ينبغي أن ينبغ منكم هذه الفئة من المربين ، ولا مانع أن نقوم بعمل دورات مكثفة لبث الخبرة الموجودة حاليًا وليكتسبوا هم الخبرة الجديدة بأنفسهم بعد ذلك .

الشاهد : ينبغي أن يقوم لهذا الأمر أناس منكم ، لنحيل عليهم مشكلات الشباب .

ولكن المشكلة القائمة حاليًا هي عدم وجود الشيخ المربي، فماذا نفعل؟

الجواب ، ببساطة وأحاول أن أكون واقعيًا ولكنني أنصحك أيضًا أن تتقبله وتحاول إيجاده .

١ ـ استجادة شيخ يكون شيخك يتابعك ولو لنصف الوقت ، أو حتىٰ نسبة عشرة في المائة من الوقت ، أن تكون فردًا من مائة يتابعهم الشيخ وإلا فينبغي أن ترتضي إنسانًا سبقك في طريق الالتزام ، ترتضي دينه ، وسمعته وعلمه ، ومنهجه ، لتستشيره في أمورك وتلتزم نصحه .

٢ ـ حضور مجالس العلم وإلزام النفس بها ، وعدم التفريط في حضورها ، فإذا حدث لك ظرف يمنعك من الحضور فتغلّب عليه وداوم علىٰ الدرس ، لأن حضور المجالس الإيمانية يزيد الإيمان ، ففي مجلس العلم تحفك الملائكة ، تتنزل عليك السكينة ، تغشاك الرحمة ، يذكرك الله فيمن عنده، فإذا ذَكَرَك ذَكَّرك به فكفىٰ بها نعمة ، كذلك في مجالس العلم تلتقي بالإخوة ممن تعرف وممن لا تعرف ، ورؤيتهم تذكرك بالله .

٣ ـ التواجد مع صحبة صالحة ، ناصحة ، إنكم قد تكونون مجموعة من خمس أو ست أشخاص أو أكثر أو أقل ، وصديقك الذي تعرفت عليه وأحببته في الله يذكرك إذا نسيت ، ويأخذ بيدك إذا وقعت .

٤ ـ العمل في الدعوة فإنك تتربىٰ واقعيًا حال كونك تحاول تربية غيرك ، قال تعالىٰ في وصف الصحابة : ﴿ **وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ** ﴾ [الفتح : ٢٩] .

انظر وتأمل . . أخرج شطأه . . أي فراخه وأولاده ، فآزره أي قواه ، فاستغلظ أي ثخن فاستوىٰ علىٰ سوقه : أيْ ثبت علىٰ ساقه بعد أن قويت ساقه وغلظت فصعب اقتلاعه أو قطعه .

حاول أن تخرج فراخك وأولادك لتستغلظ بهم فتغيظ الكفار .

* * *

السبب الخامس

الظروف الخاصة وتعظيم الاهتمام بها

وهذه قد أصبحت اليوم مشكلة كبيرة ، فإنها مشاكل كثيرة أصبح أكثر الشباب يشكو ويشكو ، والدعاة يعانون من هذه المشاكل : الزواج والاستقرار بجميع صوره وأشكاله ، العمل ، البيت ، الأم ، الزوجة الأولاد، الجيران ، المدير في العمل ، الزملاء ، الدراسة ، الطلبة ، الأساتذة ، السفر . . . ، الإصرار على المعاصي ، قسوة القلب ، الكبت، القهر ، والأذى .

مشاكل مختلفة وخطيرة وكثيرة، هذه المشاكل الشخصية، يظل الأخ حبيسها تقلقه في حركته وسكونه، وتشرد فكره وتفتت عقله، مشاكل كثيرة جدًا .

وعلاج هذه المشاكل يتمثل في الأمور الآتية :

أولاً- عدم الاستهانة بالمشاكل أو المبالغة فيها :

فمثلاً إذا طلب منك والدك أن تحلق لحيتك ، فحاول جهدك أن تسترضيه في كل ما هو أمر دنيوي ، فتخدمه ، وتشتري له ما يريد ، وتوقره، وتحترمه ، وتجاهل موضوع اللحية فلعل الله يلين قلبه إذا رآك متفانيًا في خدمته وبره ، وينسى موضوع اللحية .

أما إذا اعتبرتها مشكلة المشاكل وسألت فيها كل من تعرف ومن لا تعرف من الدعاة فماذا تريد منهم أن يقولوا لك ، لقد أمر رسول الله ﷺ

بتوفير اللحىٰ ، فهل يستطيع الداعية أن يُصرِّح لك بحلقها ؛ لأن في حياتك أبًا لا يريد لك أن تعفيها . . . ؟

فإذا قلت إنها ضرورة ، فإن الضرورة تُقدر بقدرها ، وهذه ليست بضرورة ، ولا وجه فيها للضرورة مطلقًا .

إن سبب الغلو في المشاكل فراغ القلب ، وطالما وقعت هذه المشكلة في القلب فستقع فيما تهواه حتمًا .

انظر ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف : ١٣٨] .

وقع في قلوبهم يريدون صنمًا يعبدونه ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٣٨ ـ ١٤٠] وبعد كل هذا صنعوا عجلاً وعبدوه ، لماذا ؟ لأنها وقعت في قلوبهم منذ البداية ، فساعة أن تقع شهوة لأول مرة في قلبك بهوىٰ فستعود إليها .

قال تعالىٰ : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٠] .

الشاهد، ينبغي أن نتخلص من المشاكل الصغيرة ، ألا تكون كل همك، تَجَاوزها ، أُمرُّها . مثَلاً يقول الأخ للشيخ : إن قلبي قاسٍ . إلىٰ أن يقسو قلبه ، وإنما ينبغي أن تصف المشكلة ،ثم تأخذ الحل ،تنفذ . . . تتحرك ، يأتي النصر بإذن الله ، اللهم انصرنا علىٰ أنفسنا الأمارة بالسوء ، يا كريم .

اسمع لما قاله النبي قال : «إنَّ العبد إذا سبقت له من الله منزلة لم يبلغها بعمله . ابتلاه الله في جسده أو في ماله أو في ولده»[١] . وقال ﷺ : « ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها »[٢] .

إذا فقه الإنسان هذا الأمر يقول : الحمد لله ، ويشكر الله عندما يفهم ويقول : إلهي وسيدي ومحبوبي ، لو قطعتني إربًا ، إربًا ، فأنا لك محب .

نعم ، إذا كان فيها درجة عالية ، فنحن لا نريد غير ذلك ، وإن كان فيها مغفرة ذنوب فالحمد لله .

تأمل معي قول الله عز وجل : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة : ١٥٥] .

إن الله كريم رحيم ، لطيف ، ودود ، وهو يقول في كتابه العزيز : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ﴾ .

ويقول العلماء شيءٌ من الخوف . . لماذا ؟ قالوا : لو اجتمع خوف الدنيا كله من غير الله ، فإنه يهونه ويمحوه اليقين في الله ، شيء من الخوف يسير .

فكل البلاء الذي ينزل عليك في الدنيا يسير ، فكل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية .

لذا إذا اُبتليت ينبغي عليك أن تقف الموقف الشرعي الصحيح .

١ ـ أنه لا بد من الابتلاء .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢١٨٣٣) ، وأبو داود (٣٠٩٠) كتاب الجنائز ، باب الأمراض المكفرة للذنوب . وصححه الشيخ الألباني في صحيح أبي داود (٢٦٤٩) .وفي الصحيحة (٢٥٩٩) .

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري (٥٦٤٠) كتاب المرضى . باب ما جاء في كفارة المرض .ومسلم (٢٥٧٢) كتاب البر والصلة والآداب . باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض

٢ـ أنه يحمد الله على أنه ابتلاء أخف من سواه، وأنه لم يكن في دينه .

٣ـ أنه بسبب ذنوبه ومعاصيه .

٤ ـ أنه كان ملازمًا له قبل التزامه أو كان واردًا حصوله . فلا تكن ممن يعبد الله على حرف .

ومعنى مرضه بعد التزامه . لا يعني : أنه لم يكن ليمرض إلا إذا التزم، وما كان حذاؤه ليسرق إلا إذا التزم ، ولكن كان ذلك سيحدث ولو لم يذهب إلى المسجد .

العلاج الثاني لمسألة المصائب والمشاكل :

استخدام أمضى سلاح وهو الدعاء :

الدعاء : سلاح المؤمن ساعة أي بلاء ، أو أي كرب ،أنت إذا أصابك البلاء فماذا تفعل ، تدعو الله ، فيفرج كربك إن شاء سبحانه .

عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ: **« ما قال عَبْدٌ قط إذا أصابه همٌ وحَزَنٌ اللهم إنِّي عبدك وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ فيَّ حكمك ، عدل فيَّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك ، أَوْ أنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همِّي ، إلا أذهب الله عز وجلَّ همَّه وأبدله مكان حُزنه فرحًا . قالوا: يا رسول الله ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات . قال : أجل ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن »**[1].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٧٠٤) ، (٤٣٠٦) في مسنده المكثرين من الصحابة وقد صححه الشيخ الألباني في الصحيحة (١٩٨) .

قوله : « ناصيتي بيدك » الناصية : مقدم الرأس: وهنا كناية عن سلطانه جل وعلا على العبد ، وتصريفه وتدبيره لجميع أمر العباد .

قوله « ربيع قلبي » الربيع : الجدول من الماء والتعبير مفيد لمعنى المدد والارتواء من فيوضات القرآن، فإنها زاد القلب ، وريُّه .

السبب السادس
اختلاف الطباع والتوجهات
التي أفرزها تناقض التنشئة التربوية والبيئة

إن الاختلاف بين الناس بعضهم البعض والمتعلقة في كينونتهم ، أمر ملاحظ شرعًا وعقلاً ، وهذا بين في قول النبي : « **تَجِدُ النَّاسَ مَعَادِنَ ، خِيَارُهُمْ فِي الجاهِلِيَّةِ خِيارُهم في الإسلامِ إذا فَقِهُوا** »[١] .

انظر وتأمل ، تجد الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، تجد أحدهم أصله يبدو أنه ذهب وآخر أصله ماس ، وثالث فضة ، ورابع صفيح ، وخامس ، وسادس هكذا تجد الناس في أصول . ولهذه الأصول ، تأثير على الثبات ، تأثير على العبادة ، تأثير على العلاقة مع الله ، المعادن الأصيلة أصيلة في أصل الخلقة . ليس المقياس بالمال أو المظهر أو السكن ولا محل الولادة ، إنما نتكلم عن الأصل ، أصل الأب ، أصل الأم ، إذا كان كريم الأصل والعنصر يكون إنسانًا كبير القلب ، كبير الهمة ، عظيم الأخلاق ، ثابت العلاقة مع الله عز وجل ، كل هذا إذا فقه الإسلام .

انظر إلى كلام النبي ﷺ وهو يقول: « **الفَخرُ والخُيَلاءُ في الفدَّادِيْنَ أهلِ الوَبرَ والسكينة في أهل الغنم ، والإيمان يمان ، والحكمة يمانية**»[٢] .

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري (٣٤٩٤) كتاب المناقب ، باب قول الله تعالى: « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر » ، ومسلم (٢٥٢٦) كتاب فضائل الصحابة ، باب خيار الناس .

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري رقم (٣٤٩٩) كتاب المناقب ، باب قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر» ، ومسلم رقم (٥٢) كتاب الإيمان ، باب تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه .

إنك تجد إنسانًا يلتزم وهو أصلاً كان قبل الالتزام شيئًا آخر، صاحب أخلاق رديئة، فإنه بعد الالتزام يحاول أن يتغير، ولكن غالبًا تغلب طباعه القديمة، فإن أعانه الله علىٰ نفسه، تغير طبعه، وتخلص من نفسه القديمة، وولد قلبه ولادة جديدة صار إنسانًا جديدًا لا يمت للماضي بصلة، وإن ظل معه أصله القديم، فإن العرق دساس، والإنسان ينزع إلىٰ أصله ويعود إلىٰ فصله ومحتده، فإنه حينذاك يظل يتراجع، ويتراجع حتىٰ يعود من حيث بدأ.

انظر إلىٰ هذا الحديث، ورسول الله ﷺ يقول: «**والسكينة في أهل الغنم، والفخر والخيلاء في الفدادين أهل الخيل والوبر**»[1].

- الفدادين قال الإمام النووي: أن الفديد هو الصوت الشديد، فهم الذين تعلو أصواتهم في خيلهم وإبلهم وحرثهم.

- عندما يلتزم الأخ يحدث نفس الشيء، عندما يلمس أخ رجله برجله وقت الصلاة - لصق الكعب بالكعب سنة - قال لك: إني أتقزز من ذلك.

- التزام الخمس نجوم: -

قد يدعوك البعض إلىٰ مسجد فيقول لك: إن هذا المسجد سوف يعجبك، فهو مكيف الهواء، وفيه ثريات ملونة، وقد تستغرب مما يقول لك، ولكنه اعتاد حياة الخمس نجوم ويريد أن تكون المساجد كذلك.

الشاهد: هكذا يختلف الناس من حيث أصل المعدن، حيث البيئة، فلكل منهما تأثير ولكن لا شك أن تأثير الإيمان أقوىٰ، ولكن النزعات

---

(١) هذا لفظ مُسلم. والمتقدم هو لفظ البخاري في صحيحه، بهذا التقديم والتأخير.

تختلف ، فيتصارع الإيمان مع الأصل والمعدن فأيهما يغلب غلب ، تختلف النزعات فتعود وتلح ، تظهر كل مدة تجذب إلىٰ الخلف .

إنني أريد أن نكون صرحاء مع بعضنا البعض، إن المسلم ليس معزولاً عن أبناء مجتمعه، وموازين التقويم عندهم ، فهو واقع تحت أنظارهم ، دائر في محيط عباراتهم ، ومديحهم ، متأثر بكلمات الإطراء التي كان يسمعها من مجتمعه الجاهلي والآن لا يسمعها من الذين يحيطون به من إخوانه الملتزمين ، فتجد أحد الإخوة قد يكون مديراً عامًا في إحدىٰ الشركات، أو عمل من الأعمال ، يدخل المسجد فيفاجأ بأخ يقول له : جزاك الله خيرًا .

شرح الله صدرك، ويبارك فيك إذا قصرت هذه العباءة قليلاً، فيرد عليه قائلاً : أتعلم مع من تتحدث ؟ إنني أرأس فريقًا أقل من فيهم أفضل منك ، هذا لأنه إذا ذهب إلىٰ العمل بالعباءة يقولون له : ما هذا الذي ترتديه ، إنها عباءة جميلة، إنك تشبه الملاك وأنت ترتديها، ثم يسمع الأخ يقول له قصر العباءة.

فهكذا يظل الأمر ينزع إلىٰ كيف يتلقىٰ هنا ، وكيف يتلقىٰ هنا ، فتنفره من المسجد .

إن الأمر يحتاج إلىٰ شيء من اللطف والتلطف ، أولاً أن تقول له : إنني أصدقك القول إنك منذ حضرت إلىٰ المسجد استنار وجهك . ربنا يثبت قلوبنا علىٰ الإيمان يا رب . وبعد الصلاة قل له : ما شاء الله ، إن هذه العباءة غالية الثمن ، ربنا يبارك لك فيها ، إنني كنت أود أن أشتري لك واحدة ولكن كنت أنت السابق ، ولكنني كنت سأحضر لك عباءة قصيرة

من أجل قول الرسول ﷺ : « **ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار** »[1] .

لذا أود أن تحاذر من هذا الموضوع . . هكذا تكون دعوتك قائمة على الحكمة والموعظة الحسنة .

فالرسول ﷺ عندما استأذن عليه الرجل قال : « بئس أخو العشيرة وبئس ابنُ العشيرة »[2]، فلما دخل تلطف معه وأحسن إليه وأكرمه ، فعتبت عليه السيدة عائشة وكلكم يعرف القصة عندما رد عليها بأن شر الناس من يُتقى لفحشه .

فنحن نحتاج إلى المداراة، ليس طوال الوقت، ولكن في بعض الأحيان .

الشاهد أنك تجد الشخص متعودًا على الثناء العاطر والمجاملات ثم تفاجئه أنت بهذه المواجهات الساخنة ، وأضرب لك مثالاً من الواقع :

كان لأحد الإخوة أخ حليق ، كان يقول دائمًا : والله يا فلان إنك تذكرني بالفأر المسلوخ ، إنني أكره أن أراك ، حتى قدر الله وكان أحد الإخوة يزور هذا الأخ وسمع الأخ وهو ينهر أخاه فتأذى من قوله . تذكرني بالفأر ، وحدث أن خرج مع هذا الحليق ، ومشى معه يرطب قلبه ويكلمه كلامًا طيبًا ، فقال له : والله كلما هممت أن أعفي لحيتي تذكرت كلمته فامتنعت أن أفعل بسبب تنفيره لي وأذاه لي ، فأنا لا ألتزم لأجل خاطره .

فلذلك قال رسول الله ﷺ : «**يا أيها النَّاس إنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِيْنَ**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٧٨٧) كتاب اللباس ، باب ما أسفل من الكعبين فهو في النار .

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري (٦٠٣٢) كتاب الأدب . باب لم يكن النبي فاحشًا ولا متفحشًا ومسلم (٢٥٩١) كتاب البر والصلة والآداب . باب مداراة من يتقى لفحشه .

(٣) متفق عليه أخرجه البخاري (٧٠٤) كتاب الأذان . باب من شكا إمامه إذا طَوَّل . ومسلم (٤٦٦) كتاب الصلاة . باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام .

إنه قد يجلس في المسجد بين الإخوة أحد أصحاب الملايين فيمر الأخ فيطأ رقبته ولا يكلف الأخ نفسه أن يلتفت فيعتذر ، والرجل هو من هو ، فينبغي علينا أن نحتاط لهذه الأمور فلا ننفر أمثال هؤلاء من الإخوة .

تجد أن أختًا من الأخوات تدخل المسجد لأول مرة وهي ترتدي إيشاربًا ، فتفاجأ بالأخوات ينظرن إليها شذرًا ، فنقول للأخوات : إن من دخلت مسجدنا نكرمها وندعوها إلىٰ الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

ولنذكر قول رسولنا ﷺ : « **من غدا إلى المسجد أو راح ، أعَدَّ الله له في الجنة نزلاً كُلمًا غدا أو راح** »[1] . ونقول للأخوات : إنه حق علىٰ المزور أن يكرم زائره ، بالكلمة اللطيفة ، الابتسامة اللطيفة ، النظرة الحنون ، واللمسة المشفقة ، الدعوة الصادقة ، والدعاء الحار ، الهدية الصغيرة كل ذلك يؤلف القلوب .

تجد الأخ يأتي إلىٰ المسجد أول مرة ليحضر مجلس علم ، وبعد الدرس يقبل الإخوة بعضهم علىٰ بعض ، هذا يصافح هذا ، وهذا يحتضن هذا ، ويمازح الآخر ، وهذا الوافد قد ترك وحيدًا شريدًا منبوذًا لا أحد يصافحه ، فينكسر قلبه ، يستوحش ويحس بالغربة وسط الإخوة .

نقول : في أثناء الصلاة نضع القدم بجوار القدم ، فنرىٰ أحد الإخوة يطأ قدم هذا الوافد الجديد ، فإذا أبعد قدمه منه وطأ قدمه مرة أخرىٰ ، وهذا مما تنقبض له الصدور خاصة إذا كانت المرة الأولىٰ فقد يظن أن الأولىٰ والخير له أن يترك ، فيجب علينا مراعاة مثل تلك الأمور ووضعها في الاعتبار .

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري (٦٦٢) كتاب الأذان ، باب فضل من غدا إلى المسجد ومن راح ، ومسلم (٦٦٩) كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب المشي إلى الصلاة تمحي به الخطايا وترفع به الدرجات .

أو تلام الأخت الحديثة الالتزام على أنها ترتدي ملابس قصيرة أو ملونة تحت عباءتها ، وكل هذا ينفر الأخوات حديثات الالتزام من حضور مجالس العلم ، وهن أحوج ما يَكُنَّ إلى تلكم المجالس ، التي ترطب القلوب ، وتعرف بالله ، وبسنة رسوله عليه الصلاة والسلام .

إن هذه المقابلات التي تترك أسوأ الأثر في نفوس حديثي الالتزام قد تحدث شرخًا كبيرًا في حائط التزامهم ، وقد تمنعهم من الاستمرار ، وهذا الشرخ يعمل الزمن على توسعته ، ومع تكرار الهزات وعدم الصلابة في جدار الإيمان يحصل التصدع والانهيار .

ليس معنى ما سبق أننا نشجع التزام الخمس نجوم، أو أنَّنا نشجع الطبقية في الإسلام، فهذا النموذج مرفوض وخير الأمور الوسط فلا نتردى إلى مرتبة الهمجية، ولا نترفع على عباد الله المسلمين، وأسوتنا في ذلك رسول الله ﷺ حيث قال: «**ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله**»[1]. وقال مجاهد: في قوله تعالى: ﴿**سيماهم في وجوهم**﴾ قال: التواضع .

وعلاج هذه القضية يتمثل في الأمور التالية :

١ - التخلص من رواسب الجاهلية .

٢ - فهم ميزان الإسلام للأشخاص .

٣ - التواضع وذم النفس .

٤ - الالتزام مع مجموعة متناسبة والحب في الله لا للهوى .

أولاً : التخلص من رواسب الجاهلية

أيها الأخوة :

لا بد أن كُلاً منا مر في فترة الشباب بفترة جاهلية أي : جهل فيها

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) كتاب البر والصلة والآداب . باب استحباب العفو والتواضع .

وعصىٰ الله وابتعد ، وإن الإنسان مهما سار في طريق الالتزام فإنه وإن طال سيره فيه بقايا من رواسب الجاهلية في تصوراته، أو في آرائه ، أو في مفاهيمه ، أو في أخلاقه ، أو في تطلعاته وآماله .

ومن أخطر هذه الرواسب على الإطلاق :

*** تعلق القلب بالدنيا .**

إن الإنسان في بداية الالتزام مع فرحه وسعادته بالتزامه وانشغاله بهموم الآخرة ، وأيضًا مع حماس البداية وسخونة القرارات قد ينشغل بكل ذلك عن موضوع الدنيا والمال . فإذا فتر حماسه وهدأ حاله وتبين الوضع ودب إليه شيء من الفتور بدأ يتراجع وينظر مرة أخرىٰ إلىٰ الدنيا .

هنا يستيقظ ذئبان جائعان فيفسدان دينه أيما إفساد ، قال رسول الله ﷺ : **«ما ذئْبانِ جائِعَانِ أُرْسَلا في غَنَمٍ بأفْسَدَ لها مِنْ حِرْصِ المرء على المالِ، والشرفِ لدِيْنِه»**[1] .

وصدق رسول الله ﷺ - بأبي أنت وأمي ونفسي يا رسول الله صلىٰ الله عليك وسلم وجزاك عنا وعن الإسلام والمسلمين خير ما جازي نبيًا عن أُمته ورسولاً عن قومه لقد نصحت وبلغت وما كتمت ولا غششت - هذا وصف دقيق واضح وهو مشاهد واقعيًا يزيدنا إيمانًا ، أن الحرص علىٰ المال والجاه يفسد الدين أيما إفساد .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٦) كتاب الزهد عن رسول الله ، باب ما جاء في أخذ المال بحقه . وقال: حسن صحيح . والإمام أحمد في مسنده (١٥٣٥٧) .

والحديث بسط الكلام عليه العلامة ابن رجب الحنبلي في رسالته «ذم المال والجاه » وعلَّق عليها شيخنا المفضال د / أسامة محمد عبد العظيم فارجع إليها فإنَّها ثمينة .

أيها الإخوة :

إننا لسنا بمنأىٰ عن الواقع ولا بمعزل عن المجتمع ، إنني أقر أننا نعيش في عصر مادي بحت ، عم فيه الطمع ، والجشع ، والتنافس علىٰ الازدياد من حطامها وقد قال الله عز وجل : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ** ﴾ [هود: ١٥].

نعم جشع وأي جشع قال تعالىٰ : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا** ﴾ [الإسراء: ١٨] .

وقال رسول الله ﷺ : « **فوالله ما الفقرَ أخشَى عليكم ولكن أخْشَى أن تُبْسط عليكم الدنيا كما بُسطت على مَنْ كان قبْلَكم فتتنافسوها كما تَنَافَسُوها فتُهْلِكَكُمْ كما أَهْلَكَتْهُمْ** »[١] .

إن هذا السبب الخطير هو الذي يؤدي إلىٰ السقوط، والتردي، والتراجع والفتور، والحور بعد الكور . وقال ﷺ : « **إنَّ لِكُلِّ أُمَّة فتْنَةً ، وفتْنَةُ أُمَّتي المالُ** »[٢] .

إن الإنسان بعد فترة من الالتزام يجد نفسه قد تراجع دنيويًا خطوات ، قل ماله أو فسد جاهه أو . . أو . . إلخ .

فيسارع مرة أخرىٰ لإعادة ما ضاع واسترجاع ما فات فينغمس في الدنيا : والدنيا فخ ، والجاهل من أول نظرة يقع .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخاري (٤٠١٥) كتاب المغازي . باب شهود الملائكة بدرًا . ومسلم (٢٩٦١) كتاب الذهد والرقائق .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٣٦) كتاب الزهد عن رسول الله . باب ما جاء أنَّ فتنة هذه الأمة في المال. وقال : حسن صحيح غريب .

بداية الانزلاق في فتنة المال هو الشعور أن التزامه بالدين سيضيع عليه مستوىٰ أفضل من الحياة .

حينها يبدأ التحرك لجمع المال، وجمع المال يحتاج إلىٰ وقت - وكلما طال الوقت شغل القلب ، فإذا كان الإنسان يعمل من الثامنة صباحًا وحتىٰ الثامنة مساءً . . فأين قلبه حينئذ . . ؟ أين دينه يومئذ . . ؟ ماذا بقي منه . . ؟

إنه سيصبح كما وصف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه « **جيفة ليل ، قطرب نهار** » والمفتون بالمال لايشبع :

قال رسول الله ﷺ : « **لو كان لابْنِ آدَمَ واديَان منْ مال لابْتَغَى ثالثًا ، ولا يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إلا التراب ، ويتوبُ اللهُ على مَنْ تَابَ** »[١] .

❊ ❊ ❊

(١) متفق عليه أخرجه البخاري (٦٤٣٦) كتاب الرقاق . باب ما يتقي في فتنة المال . واللفظ له ، ومسلم (١٠٥٠) كتاب الزكاة . باب لو أنَّ لابن آدم واديين لابتغى ثالثًا .

العــلاج

علاج تعلق القلب بالدنيا أمور منها :

أولاً : أن يكون عند الإنسان استعداد تام للتضحية ولو بالدنيا وما فيها من أجل رضا الله عز وجل

كان لبشير الطبري أربعمائة جاموس في عبيد كثير يرعونها، فأغار الروم يومًا على مزرعته فأخذوا الجواميس كلها ، وفر عبيده وأرسلوا إليه فركب مع ابن له حتى دخل المزرعة فلقيه العبيد يبكون قائلين :

-يا سيدنا ، يا مولانا ، أخذت الجواميس .

قال :-وأنتم أيضًا اذهبوا ، فأنتم أحرار لوجه الله .

قال له ابنه :-يا أبت أفقرتنا .

فقال: اسكت يا بني، إن ربي أراد أن يختبر رضائي به فأحببت أن أزيده .

أظن أنه ينبغي ألا نعلق بعد هذا المثال ، ولكن لكل مقام مقال . . ما يضرك إن فقدت الدنيا وما فيها ووجدت الله . . ؟

ماذا فقدت حينئذ ؟؟!!

أخي : الجمع بين الأضداد غير ممكن ، فمن أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه .

إن الأخ حين يضطر إلى ترك بعض الكماليات والتخلي عن بعض الرفاهيات يَعُدُّ هذا ضراً ، وليس بضر ، إن تركت بعض الضروريات أيضًا

في سبيل الله وإن تخليت عن بعض الحاجيات ، لا بأس أيضًا لا بد أن يكون في بداية الطريق عندك الاستعداد لهذا :

أ ـ أن تلبس ملابسك القديمة سنين ، وأن تتنازل عن المنطقة الراقية التي تسكن فيها ، والشقة الواسعة ، والسيارة الفارهة ، وإلا ستتخلف عن ركب الإيمان ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ [الفتح: ١١] .

ب ـ أن يكون عندك الاستعداد لترك كل ما يخالف دينك أو يعطلك عن الجنة ولو لحظة .

انظر إلىٰ مصعب بن عمير وقد كان أشد الناس رفاهية في مكة يستورد له الطيب ، وله ملابس لا يلبسها غيره ، فجأة بعد إسلامه يضيع عليه هذا كله وتتنوع عليه الضغوط من أمه :

أولاً : تحرمه من الميراث بعد موتها . . فلا يتراجع .

ثانيًا : تمنعه المال في حياتها حتىٰ لا يجد طعامًا ولا ملبسًا . . فلا يتراجع .

ثالثًا : تمتنع عن الطعام لتموت فيعير بها . . فلا يتراجع .

بل ينطلق أول سفير في الإسلام داعية إلىٰ الله مهاجرًا إلىٰ يثرب ، ليفتحها بالدعوة ، والأعجب من كل هذا يستشهد في سبيل الله فلا يجدون له كفنًا إلا قميصه القصير إن غُطِّي رأسه بدت رجلاه وإن غُطِّي رجلاه بدت رأسه ، فيغطون رجليه بشي من نبات الإذخر .

والعجب العجاب أن يغبطه علىٰ هذه الحياة وعلىٰ تلك النهاية الأغنياء ، فهذا عبد الرحمن بن عوف أحد الأغنياء في الإسلام يغبطه علىٰ

هذا ويتمنى لو كان لنفسه .

فوا عجبًا مما تكابد ، يا من أشقاه حب المال وجمع المال .

قال علي بن أبي طالب :

« الدنيا مثل الحية : لين مسها ، قاتل سمها ، فأعرض عما أعجبك منها لقلة ما يصحبك منها ودع عنك همومها لما أيقنت من فواتها ، وكن أحذر ما تكون لها وأنت آنس ما تكون بها ، فإن صاحبها كلما طمأنه منها سرور أشخصه عنها مكروه ، وإن سكن منها إلى إيناس أزاله عنها إيحاش » .

وقال أبو العتاهية :

أرَي الدُّنيَا لمَنْ هي في يَدَيْه ... عذابًا كُلَّمَا كثُرَتْ لَدَيْه
تُهيْنُ المُكرَمِيَن لها بصَغَرَ ... وتُكْرِمُ كُلَّ مَنْ هانَت عَلَيْهَ
إذَا استَغْنَيْتَ عَنْ شَيء فَدَعْهُ ... وخُذْ ما أنْتَ مُحتَاجٌ إلَيْهَ

العلاج الثاني : فهم الدنيا :

قال تعالى : ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ [الكهف: ٧] وقال رسول الله ﷺ : « **قال الله عز وجل ﴿ إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾** »[١] إن فقدان الفهم الصحيح لزينة الحياة الدنيا من المال والبنين، المنصب والجاه مُؤْذِن بفقدان الالتزام .

وقد سبق معنا في علاج السبب الأول من أسباب الفتور ذكر نظرة الإسلام للحياة ، وهذه الآية اجعلها دومًا إشارة مضيئة مع هذا الحديث ابتلاء لحسن العمل .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢١٣٩٩). وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٧٨١).

تأمل معي هذا الحديث : إن سر إنزال المال لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ولكن لو كان ابن آدم لا يريد المال لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وإنما لينعم بالدنيا ويلتذ بالعيش وينافس في عز الدنيا فكيف يكون الحال . . ؟ يطلب الزيادة ليطغىٰ ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ** ﴾ [العلق: ٦، ٧] وإن من أسباب الفتنة بالدنيا النظر إلىٰ مال الأغنياء ، ولذا نهىٰ الله عنه فقال : ﴿ **وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ** ﴾ [طه: ١٣١] وقال رسول الله ﷺ : «**انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ فَهُوَ أَجْدَرُ أَلا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ الله**»[1] .

فالنظر إلىٰ متاع الدنيا والإعجاب به سبب للفتنة به، وقد ابتلي شباب اليوم بالتجول في الشوارع والتطلع إلىٰ معروضات الثياب والكماليات ومشاهدة السيارات في الشوارع وغيرها وتطلعه إلىٰ ذلك مفسد لقلبه ، مضيع لدينه .

إن غض البصر المأمور به ليس عن المتبرجات فحسب، ولكن عن زينة الدنيا كذلك كما هي أوامر الله في تلك الآية .

يقول ابن الجوزي : «**ثم إن صاحب المال خائف عليه محاسب لمعامليه ، مذموم إن أسرف ، مذموم إن قتر ، ولده يرصد موته ، وجاريته لا ترضى بشخصه، وهو مشغول بحفظ حواشيه ، وقد مضى زمانُه في محن ، واللذات فيها خُلَس معتادة ، لا لذة فيها ثم في القيامة يحشر الأمير والتاجر خزايا إلا من رحم الله، فإياك أن تنظر إلى صورة نعيمهم، فإنك تَسْتَطِيبُه لبعده عنك ولو قد بلغته كرهته**» .

صدق والله : « **إنك تستطيبه لبعده عنك ، ولو قد بلغته كرهته** » أنت

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٣) كتاب الزهد والرقائق .

تنظر إلىٰ راكب المرسيدس وساكن المناطق الراقية ، وصاحب الأموال أنهم سعداء ، ولو علمت الحقيقة لعلمت أنهم المعذبون في الأرض إن لم يكونوا ممن أسعد الله قلوبهم بمحبته وطاعته .

ومن فَهْمِ الدنيا أن تعرف قيمة الدنيا بالنسبة إلىٰ الآخرة .

قال تعالىٰ : ﴿**فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ**﴾ [التوبة: ٣٨] وقال تعالىٰ : ﴿**وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ**﴾ [الضحى: ٤] وقال تعالىٰ : ﴿**وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ**﴾ [الأعلى: ١٧].

وقال رسول الله ﷺ : « **ما الدنيا في الآخرةِ إلا مثل ما يجعل أحدُكُمْ أُصْبُعَهُ في اليَمْ فلينظر بماذا يَرْجِعُ** »(١) .

إن الذي يؤمل نعيم الآخرة لا يضره أن يعيش في الدنيا كيفما اتفق ، لما انقطع شسع نعل الإمام أحمد بن حنبل ـ رضي الله عنه ـ قيل له لو أتيناك بنعلين خيراً من هذين : «فقال الإمام : يا بني إنما هو طعام دون طعام ، ولباس دون لباس ، وإنما هي أيام قلائل» .

وقد سبق الكل سيد الكل محمد حين قال له عمر : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، كسري وقيصر يتقلبان في الحرير والديباج ، وأنت رسول الله تنام على حصير يؤثر في جنبك ، فقال رسول الله ﷺ : «**ألا تَرْضَى أنْ تكونَ لنا الآخرة ولهم الدنيا .** »(٢) .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٣) كتاب الزهد . وقال : حسن صحيح . وصححه الشيخ الألباني في صحيح الترمذي (١٨٩٢) . وأصله في صحيح مسلم (٢٨٥٨) كتاب الجنة وصفة نعميها بغير هذا اللفظ .

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم (١٤٧٩) كتاب الطلاق . باب في الإيلاء .

ففي الآخرة عزاء ، وفيها الغناء ، وفيها العوض ، وفيها النعيم المقيم .

* عزي فقير فقال : ما ضرهم ما أصابهم ، جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة .

العلاج الثالث : الزهد والرضا والقناعة :ـ

* قال رسول الله ﷺ : « **قد أفلح من أَسْلَمَ ورُزِقَ كَفَافًا ، وقَنَّعَهُ اللهُ بما آتاه**»[(١)] .

* دخل بعضُ الناس على زاهد وعنده خبز يابس ، فقيل له : كيف تشتهي هذا . . ؟ قال : أتركه حتى أشتهيه » .

* قال ابن الجوزي : « **ويحك إنما يكون الجهاد بين الأمثال ، فأي قدر للدنيا حتى يحتاج قلبك إلى محاربة لها ، أما علمت أن شهواتها جيف ملقاة** » .

* يا هذا ، الآخرة أمامك، والدنيا ورائك ،والطلب لما وراءك هزيمة .

* يا مهلكًا نفسه التي لا قيمة لها ؛ لأجل دنيا لا وقع لها .

* إلى كم هذا الحرص ، وما تنال غير المقدور ، قل للنفس الحريصة : «**لقد بِعْت الآخرة رخيصة** » قال رسول الله ﷺ : « **الدنيا ملعونةٌ ، ملعونٌ ما فيها إلا ذكرُ الله وما والاه ، وعالمٌ أو متعلمٌ** »[(٢)] .

إن القناعة بما أعطاك الله والرضا بالقليل سبيل لتقليل هَمِّ الدنيا ثم القضاء عليه ، إن المشغولين بالدنيا ليل نهار لا بد أن تخطفهم الدنيا من الآخرة فيعقب ذلك النفاق .

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٥٤) كتاب الزكاة . باب في الكفاف والقناعة .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢) كتاب الزهد عن رسول الله. وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٤١١٢). كتاب الزهد. باب مثل الدنيا، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الترمذي (١٨٩١).

قال المباركفوري : قوله : « وما والاه » أي أحبه الله من أعمال البر وأفعال القرب .

الواضح أن يصير ملتزمًا شكلاً لا موضوعًا ، وظاهرًا لا باطنًا ، وقولا لا عملاً ، وادعاءً لا حقيقة قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٧] وفي ختام هذا العلاج يتحتم سؤال : هل المطلوب من المسلم أن يكون غنيًا أو يكون فقيرًا . . ؟

والإجابة عنه بمنتهى الصراحة والوضوح والحسم :

إن المطلوب من المسلم أن يكون راضيًا عن الله ، دائم العمل في إرضاء الله، مشغولاً بالله غير مشغول عن الله ، ثم لا يضره بعد ذلك أن يكون غنيًا أو فقيراً .

المهم أن يكون الله راضيًا عنه ، وأن يكون هو راضيًا عن الله ، وليكن بعد ذلك ما يكون .

ثانيًا : فهم ميزان الإسلام للأشخاص :

ثم يأتي العلاج الثاني لمسألة اختلاف الطباع والتوجهات بسبب اختلاف التربية والبيئة « وهو أن ندرك المقياس الإسلامي الذي به نزن النَّاس» .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

إن القيم والأقدار وآثارها الحسان الممتدة على مسارب الزمن لا تقوم بالجاه والمنصب ولا بالألقاب والمدائح الممنوحة ، وإنما قوامها بالفضل والجهاد، وربط العلم بالعمل ، ونبل النفس ، وأدب جم ، وسمت حسن ،

فهذه وأمثالها ، هي التي يوزن بها الرجال وتوزن بها الأعمال إلىٰ هذا التراث المبارك تشخص أبصار العالم ، ولكل نبأ مستقر .

بعض الناس يجتذبه الشرف والرياسة ، فترضيه الكلمة ، وتغضبه الكلمة ، يستعبده من يثنىٰ عليه ولو بالباطل ، ويعادي من يلومه ولو بالحق ، فهذا سرعان ما يعود فنقول له : اتق الله ، إن أكرمكم عند الله اتقاكم . قال ربنا عز وجل ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف : ٤٦] .

قال بعض المفسرين : قال ربنا : زينة ، فهما زينة وليسا قيمة ، فلا يُقَوَّم بهما الناس ، بمعنىٰ أن قَدْرَك لا يقدر بالملابس التي ترتدىٰ ، ولا نوع السيارة التي تستقل ، ولا نوع المسكن الذي فيه تعيش ، إنما التقويم بالتقوىٰ ، والتقوىٰ في الصدر ، لا يعلمها إلا الله ، فلعل من تحتقر يكون أفضل منك عند الله ، فلذلك يكون العلاج بفهم ميزان الإسلام للأشخاص .

ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال : قيل : يا رسول الله من أكرم النَّاس ؟ قال : أتقاهم . . »[1] .

ـ وعن أبي سعيد الخدري قال : جاء أعرابي إلىٰ النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أي النَّاس خير ؟ قال : رجلٌ جاهد بنفسه وماله ورجلٌ في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع النَّاس من شرّه »[2] .

---

(١) متفق عليه .

أخرجه البخاري (٣٣٥٣) في أحاديث الأنبياء . باب قول الله تعالى : ﴿واتخذوا الله إبراهيم خليلا ﴾ .

ومسلم (٢٣٧٨) في الفضائل . باب من فضائل يوسف .

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٤) في الرقاق . باب العزلة راحة من خلاط السوء .

ومسلم (١٨٨٨) في الإمارة . باب فضل الجهاد والرباط .

وخيار النَّاس أحاسنهم أخلاقًا ، مُعَلِم النَّاس الخير ، متعلم القرآن ومعلمه ، المجاهد في سبيل الله . . إلخ .

هذه هي المقاييس الإسلامية التي يوزن النَّاس في ظلها ، فلا غني ولا جاه ولا صيت ولا المركز الاجتماعي ولا بمثل هذا يكرم المرء ، ليتنا نُقدر النَّاس بطاعتهم لله جل وعلا لا بمالهم من الدنيا ، ويترتب على هذا أصل عظيم من أصول هذا الدين القويم « الولاء والبراء » «الحب والبغض في الله» .

ثالثًا : التواضع وذم النَّفس ومجاهدتها على ذلك .

ـ قال ﷺ : « **إنَّ حقًا على الله أن لا يرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه** »(١) .

* قال الحافظ : فيه إشارة إلى الحث على عدم الترفع ، والحث على التواضع ، والإعلام بأنَّ أمور الدنيا ناقصة غير كاملة .

* قال ابن بطال : فيه هوان الدنيا على الله ، والتنبيه على ترك المباهاة والمفاخرة ، وأنَّ كل شيء هان على الله فهو في محل الضعة فحق على كل ذي عقل أن يزهد فيه ، ويقل منافسته في طلبه .

* قال الطبري : في التواضع مصلحة الدين والدنيا فإنَّ النَّاس لو استعملوه في الدنيا لزالت بينهم الشحناء ولاستراحوا من تعب المباهاة والمفاخرة » اهـ .

وقد قالوا : تاج المروءة التواضع .

حقيق بالتواضع من يموت ويكفي المرء من دنياه قوت
فيا هذا سترحل عن قريب إلى قوم كلامهم سكوت

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠١) كتاب الرقاق . باب التواضع .

يا أخي إنَّ من أعجبته نفسه وأحوالها لا يثبت له قدم العبودية ؛ لأنَّه مراءٍ في أفعاله وأحواله فهو واقف مع وجوده وإيجاده وعزة في نفسه ؛ لذلك لا ينتفع بعلم ولا ينفعه عمل .

أدريت من أين أُتيت ، لقد تغافلت عن شهود نعمة الله عليك واشتغلت بعيوب النَّاس ، ورأيت نفسك بعين المدح وحقها القدح فلا تأمن مكر الله ، وألن جانبك للنَّاس فإنَّ « الكبر بطر الحق وغمط النَّاس »[١] وراقب نفسك بعين الازدراء .

من أخمل النُّفس أحياها ورَوّحها ... ولم يبت طاويًا منها على ضجر
إنَّ الرياح إذا اشتدت عواصفها ... فليس ترمي سوى العالي من الشجر

رابعًا : الالتزام مع مجموعة متناسبة والحب في الله لا للهوى :

لاشكَّ أنَّ المرء بطبعه يميل لمن يشترك معه في صفة من الصفات ؛ ولذلك تنشأ الألفة بين تلك الأرواح المتعارفة .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف** »[٢] .

ولذلك قال أهل العلم : ما ترىٰ اثنين يتحابان إلا وبينهما اتفاق في الصفات الطبيعية ، وكلما كثرت الأشباه زادت المجانسة وتأكدت المودة .

ولذلك اغتمَّ بعضهم لما علم أنَّ رجلاً من أهل النقصان يحبه ، فسُئل عن ذلك فقال : لا يكون ذلك إلا وقد وافقته في بعض أخلاقه .

(١) أخرجه مسلم (٩١) كتاب الإيمان . باب تحريم الكبر وبيانه .
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٣٨) كتاب البر والصلة والآداب . باب وعلقه الإمام البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء . باب الأرواح جنود مجندة .

فالتجانس أمر فطري ، لكننا نقول هنا إنَّ ذلك لابدَّ له من ضابط وهو الاشتراك في طاعة الله ، فتحب المرء لا تحبه إلا لله ، إلا لاجتهاده في مرضاة الله ، فترتبط بمجموعة من الأخوة شأنهم التعاون على الطاعة ، تتذاكرون العلم ، تذهبون معًا إلى دروس العلم تواظبون على أداء الجماعة في المسجد ، كلٌ منكم يأخذ بيد أخيه إخوتاه ، لما فقدنا معاني الإخوة ، لمَّا افتقدنا أعوان الطاعة تسبب ذلك فيما نشعر به من الفتور ، فهلا عودة إلى سابق العهد قال ﷺ: « **لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم** »[1] .

* * *

(١) أخرجه مسلم (٥٤) كتاب الإيمان . باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون . وأنَّ محبة المؤمنين من الأيمان ، وأنَّ إفشاء السلام سببًا لحصولها .

السبب السابع

الخوف على النفس أو الرزق

الخوف من الأذى ، أو السجن ، أو الضرب ، أو الفقر ، إن أثر هذا السبب جَدٌّ بليغ ، وكبير في النفس البشرية ، حيث يؤدي إلى إحباطها وزرع الوهن فيها ، والشيطان يدخل على المؤمنين من هذا الباب .

قال الله عز وجل : ﴿ **إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ** ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي يخوفكم من أوليائه ، ﴿ **فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾

[آل عمران: ١٧٥] .

إن أول درس تلقاه موسى ـ عليه السلام ـ عندما فر هاربًا ، قال تعالى : ﴿ **يَا مُوسَى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ** ﴾ [النمل : ١٠ ـ ١١] .

إن الخوف طبيعة فطرية ، قد يخاف الإنسان على مركزه الاجتماعي ، يخاف أن يسجن ، يخاف أن يقتل ، أن يضرب ، أن يؤذى ، هذا طبع فطرى ، ولكن إذا خفنا فلنذكر قول ربنا عز وجل : ﴿ **إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٧٥] .

إنني أقول . . انتبه ، فإن الشيطان يدخل من هذا الباب ، يخوفك ، يعدك ويمنيك ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا ، إن الذين يرتدون وينكصون ويتباعدون ، إن الذين يحلقون لحاهم ، ومن يتركون الالتزام كثير ، وهم يتساقطون لهذا السبب ، ولكن القليل منهم هم الذين يعترفون بذلك ويقرون به .

والقرآن الكريم قد حفل بكثير من الآيات التي تشير تلميحًا وتصريحًا إلىٰ هذا الداء العضال الذي يمكن أن يجرد المؤمنين من إيمانهم، ويلقىٰ بهم في هاوية الضياع التي ليس لها قرار .

قال الله : ﴿ **سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** ﴾ [الفتح : ١١] .

هذا هو العلاج إن الضر والنفع بيد من ؟! بيد الله .

«واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك »[(١)] .

وقال الله : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ** ﴾ [العنكبوت : ١٠ ـ ١١] إننا يجب أن نلتزم بالحق ونثبت عليه ، يجب ألا تتطلع نفوسنا ولا تتشوق قلوبنا لغير رضا الله ، فتصبح لنا تهمة واحدة ، قال الله : ﴿ **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ** ﴾ [الحج : ٤٠] عندما نقتل أو نضرب، أو نؤذىٰ ،تكون تهمتنا أننا نقول ربنا الله : إننا مؤمنون بالله العزيز الحميد، فحين نؤذىٰ، يكون الأذىٰ في الله ، فنقول الحمد لله .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٣) كتاب الزهد . وقال : حسن صحيح . وصححه الشيخ الألباني في صحيح الترمذي (١٨٩٢) . وأصله في صحيح مسلم (٢٨٥٨) كتاب الجنة وصفة نعميها بغير

ـ اسمع لكلام عبد الله بن جحش : يقول سعد بن أبي وقاص راويًا (جمعني وعبد الله بن جحش مكان قبل غزوة أحد ، فقال لي : بنا ندعو الله، فرفع سعد بن أبي وقاص يديه وقال : اللهم ارزقني اليوم رجلاً من العدو ، رجلاً شجاعًا صنديدًا أقاتله فأقتله وآخذ سلبه ، وألقاك يا ربى بفخر أني قد قتلت عدوك .

ـ فقال عبد الله أما أنا فأقول : اللهم ارزقني اليوم رجلاً من أعدائك ، قويًا شجاعًا ، صنديدًا يقتلني ، فيجدع أنفي ، ويقطع أذني ، ويبقر بطني ، فألقاك ربي بدمي ، فتقول لم فعل بك هذا ؟ أقول فيك يا رب .

لماذا عذبت؟ أقول فيك يا رب .

ومن هذا وغيره تأخذ العبرة فقد كان بعض السلف يلقى أخاه فيقول : علمني دعاء أدعو به ، تخص به نفسك ، إن كل واحد منا يدعو دعاء لعل غيره لا يعرفه ، علمه لأخيك ، وتكون صدقة عليه .

وإذا فهمت ما سبق تفهم كلام شيخ الإسلام ابن تيمية لما أدخلوه سجن القلعة ، قال : والله لو بذلت لهم ملء هذه القلعة ذهبًا ما جازيتهم على ما قدموا لي من خير .

أنت لا تتمنى لقاء العدو ، ولكن تسأل الله العافية ، وقد قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ**

يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٣ ـ ١٧٥]
وقال عز من قائل : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٦٨] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب : ١٣ ـ ١٧]
والآيات كثيرة .

وقد قال رسول الله ﷺ : « من خَافَ أَدْلَجَ ، ومَنْ أدلجَ بَلَغَ المنزلَ ، أَلا إنَّ سلْعَةَ الله غاليَةٌ ، أَلا إنَّ سلعةَ الله الجنةُ »[1] .

وقال ﷺ : « حُفَّت الجنةُ بالمكَاره »[2] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « كَانَ الرَّجُلُ فيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ في الأَرْض فَيُجْعَلُ فيه فَيُجَاءُ بالْمنْشَار فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسه فيشق نصفين وَمَا يَصُدُّهُ ذَلكَ عَنْ دينه ويُمْشَطُ بأَمْشَاط الْحَديد مَا دُونَ لَحْمه منْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلكَ عَنْ دينه »[3] .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠) كتاب صفة القيامة . باب ما جاء في صفة أواني الحوض وقال: حسن غريب . وصححه الشيخ الألباني في صحيح الترمذي (١٩٩٣) .
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٢٣) كتاب الجنة وصفة نعيمها .
(٣) أخرجه البخاري (٣٦١٢) كتاب المناقب . باب علامات النبوة في الإسلام .

وعن سعد بن أبي وقاص قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ الله أيُّ النَّاس أَشَدُّ بَلاءً قَالَ : « **الأَنْبيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَل فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَب دينه إنْ كَانَ دينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاَؤُهُ وإَنْ كَانَ في دينه رقَّةٌ ابْتُليَ عَلَى حَسَب دينه فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاَءُ بالْعَبْد حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشي عَلَى الأَرْض مَا عَلَيْه خَطيئَةٌ**»[١] .

كل ما تكره بلاء فإذا اشتد ، فإنك حينذاك تحمد الله ، فإن معنىٰ هذا الحمد أن دينك أقوىٰ من البلاء والخوف ، لذا يكون الخوف علىٰ النفس أو الرزق منافيًا لكمال الإيمان ، فلا بد أن تعلم أن الرزاق هو الله ، وأنه لن تُقبض روحك حتىٰ تستوفي أجلك ورزقك ، ولذا نعتب علىٰ من يجرون في الدنيا جرىٰ الوحوش ويرتزقون من حلٍ ومن حرام ، ونقول لهم : لا تتعنَّ في طلب الرزق فإنه إن ترزق مليون جنيه ، فسوف يصل إليك إن آجلاً أو عاجلاً ، فاللص لو لم يسرق لسيق إليه المال الذي يسرقه بغير معصية من الله، والساعي يعمل ليلاً ونهاراً لا يُحَصِّل إلا ما كتب له ، ولعله يتعجل فيستوفىٰ علىٰ كل ما كتب له ، فإذا انتهىٰ رزقه مات وهو علىٰ معصية أو علىٰ أفضل الفروض يموت، ولما يدع لنفسه فسحة من الوقت ليقوم بالعبادة كما ينبغي ، وإن كان ليلاً ونهاراً منشغلاً بتحصيل الرزق .

قال ﷺ : « **إن رُوحَ القدُسِ نفث في رُوعي: أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل أجلها. فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ...**»[٢] .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨) كتاب الزهد . باب ما جاء في الصبر على البلاء . وقال : حسن صحيح وصححه الشيخ الألباني في صحيح الترمذي (١٩٥٦).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية عن أبي أمامة . وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٢٠٨٥).

والعلاج لهذا : ـ

العلاج الأول: أسوقه من كلام ابن القيم في الداء والدواء يقول ـ رحمه الله ـ:

(إن قلت : كيف يجتمع التصديق الجازم الذي لا شك فيه ، بالمعاد والجنة والنار ويتخلف العمل ؟

هل في الطباع البشرية أن يعلم العبد أنه مطلوب بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة أو يكرمه أتم كرامة ويبيت ساهيًا ، غافلاً ، لا يتذكر موقفه بين يدي الملك ، ولا يستعد له ، ولا يأخذ له أهبته ؟

فإن قلت : هل يجتمع العلم والتصديق الجازم في القلب ويتخلف العمل؟

قلت : [وهو ابن القيم] هذا لعمر الله سؤال صحيح) أ . هـ

نعم هو سؤال صحيح فإنك تسأل الأخ هل تعلم أن الذي ينفع ويضر هو الله ؟ يقول لك : أعلم ، فاعلم أن أحدًا لا يقدر أن ينقص من رزقك درهمًا إلا بإذن الله ، فيقول إني أعلم ذلك ، نعم هو يعلم وعنده يقين، ولكنه يخاف .

ما هو سبب الخوف ؟

يقول ابن القيم : هذا لعمر الله سؤال صحيح وارد على جميع الخلق، واجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء ـ العلم والتصديق وعدم العمل بمقتضاهما ـ قال : وهذا التخلف له عدة أسباب :

أحدها : **ضعف العلم ، ونقصان اليقين** ، ومن ظن أن العلم لا يتفاوت

فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها ، وقد سأل إبراهيم الخليل ربه أن يريه إحياء الموتىٰ عيانًا بعد علمه بقدرة الرب بذلك ليزداد طمأنينة ، ويصير المعلوم غيبًا شهادة ، إذًا يَظَلُّ العلم يتفاوت : هناك علم ضعيف ، وعلم قوي ، العلم القوي هو الذي يثمر العمل ، والضعيف لا يثمر العمل .

قال ابن القيم : وقد روىٰ الإمام أحمد في مسنده أن النبي ﷺ قال : «**لَيْسَ الخبرُ كالمعَايَنَة**»[1] . لذلك لما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ **رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ﴾ [البقرة : ٢٦٠] قال ابن القيم : فإذا اجتمع مع ضعف العلم ، عدم استحضاره ، وغيبته عن القلب كثيرًا من أوقاته ، لاشتغاله بما يضاده ، وانضاف إلىٰ ذلك تقاضي الطبع ، وغلبات الهوىٰ ، واستيلاء الشهوة ، وتسويل النفس ، وغرور الشيطان ، واستبطاء الوعد ، وطول الأمل ، ورقدة الغفلة ، وحب العاجلة ، ورخص التأويل ، وإلف العوائد ، فهناك لا يمسك الإيمان في القلب إلا الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا . وصدق ابن القيم ، وهذا كلام غال يوزن بميزان الذهب ، وكل سبب مِمَّا ذكر له علاج والتفصيل في كتابنا « عجائب القلوب » يسر الله إخراجه .

نعم يقول ربنا ﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [التوبة : ٥١] .

إن العبد يعرف الحقيقة ولكن عندما يخاف ينساها ، لا تخطر له علىٰ بالٍ أبدًا ، عند الخطر يفكر في الواسطة ، والمعارف ، والأسباب التي تدفع

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٨٤٥). وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٥٣٧٣).

عنه الأذىٰ مثل النكوص عن الالتزام، وحلق اللحية وأن يبعد ويتكاسل وينسىٰ أهم الأسباب وأقوىٰ الأسباب وهي الدعاء وصدق اللجوء إلىٰ الله.

يقول ابن القيم : وجماع هذه الأسباب يرجع إلىٰ ضعف البصيرة ، ونقصان الصبر ولهذا مدح الله أهل الصبر واليقين فقال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة: ٢٤] فبالصبر واليقين نبلغ التمكين ، تمكين الإيمان في القلب .

السبب في انخلاع كثير من الملتزمين ، ضعف الإيمان في القلب ونقصان اليقين في أن الله هو المعطي المانع ، الضار النافع ، المعز المذل .

إذًا العلاج الأول : تقوية الإيمان ورسوخ اليقين :

ومذهب أهل السنة أن الإيمان يزيد وينقص ، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي . فزد دومًا في طاعاتك يزدد إيمانك ، واعرف السنن الربانية في الخلق يزدد يقينك فتثبت والله المستعان .

ثانيًا : علاج ناجح ودواء شاف كاف لمرضى الخوف إن شاء الله :

وهذا العلاج والدواء ربىٰ الله عليه رجلاً اصطفاه بل وصنعه جل جلاله قال تعالىٰ لموسىٰ عليه السلام : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه: ٣٩] وقال جل جلاله : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ﴾ [طه: ٤١] .

تعالَ - أخيٰ الحبيب - لنرىٰ كيف عالج الله قضية الخوف عند موسىٰ عليه السلام في مواقف ثلاثة :

الموقف الاول

قال تعالىٰ : ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾[النمل : ١٠] خاف موسى من العصا حين اهتزت وتحولت إلى رد فعل : ولّي مدبرًا ولم يعقب ، فر من المكان ولم ينظر خلفه ولم يرجع .

العلاج الأول :

قال تعالىٰ : ﴿ يَا مُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النمل : ١٠ ـ ١١] .

هذه أول قطرة من العلاج :

(١) بث الثقة في النفس : لا يخاف لدي المرسلون . أنت رسولي، والرسول لا يخاف فلا تخف كي تكون رسولاً كما أريد .

وأما القطرة الثانية :

(٢) مباشرة العلاج بنفسه : إلا من بدل حسنًا بعد سوء . وإليها الإشارة في سورة طه ﴿قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [طه: ٢١] انظر إلىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ أي خذها وهي حية فإذا أخذتها ستكون عصا . هكذا لابد أن يتمحص الأخ ويرىٰ بنفسه الضر، ويقع عليه الأذىٰ فيجرب الاحتمال والصبر ، ويعلم أن كل هذا مما يحتمل ويطاق، ولا ينبغي للداعية أن يحل كل مشاكل المدعوين بنفسه، بل يدل ويتركهم يمارسون التجربة بأنفسهم ويتابع هو النتائج .

الموقف الثاني

﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ [طه: ٤٤، ٤٥] قارن بين هذا الموقف والموقف الأول ففي الأول ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴿١٠﴾ ﴾ [النمل: ١٠] أما هنا وبعد أخذ الجرعتين من العلاج اشتكى الخوف فقط مع شيء من الثبات ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ ﴾ .

ويأخذ موسى الجرعة الثالثة :

﴿ قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه: ٤٦] .

(٣) استشعار معية ملك الملوك جل جلاله :

أعلمه الله أنه معه ومن كان الله معه لا يخاف ولا يحزن ، وهذه علمها رسول الله ﷺ لصاحبه ﴿ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة: ٤٠] استشعار المعية يجلب السكينة على المؤمن وينزل تأييد ملك الملوك .

الموقف الثالث

﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ [طه: ٦٦، ٦٧] قارن بين هذا الموقف والموقفين السابقين : ـ

في الأول : ولى مدبراً ولم يعقب .

وفي الثاني : شكى الخوف لربه ﴿ **ربنا إننا نخاف** ﴾ .

أما هنا وبعد أخذ الجرعات الثلاث فالأمر أهون : فأوجس في نفسه خيفة . العلاج يأتي إذا ؟ بنتيجة فبعد الفرار صار فقط توجسًا في النفس ، وهنا تأتي القطرة الرابعة وهي الأخيرة .

﴿ **قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ** ﴾ [طه: ٦٨، ٦٩] .

(٤) يقين بما أنت عليه ويقين بباطل ما هم عليه :

تأمل في المواقف الثلاثة تكرار قول الله تعالى لموسى ﴿ **لا تخف** ﴾ .

- نعم لا تخف للتثبيت ، لا تخف لنفى الرعب وإخراجه من القلب .

- إنك أنت الأعلى : إعادة الثقة وبث اليقين أنك على الحق ، والحق يعلو ولا يُعْلَى عليه قال تعالى : ﴿ **وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٩] .

- ألق ما في يمينك : مرة أخرى مباشرة العلاج بنفسك وتولى الأمر بنفسك .

- إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى :

بيان بطلان الباطل وتأكيد ذلك .

وهنا انتهت مرحلة العلاج بعدما أخذ موسى جرعات كافية لعلاج الخوف وظلت الكلمة ترن في أذنه وتثبت قلبه ﴿ **لا تخف** ﴾ .

الموقف الرابع

﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦١ : ٦٢] استفاد موسىٰ من الدروس السابقة فأفاده هذا الثبات الرهيب حين تبعه فرعون وجنوده ، فهم خلفه والبحر أمامه فلم يتطرق إلىٰ قلبه ذرة رعب ، بل هو الآمن المطمئن إنه الأعلىٰ ، فإنه رسول الله ﷺ ، والله معه يسمع ويرىٰ، وفرعون وجنوده لا يفلحون حيث أتوا .

حين استحضر الدروس الأربعة في المواقف الثلاثة السابقة قال بمنتهىٰ الثبات والعزة بمنتهىٰ اليقين والثقة : ﴿ **كلا إن معي ربي** ﴾ .

***

السبب الثامن
الغلو والإفراط أو التفريط والترك

أولاً ـ ترك الوسطية

أيها الإخوة ، إن التطرف والغلو والتساهل والتفريط كلها داء واحد ، يقول ابن القيم في كتابه إغاثة اللهفان :

(ومن كيد الشيطان العجيب، أنه يَشَام النفس ـ أي يقترب منها ـ ويلتمس ما فيها ، ويحس ، ويشعر ، ويعرف أصل المسألة في النفس. إنه يشام حتىٰ يعلم أي القوتين تغلب عليها قوة الإقدام والشجاعة ، أم قوة الانكفاف والإحجام والمهانة) حين يلتزم الملتزم ويبدأ الطريق ، نقول لك : أخي الملتزم وحبيبي في الله ، إنك حين تلتزم بعد فترة من المعاصي والسيئات، وتترك الشيطان ، وتقبل علىٰ الله لا يتركك الشيطان ، كيف وقد خدمك سنين، كيف وكنت صديقه الحميم ، كيف وكنت حبيبه القريب، كيف وكان يستعملك في نصرة باطله علىٰ دين الله ، كيف يتركك، إنه يقترب منك، يريد أن يضلك بأي طريقة ، فيبدأ أول ما يبدأ يشام النفس ، يستشعر فيك حدة ونشاطًا وقوة وغلبة في نفسك ، أم أنك مهين بطيء لين بعيد هادئ ، ليست فيك أية قوة ، ينظر أي القوتين تغلب ، فإن رأىٰ الغالب علىٰ النفس المهانة والإحجام ، أخذ في تثبيطه وإضعاف همته وإرادته عن المأمور به وثقله عليه ، فهون عليه تركه جملة أو تقصيراً فيه، ويتهاون به. سبحان الله العظيم .

إن من أقدار الله الكونية العجيبة وجود تلك الجماعات ،فأنت تجد على طرف أناس في منتهىٰ الحماس والقوة يغلبهم الطيش فيتصرفون بدون عقل ولا علم .

وعلىٰ الطرف الآخر أناس لا يتكلمون إلا فيما فوق السماء وتحت الأرض ، وما بينهما لا علاقة له لا بأمراض الأمة ، ولا تغيير منكر ، ولا شيء وهذا من عجيب تقدير الله سبحانه وتعالىٰ .

طرفان ، تجد الإنسان إذا التزم يبحث عما يناسبه من هذين ، الشيطان يجره إلىٰ ما يناسب نفسه ، إن رأىٰ نفسه تميل إلىٰ المهانة ، والإحجام يثبطه، فيقول : لا داعي للتشدد ولا للتقعر والشدة ، لماذا إجهاد النفس ثم يتهم الجماعات المخالفة له بالعقد والتزمت .

وإن رأىٰ الغالب عليه قوة الإقدام وعلو الهمة أخذ يقلل عنده المأمور به كقصة الشباب الثلاثة الذين أتوا بيوتات النبي ﷺ فسألوا عن عبادته فكأنهم تَقَالُّوها[1] ، تعجب وأنت تقرأ الحديث - رضي الله عنهم أجمعين - نعم، ولكن تتعجب من أناس يستقلون عبادة سيد الخلق محمد ﷺ ، ومعنىٰ أنهم تقالُّوها أن الشيطان أخذ يقلل عندهم المأمور ويوهمهم أنه لا يكفيهم ، وأنهم يحتاجون معه إلىٰ مبالغة وزيادة . يقصر بالأول ، ويتجاوز بالثاني يشده إلىٰ أعلىٰ .

وكما قال بعض السلف (ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان ،

(١)متفق عليه أخرجه البخاري (٥٠٦٣) كتاب النكاح . باب الترغيب في النكاح ، ومسلم (١٤٠١) كتاب النكاح . باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ، ووجد مؤنسه ، واشتغال من عجز عن المؤمن بالصوم .

إما إلىٰ تفريط وتقصير ، وإما إلىٰ مجاوزة وغلو ، ولا يبالي الشيطان بأيهما ظفر ، وقد اقتطع كثيراً من الناس ، إلا أقل القليل في هذين الواديين) .

وادي التقصير ، ووادي المجاوزة والتعدي ، والقليل منهم الثابت علىٰ الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه .

إن تلك مصيبة ، مصيبة ضخمة أنك تجد إنسانًا يشتد في الأمر ويغلظ فيه فيتجاوز الحد ، وآخر يفرّط فيه فلا تجد له أصلاً .

يقول ابن القيم : فقوم قصر بهم الشيطان عن الإتيان بواجبات الطهارة، وقوم تجاوز بهم إلىٰ مجاوزة الحد بالوسواس .

وقد كنت أتوضأ بالجامع الأزهر ثم رأيت رجلاً أثناء الوضوء وهو يمسح علىٰ رأسه فما مس إلا أقل القليل في أسفل الرأس عند خط انتهاء الشعر ، فقلت في نفسي : أهذا هو مسح الرأس الذي قال عنه رسول الله ﷺ فعندما اقتربت منه لأنصحه برفق فقال لي : وماذا في ذلك يا جاهل؟ قلت : سبحان الله وماذا يضرك لو فعلت السنة وهي الأحوط ومسحت بجميع رأسك ؟

علىٰ النقيض من هذا المثال تجد آخر يضع رأسه كلها تحت الصنبور ، ولا يصدق أنه قد مسح رأسه، ومثل هؤلاء من أصحاب الوساوس كثيرون .

قوم قصر بهم عن إخراج الواجب من المال ، الزكاة المفروضة ، وقوم تجاوز بهم حتىٰ أخرجوا جميع ما في أيديهم وقعدوا كلاًّ علىٰ الناس مستشرفين ما بأيديهم .

قصر بقوم عن خلطة الناس حتىٰ اعتزلوهم في الطاعات كالجمعة والجماعات ، وتعلم العلم ، والجهاد ، وتجاوز بقوم حتىٰ خالطوهم في الظلم والمعاصي والآثام .

قصَّر بقوم حتىٰ منعهم من الاشتغال بالعلم الذي ينفعهم ، قالوا : العلم يفرق، قالوا العلم يقسي القلب، خلافات العلماء، نكتفي بكذا وكذا، وتجاوز بآخرين حتىٰ جعلوا العلم وحده هو غايتهم دون العمل به ، ولا الدعوة إليه، ولا تعليمه ونشره، فصار العلم عندهم غاية ، رغم أنه وسيلة للعمل .

وقصر بقوم حتىٰ زين لهم ترك سنة رسول الله ﷺ من النكاح ، فرغبوا عنه بالكلية وتجاوز بآخرين حتىٰ زنوا ووقعوا في الحرام .

قصر بقوم حتىٰ جفوا الشيوخ من أهل الدين والصلاح وأعرضوا عنهم ولم يقوموا بحقهم ، وتجاوز بآخرين حتىٰ عبدوهم مع الله ، هكذا تجدهم ، تقول إن الإمام أحمد كان يقول كذا ، فيرد عليك قائلا : الذي يقوله لا يلزمني هم رجال ونحن رجال .

وتجاوز بالصوفية حتىٰ جعلوا شيوخهم آلهة مع الله .

قَصَّر بقوم حتىٰ منعهم قبول أقوال أهل العلم ، ولم يلتفتوا إليها بالكلية، وتجاوز بآخرين حتىٰ جعلوا الحلال ما أحلوا والحرام ما حرموا ، وقدّموا أقوالهم علىٰ قول الله - جل وعلا - وكلام النبي ﷺ.

هكذا عمل الشيطان ، قال ﷺ : « **إيَّاكُمْ والغُلُوَّ في الدينِ ، فإنَّما أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلكم الغلو في الدين** »[1] .

وقال : « **هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ** »[2] .

---

(١) أخرجه النسائي (٣٠٥٧) كتاب المناسك . باب التقاط الحصى ، وابن ماجه (٣٠٢٩) كتاب المناسك . باب قدر حصى الرمي ، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (١٢٨٣) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٠) كتاب العلم . باب هلك المتنطعون .

وقال : «إنَّ الدين يُسْرٌ ، ولنْ يُشَادَّ الدِّيْنَ أَحَدٌ إلاَّ غَلَبَهُ ، فَسَدِّدوا وقَارِبُوا ، وَأَبْشِرُوا واسْتَعِيْنُوا بالغَدْوَةِ ، وشَيْءٍ منَ الدُّلْجَةِ»(١) .

فالتطرف والغلو من الأسباب التي تودي بالكثيرين على طريق الالتزام، فالذين يُحَمِّلون أنفسهم فوق ما تطيق ولا يقبلون التوسط في شيء، ويصرون على الغلو في كل شيء ، هؤلاء مُعرَّضون بشكل أو بآخر لانتكاسات نفسية وإيمانية .

أيها الشباب . . إنني - والله - لكم ناصحٌ أمينٌ ، إن النفس البشرية ضعيفة، وهي قد تتحمل العزائم حينًا ، ولكنها لا تقوى على حملها في كل حين أبد الدهر .

لذا قال النبي ﷺ : « يا حَنْظَلَةُ ، ساعةً وساعةً »(٢) .

بفهم سلفي ، ليس بفهم المتسيبين ، انتبه ، ليس بفهم الذين يقولون ساعة تسمع القرآن ، وساعة تسمع الأغاني ، ليس بفهم الذي يقول ساعة تصلي ، وساعة تزني ، ليس بفهم ساعة تجلس في مجلس الذكر وتلاوة القرآن، وساعة تقامر وتلعب وتعصي الرحمن ، لا بل ساعة وساعة ، أي ساعة يعلو فيها الإيمان حتي تكون الجنة والنار كأنها رأي عين وساعة تعافس فيها الزوجات وتلاعب الأولاد ، وتعالج فيها الضيعات ، فينخفض المستوى الإيماني قليلاً ولكنه لا يبلغ درجة الوقوع في الحرام أبدًا ، بل ولا حتى التوسع في المباحات .

لذا أيها الإخوة ، تدرجوا في التحمل حتى تتمكنوا من الاستمرار ، ولا تُحمِّلوا النفس بالتكاليف دفعة واحدة .

(١) أخرجه البخاري (٣٩) كتاب الإيمان . باب الدين يسر .

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٥٠) كتاب التوبة . باب فضل دوام الذكر .

إن شرع الله يجب أن يؤخذ بلا زيادة أو نقصان ، فالذي يزيد فيه كالذي ينقص منه ، وحدود الحلال والحرام يجب التزامها ، كما جاء بها الشرع بدون تحايل عليها أو تأويل لها أو تساهل بها ، فالذي لا يعرف من صفات الله إلا أنه غفور رحيم ، يجب أن يصحح معلوماته ، ويعرف أيضًا أنه كذلك شديد العقاب ، والذي لا يعرف إلا إنَّ بطش ربك لشديد ، يجب أن يصحح فيعرف أيضًا أنه أيضًا رحيم ودود .

أيها الإخوة إننا ينبغي أن ننتبه لهذه القضية ، فإنك قد تجد بعض الناس في بداية الالتزام يلزم نفسه بتحريم كل شيء ، دون اجتهاد في العلم ، ودون صبر في الطلب ، ودون إذعان إلىٰ كلام العلماء الكبار الذين عرفوا الشرع من منابعه ، وتلقوه من مصادره ، واستقبلوه من أسسه وأصوله ، فلذلك تجد هؤلاء أول من يقعون فإنهم حرموا حرموا ، ثم بعدها يكون التفلت والعياذ بالله ، وقد ذكرت لكم أن النفس قد تتحمل في البداية ، ولكنها لا تستطيع أن تتحمل دائمًا إلا شرع الله ؛ لأنه معلوم أصلاً أن الله لا يكلف بما لا يطاق ، فإذا التزمنا الشرع فكل ما أمر به الشرع يطاق ، ويمكن الاستمرار عليه، أما ما ابتدعناه واخترعناه وأخرجناه من عند أنفسنا دون كلام كبار العلماء من أهل السلف ـ رضوان الله عليهم ـ فإننا لا نطيقه لذا سرعان ما ننكص ونعود .

في مقابل ذلك نرىٰ أن الذي عود نفسه علىٰ الرخص في كل حين لن يتمكن من حملها علىٰ العزائم في أي حين ، لأن من تعود الرخص يسقط في أول امتحان عزيمة ، وتكون البلية والنهاية ، إنني أرىٰ بعض إخواننا ـ وللأسف الشديد ـ حياته كلها رخص ، كل حياته تساهل ، في حياته التجارية ، تعاملاته المادية ، في حياته العائلية ، في حياته الوظيفية ، في

كافة شئونه ، لا يكاد يرىٰ حرجًا في شيء ، ولو رده إلىٰ الشرع لوجد فيه انحرافًا وإثمًا مبينًا ، إن هذا المتساهل أيضًا الذي يبحث عن الرخص ، كما قال بعض العلماء : **من تتبع رخص العلماء تزندق** .

فمثلاً يسلم علىٰ النساء زاعمًا أنهن من القواعد ، وينظر إلىٰ النساء قائلاً إن النظرة الأولىٰ إذا كانت بدون شهوة ولا رغبة فلا بأس ، ثم يأكل الحرام ، يقول إن الأصل في الأشياء الحل ، وهذه فيها شبهة ، وأنا محتاج ، وتلك ضرورة وهكذا يتوسع ويتوسع حتىٰ تصبح حياته محطًا لكل رذيلة ، جمع فيها سقطات العالم كله ، وهذا - للأسف الشديد - لا بد أن يسقط سريعًا ؛ لأنه لا يبقىٰ له من دينه من شيء .

قال الحسن رضي الله عنه : (السنة والذي لا إله إلا هو بين الغالي والجافي ، فاصبروا عليها - رحمكم الله - وقد كان أهل السنة أقل الناس فيما مضىٰ ، وهم أقل الناس فيما بقىٰ ، إنهم الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم ، ولا مع أهل البدع في بدعهم ، وصبروا علىٰ سنة نبيهم حتىٰ لقوا ربهم ، فكذلك فكونوا - إن شاء - الله) .

ما السبب في الغلو والتفريط ؟ في التنطع والترك ؟

❊ ❊ ❊

السبب هو الهوى

فإن الإنسان يتابع هواه ، فإذا دخل الهوىٰ إلىٰ القلب فَضَخَّه مع الدم، توغل الهوىٰ في العروق والمفاصل ، فصارت العروق تنبض بالهوىٰ، والمفاصل تتحرك بالهوىٰ فلا تصل إلىٰ الله أبدًا ، هذا الهوىٰ إذا دخل العروق والمفاصل أفسدها قال ﷺ: « **أَلا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً وَإِنَّ هَذِهِ الْمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَهِيَ الْجَمَاعَةُ - زاد بعضهم في رواية - وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَي بِهِمْ تِلْكَ الأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ لا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلا مَفْصِلٌ إِلا دَخَلَهُ** »(١)

إننا أيها - الإخوة - لا نعرف الاتزان والوسطية في اختلافاتنا، ولا علاقاتنا، للأسف الشديد ، ولكن يجب أن نعرفها علىٰ الأقل في ديننا وهذا هو الأصل وهو العلاج :

وعلاج الغلو والتفريط : العلم

أولاً : يكون بالعلم فبدون العلم لا يأمن الإنسان علىٰ نفسه الانحراف عن الصراط المستقيم، وقد أُتِي الكثير من قِبَل الجهل ، وقِلَّة العلم، ثم إنه لابد من طلب العلم بمنهجية . إن الإخوة ما زالوا يطلبون العلم هواية، وهذا لا يصلح ولا يصنع علماء ، ولا يثمر ثباتًا ،لا بد من طلب العلم بجدية ومنهجية وانضباط .

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٥٩٧) كتاب السنة . باب شرح السنة ، وصححه الشيخ الألباني في صحيح أبي داود (٣٨٤٣) .

بوّب الإمامُ البخاري بابًا فقال : باب : العِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ لقوله تعالىٰ : ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد: ١٩] لذا قال علماؤنا ـ رحمهم الله ـ (إن كل سير لا يصاحبه عِلم يخاف عليه أن يكون من خدع الشيطان) .

لا بد في سيرك إلىٰ الله من علم ، لا بد من قوتين : قوة علمية تعرف بها الطريق وقوة عملية تسير بها ، علم بلا عمل يؤدي إلىٰ نفاق ، وعمل بلا علم يؤدي إلىٰ ابتداع ، والنجاة في العلم والعمل، لا بد من علم وعمل ، فالشيطان حين يرىٰ عبدًا من عباد الله قد عزم علىٰ السير إلىٰ الله ، فإنه يحاول منعه بكل الطرق والوسائل فإن لم يجد الشيطان بُدًا من سير العبد سيَّره بجهل فضلله .

قال الله : ﴿ **وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ** ﴾ [النمل: ٢٤] .

وقال عز من قائل : ﴿ **وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ** ﴿٣٦﴾ **وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ [الزخرف: ٣٦ ـ٣٧] .

إنني كثيرًا ما أذكركم بآية أحسبها أخطر آية في القرآن ، أخوف آية هي قول الله : ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً** ﴿١٠٣﴾ **الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** ﴾ [الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٤] .

إنك لا بد وأن تثبت ، ولن تثبت حتىٰ تمتلئ يقينًا أنك علىٰ الحق الصِّرف يقينًا ، فأنت ترىٰ الشيطان إذا حاول الإنسان أن يسير في الطريق بدون علم ، يحاول أن يشككه في أمور العقيدة ، يطرح عليه أسئلة عن

الخلق والقدر ، وغير ذلك من مسائل العقيدة ، الأسماء والصفات فإن لم يتحصن السائر إلىٰ الله بالله ثم بالعلم ، فإنه سيسقط في براثن الشيطان، ويبدأ في الانحراف عن الصراط المستقيم، كما كان الحال من الفرق الضالة التي تسمع عنها ، والشيطان قد يزين للإنسان الباطل فيراه حقًا .

يقول ابن القيم (فمن الناس من يتقيد بلباس لا يلبس غيره، أو بالجلوس في مكان لا يجلس في غيره ، أو بمشية لا يمشي غيرها، أو بزي وهيئة لا يخرج عنها ، أو عبادة معينة لا يتعبد بغيرها ، وإن كانت أعلىٰ منها، أو بشيخ معين لا يلتفت إلىٰ غيره ، وإن كان غيره أقرب إلىٰ الله ورسوله منه، هؤلاء كلهم محجوبون عن الظفر بالمطلوب الأعلىٰ مصدودون عنه) ونحن نتكلم عن الغلو في أن كل ما يقوله شيخه هو الحق وما سواه هو الباطل ، إن هذا الغلو والتنطع ، إنما يجب علىٰ المرء أن يعلم أن الحق إذا جاءنا من أي أحد طالما أنه موافق للشرع (للكتاب ، والسنة) فنأخذه منه وما خالفهما فنخالفه فيه، والطريق الوحيد لأن تعلم أنك علىٰ الجادة الصحيحة أن تأتي جميع أعمالك خلف رجل واحد هو رسول الله محمد صلَّىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم .

إن الشيطان سيحاول ويحاول دائمًا وجاهدًا أن يوقع العبد في البدع والشهوات ، فإن لم يتحصن بالعلم ، ويتبع هَدْي الرسول ﷺ يَقْتَفِ أثره، فسيقع فيها دون أن يدري .

فإن رسول الله ﷺ هو المعصوم وهو أفضل الخلق ، لم يترك الزواج ، ولم يعتزل الناس، لم يترك التداوي ، فلا ينبغي أن نخالفه قيد أنملة ، فالشريعة هي الحجة ، وأفعال الرسول وتوجيهاته هي الميزان الذي نزن به

أفعالنا ، فنجعله ﷺ ـ كما قال ابن القيم ـ (إمامًا وقدوةً وحاكمًا ، نجيبه إذا دعانا، ونقف معه إذا استوقفنا ، ونسير إذا سار بنا ، ونقبل إذا قال ، وننزل إذا نزل ، ونغضب لغضبه ، نرضىٰ لرضاه ، إذا أخبرنا عن شيء أنزلناه منزلة ما نراه بأعيننا ، وإذا أخبرنا عن الله بخبر أنزلناه منزلة ما نسمعه من الله بآذاننا ، فالطرق كلها مسدودة علىٰ الخلق إلا من اقتفىٰ أثر رسول الله ﷺ ، فأتباع الرسول إذا قعدت بهم أعمالهم قامت بهم عزائمهم وهممهم ومتابعتهم لنبيهم ، والمنحرفون عن طريقه إذا قامت بهم أعمالهم واجتهادهم ، قعد بهم عُدُولُهم عن طريقه) ولكن لا بد هنا من ضابط آخر لمسألة اتباع النبي ﷺ وهو فهم السلف ، فلا بد أن نأخذ الكتاب والسنة بفهم هؤلاء السلف ، انتبه إلىٰ قول بعض السلف في قاعدة من القواعد الفقهية : (أن كل نص عام لا يجوز العمل ببعض أفراده إلا إذا سبق عمل السلف به) .

مثاله : نحن دخلنا المسجد بعد أذان العشاء وقبل الإقامة، والرسول ﷺ قد قال : «بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلاةٌ »[1] فيوجد ركعتان سنة هنا، فيقول البعض: ما رأيكم أن نصلي جماعة، فهل يصح هذا أم لا؟ قد قال رسول ﷺ : «صلاة الجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلاةَ الفَذِّ بِسَبْعٍ وعِشْرِيْنَ دَرَجَةً »[2] فصلاة الجماعة أفضل ، فهل تصلي جماعة ، كان رد العلماء أن هذا نص عام ، لا

(١) مُتفق عليه أخرجه البخاري (٦٢٤) . كتاب الأذان . باب كم بين الأذان والإقامة ، ومسلم (٨٣٨) كتاب صلاة المسافرين وقصرها . باب بين كل أذانين صلاة .

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري (٦٤٥) كتاب الأذان . باب فضل صلاة الجماعة . ومسلم (٦٥٠) كتاب المساجد ومواضع الصلاة . باب فضل صلاة الجماعة

يجوز تخصيصه في مسألة أو قضية ، إلا إذا كان قد جرىٰ عمل السلف بهذه الطريقة ، لذلك الذين يقولون أذكار الصباح والمساء في جماعة ، والذين يصلون ركعتي الضحىٰ في جماعة . . إلخ نقول : لهم اتقوا الله، فإن هذا لا يجوز ، أما عندما رأينا أن رسول الله ﷺ قد صلىٰ الشفع والوتر في رمضان في جماعة ، فيكون صلاتها في جماعة سنة .

فكل نص من نصوص العموم ، لا يجوز تخصيصه إلا إذا عمل السلف به .

فينبغي أن نعلم أن القضية ليست النص وحده ، وإنما القضية فهم النص بفهم سلف الأمة كيف أجروه ؟ وكيف عملوا به ؟

الخلاصة ـ أيها الإخوة ـ إنه بدون العلم لن يستطيع الإنسان أن يسير سيرًا صحيحًا مأمونًا إلىٰ الله ، فالطريق إلىٰ الله مليء بالعقبات ، والمنعطفات، ولن يتمكن السائر فيها من رؤيتها إلا بالاستعانة بالله ، ثم التحصن بحصن العلم، والعمل بمنهج السلف وعلىٰ نهجهم .

* * *

السبب التاسع
احتقار الذنوب والاستهانة بتراكم الأوزار

إن كثيرًا من الملتزمين الذين يصيبهم الفتور ، يذكرون أن السبب هو أنهم في بداية الهبوط ، في بداية السقوط ، كانوا ينظرون إلى الأمور من جهة وقوع الإثم فيها أو عدم وقوعه ، بغض النظر عن فعل المكروه ، تجده في بداية السقوط يبدأ يسأل عن الأفعال، يسأل عن الحرام وعن الفرض ، فما كان فرضًا قام به ولا يكلف نفسه عمل المستحبات ، ويحاول ألا يقع في الحرام ، ويسمح لنفسه بالتوسع في المباحات والمكروهات ، تجده يستهين بالمكروه ولا يسأل نفسه مِمَّن هو مكروه . . ؟ ولا يخطر بباله أنه مكروه من الله سبحانه وتعالىٰ ، لا يسأل عن أعمال البر ، وإنما يسأل عن الفرض ، فإذا كان فرضًا قام به ، أما إذا كان مستحبًا فلا يفعله ، ولا يسأل نفسه مِمَّنْ هو مستحب . . ؟ أليس من الله سبحانه وتعالىٰ ،أليس يرفعه في الجنة درجة، أليس يبعده عن النار دركة ، إن هذا الإنسان بهذه النفسية يقع في شَرَك الشبهات والمكروهات حتىٰ يقع في الحرمات يومًا ما بكل تأكيد .

قال رسول الله ﷺ : « **إنَّ الحلالَ بيِّنٌ ، والحرامَ بيِّنٌ وبينهما مُشْتَبِهَاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاس ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَات فَقَد استبرأ لدينه وعِرْضِه ، وَمَنْ وَقَعَ في الشُّبُهَاتِ وَقَعَ في الحَرَامِ ، كراعٍ يَرْعَى حول الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فيه أَلا وإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَى أَلا وَإِنَّ حِمَى الله مَحَارِمُهُ ، أَلا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا**

صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّه ، وإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ القَلْبُ»[1] .

لماذا يترك الناس الحلال البين ويقعون في الحرام البين ؟ الإجابة في آخر الحديث ، بسبب فساد القلب .

أيها الإخوة : إنها دورات رديئة ، فكل الأسباب التي ذكرتها آنفًا يرتبط بعضها ببعض ، كلها يُوَلِّد بعضها بعضًا ، لذا تجد أن فساد القلب يؤدي إلىٰ الوقوع في الشبهات ، والوقوع في الشبهات يؤدي إلىٰ الوقوع في الحرام .

تجد فساد القلب يجر المرء إلىٰ بداية المعصية ، فهو قد يستفتىٰ في موضوع معين ، ولنأخذ مثالاً بالموظف يسألك هل استخدام الأوراق الخاصة بالعمل في كتابة موضوعات خاصة ، هل هذا حرام ، فيقال له : نعم ، إن هذه سرقة ، فيعود ويسأل ؛ لأنه يريد متابعة هواه الذي يخيل له أنها ليست سرقة ، فيقول له : هل هي سرقة كمن يسرق شخصًا آخر ، فإذا قلت له إن هذا مالٌ عام يخص الناس جميعًا ، تجد هواه يزين له استحلاله علىٰ أنه فرد من الشعب .

وآخر تقول له : إن العاقد ليس له الحق في جماع الزوجة ، وذلك لأن الدخول بالزوجة له شرطان : شرط الإشهار ، وشرط استئذان الولي ، فيسأله هل هو زانٍ ، فإذا قلت له : إنه ليس بزانٍ ، ولكنه يرتكب إثمًا كبيراً ، رأيته يستحل ذلك ويستهين بأنه يأثم ، ولكن هواه يصور له أن هناك

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري (٥٢) كتاب الإيمان . باب فضل من استبرأ لدينه . ومسلم (١٥٩٩) كتاب المساقاة . باب أخذ الحلال وترك الشبهات .

أنواعًا من الحرام ، هل هو حرام شديد التحريم ، أم أنه نصف الحرام ، ويقول لك إن الحرام يتفاوت ، فالنظر إلىٰ المتبرجة زنا ، ولكن المجامعة في الحرام زنا أشد ، وهكذا تكون الصلاة فرضًا وإعفاء اللحية فرضًا ، لكن فرض الصلاة أعلىٰ من فرض إعفاء اللحية ، فتارك الصلاة كافر ، وحالق اللحية آثم مثلاً ، فهكذا تتفاوت الفرائض وتتفاوت المحرمات .

إن هذا الإنسان الذي لا يكون لديه اهتمام بالابتعاد عن المنكر والسيئات، بل عنده استعداد لارتكاب أول مراحل الحرام والاستهانة بمحقرات الذنوب فينتج عن ذلك الاجتراء علىٰ محارم الله ثم زوال الحواجز بينه وبين المعصية ، ولذلك يقول رسول الله ﷺ : « **لأعلَمَنَّ أقوَامًا مِنْ أُمَّتي يأْتُونَ يَوْمَ القيَامَة بحَسَنَات أَمْثَال جبَال تهَامَةَ بيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللهُ - عز وجل - هَبَاءً مَنْثُورًا** » سيأتون بجبال من الحسنات ، صدقات ، قيام ليل ، صيام ، صلاة ، أمر بالمعروف ، ونهي عن المنكر . . إلخ ولكن انظر لماذا يجعل الله أعمالهم هباءًا منثورًا ؟!!

قال ثوبان : يا رسول الله صفهم لنا ، جلهم لنا ، ألا نكون منهم ونحن لا نعلم ، قال : «**أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ يَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أقوام إِذَا خَلَوْا بمَحَارِمِ الله انْتَهَكُوهَا**»[1].

يأخذون من الليل كما تأخذون ، قوّامون ، يقومون الليل ، ولكن إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها ، وللأسف تجده يقع في المحرم دون تحفظ ولا

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٥) كتاب الزهد . باب ذكر الذنوب وصححه الشيخ الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٢٣) .

تردد، هذا أسوأ من الذي يقع بعد تردد ، كلا الشخصين على خطر ، نعم، ولكن الأول أسوأ من الثاني ، هذا النوع من الناس يستسهل الذنوب نتيجة لفساد قلبه ، نتيجة لفساد عقيدته ، نتيجة لفساد توحيده ، فلو وَحَّد الله كما ينبغي لما وقع في هذه المعصية ، بدليل أنه حين يفعل المعصية لا يرىٰ أنه عمل شيئًا منكرًا ولذلك قال : رسول الله ﷺ: **«إنَّ المؤمن يرى ذنوبه كأنَّه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه وإنَّ الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه قال به هكذا فطار»**[(١)] .

فلتنتبه يا مغرورًا بالأماني ، لُعن إبليس وأهبط من منزل العز بترك سجدة واحدة أمر بها . أخرج آدم من الجنة بلقمة تناولها ، وحجب القاتل عنها بعد أن رآها عيانا بملء كف من دم ، وأمر بقتل الزاني أشنع القتلات بإيلاج قدر الأنملة فيما لا يحل ، أمر ـ سبحانه ـ بإيساع الظهر سياطًا بكلمة قذف، أو قطرة مسكر ، أبان عضوًا من أعضائك في ثلاثة دراهم .

احذر أن يعاملك بمثل هذا في يوم القيامة ، احذر ، لا تأمن أن يحبسك في النار بمعصية واحدة من معاصيك ، ولا يخاف عقباها جل جلاله، فقد دخلت امرأة النار في هرة حبستها، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يلقىٰ بها في النار أربعين خريفًا أبعد ما بين المشرق والمغرب .

وإن الرجل ليعمل بطاعة الله ستين سنة ، فإذا كان عند الموت ، جار في الوصية فيختم له بسوء عمله فيدخل النار .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٧) كتاب صفة القيامة والرقائق والورع والدرع عن رسول الله . وصححه الشيخ الألباني في صحيح الترمذي.

انتبه . . العمر بآخره ، والعمل بخاتمته ، من أحدث قبل السلام بطل ما مضىٰ من صلاته ، ومن أفطر قبل غروب الشمس أصبح صيامه ضائعًا ، ومن أساء في آخر عمره لقي ربه بذلك الوجه .

انتبه . . فقد يأتيك الموت وأنت علىٰ هذا الحرام ، فلا تأمن أن تلقاه عاصيًا فيكبك في النار علىٰ وجهك لا يبالي .

يا من تتهاون بالمعاصي لو قدمت لقمة وجدتها ، ولكن يؤذيك الشره، كم جاء الثواب علىٰ بابك ، يحجب عنك فعل الحرام فوقف بالباب، فرده بواب سوف ، ولعل وعسىٰ .

* والعلاج الوحيد لاحتقار الذنوب والاستهانة بتراكم الأوزار هو تحقيق التوحيد

يقول ابن القيم : التوحيد ألطف شيء ، وأنزهه ، وأنظفه ، وأصفاه فأي شيء يخدشه ويدنسه ويؤثر فيه .

والتوحيد ثلاثة أنواع يتألف منها التوحيد الصحيح الكامل التام لرب البريات وفاطر الأرض والسموات، وعندما نقول ثلاثة أنواع من التوحيد ، لا نقول أنها أنواع يختار الموحِّد ما بينها ، وإنما نقول لكي يكون توحيدك صحيحًا كاملاً فيجب أن تكون له ثلاثة أوجه وجوانب ، ثلاثة أفرع لنفس الشجرة الأنواع الثلاثة هي :

توحيد الربوبية : بأن تشهد أن الله ـ عز وجل ـ هو الخالق البارئ المصور الذي خلق الأرض ومن عليها ، وخلق السماء وما يعرج فيها ،وأنه

هو الخالق الرازق باختصار كل ما يختص بالخلق والقدرة أو بمعنىٰ آخر هو : توحيد الله بأفعال الله .

وتوحيد الألوهية : بأن تعرف أن الله هو وحده المستحق للعبادة والمحبة ، وأنه وحده الذي تجب طاعة أوامره واختصاصه بالمحبة أو بمعنىٰ : أنه توحيد الله بأفعال العبادة من العباد .

أما عن توحيد الصفات : فهو بأن تثبت جميع الصفات التي أثبتها الله - سبحانه وتعالىٰ - لنفسه، وأثبتها له رسوله ﷺ، أن تشهد بأنه وحده مستحق لصفات الجلال والكمال - سبحانه - ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير .

وأن تعرف كل ما سبق من أنواع التوحيد هو شيء حسن ، وأن تعلم الفئات الضالة من مرجئة ، وجهمية ، ومعطلة ، فهذا أيضًا شيء حسن، وذلك حتىٰ تتجنب الوقوع في الباطل وما وقعوا فيه من شركيات ، ولكن يجمله أكثر أن نوقع التوحيد في أنفسنا وقلوبنا ، وأن نعمل بمقتضاه .

التوحيد بمنتهىٰ البساطة هو صدق تعلق القلب بالرب ، فالتوحيد كأبيض ثوب يؤثر فيه أدنىٰ أثر ، التوحيد كالمرآة الصافية ، يبين فيها أدنىٰ شيء ، لهذا تشوشه اللحظة واللفظة والشهوة الخفية ، واللحظة : هي النظرة .

واللفظة : عندما نتكلم كلمة وتظن أن الله - جل جلاله - السميع لا يسمعك .

والشهوة الخفية : هي أحد أسباب التدني والتردي ، فإذا بادر صاحبها وقلع هذا الأثر بضده وإلا استحكم وصار طبعًا يتعسر قلعه .

يقول ابن القيم في شرح الحديث القدسي : «... **ومن لقيني بقراب**

الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئًا لقيته بمثلها مغفرة »[1] .. (اعلم أن النفي العام للشرك ألا يشرك بالله شيئًا ألبتة ، لا يصدر من مصر على معصية أبدًا ، فلا يمكن لمدمن الكبيرة والمصر على الصغيرة ، أن يصفو له التوحيد حتى لا يشرك بالله شيئًا ، هذا من أعظم المحال ، ولا يلتفت إلى المجادلين ممن لا حظ لهم من أعمال القلوب ، بل قلوبهم كالحجر أو أقسى ، إذا قالوا لك : ما وجه الإحالة أن يكون المرء مدمن خمر وموحدًا .

فدع هذا القلب المفتون بجدله وجهله ، واعلم أن الإصرار على المعصية يوجب من خوف القلب من غير الله ورجائه لغير الله ، وذُلِّه لغير الله ، وتوكله على غير الله ، ما يصير به منغمسًا في بحار الشرك) أ هـ .

فعندما تكون سائرًا في الطريق ، وأنت تنظر إلى النساء يمنة ويسرة ، أتكون عندها عالمًا بنظر الله إليك أم لا؟ . . إن قلت لا فتوحيدك مدخول ، وإن قلت : نعم ، فأنت مجاهر ، فأين تكون أنت حينئذ من كامل التوحيد الذي يرعى نظر الله إليه ويخاف بطش الله به .

والحاكم في هذا ما يعلمه من نفسه ، إن كان له عقل ، فإن ذل المعصية لا بد أن يقوم بالقلب فيورثه خوفًا من غير الله ، ويورثه محبة لغير الله ، واستعانة بغير الله في الأسباب التي توصله إلى غرضه ، فيكون عمله لا بالله، هذه حقيقة الشرك .

إن تعلق القلب بالمعصية وإدمانها والإصرار عليها مناف للتوحيد ، هادم لصرحه ، هذا هو السبب في الفجوة بين التوحيد ولوازمه السلوكية

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٨٧) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار . باب فضل الذكر والدعاء .

والأخلاقية ؛ لأننا فصلنا بين التوحيد ومقتضياته ، ولوازمه ، صيرنا التوحيد جوانب علمية ، وحكم على الناس فقط ، أما على أنفسنا وذواتنا ، فذلك شيء ليس بوارد ، التوحيد ليس شيئًا علميًا فقط ، وإنما يتعلق بلوازمه من علم السلوك والأخلاق ، لذلك فإن أول علاج لكي تترك المعاصي جملة ولا تتهاون إذا وقعت فتتوب : هو تحقيق لا إله إلا الله .

يقول ابن القيم : (إن كل من قوي توحيده فحقق معنى لا إله إلا الله علمًا وعملاً فإنه يخلو قلبه من الشهوات والشبهات) .

ـ قول لا إله إلا الله من القلب ، بمعنى انخلاع القلب وسيره إلى جهة المطلوب التماسًا له ـ فكلما عظم نور هذه الكلمة أحرق من الشهوات والشبهات بحسب قوته وشدته حتى أنه يصل إلى حال لا يصادف شبهة ولا ذنبًا إلا أحرقه نور لا إله إلا الله ، هذا هو حال الصادق في إيمانه فسماء إيمانه حرست بالنجوم من كل سارق لحسناته ، فلا ينال السارق منها إلا على غرة وغفلة ، لا بد منها للبشر فإذا استيقظ وعلم ما سرق منه استنقذه من سارقه، إن فات حصل أضعافه بكسبه ، فهو هكذا أبدًا مع لصوص الإنس والجن .

هكذا تجد أن الموحد ، توحيده ليس توحيد الكلمة ، وإنما توحيد العمل به أن يتعلق القلب بالله ، أن تنفتح في قلبه عين فترُي الإنسان أنه قائم بين يدي الله ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤] أي بعلمه وإحاطته، بقهره وقوته ، أي بجبروته ـ جل جلاله ـ وسلطانه .

هذا الذي وصل التوحيد إلى قلبه ، ربما يصل إلى حال لا يصادف شبهة ولا شهوة ، عندما تسأل عن النساء العرايا في الشوارع قال لك ، أين

هم ؟ فإذا قلت له ألا ترىٰ : قال لك : إني مشغول بالمصحف ، آيات القرآن شغلت عيني ، ورأسي وقلبي ، فلم أر شيئًا ، إنه محروس من الله ، أليس الله هو القائل في الحديث القدسي « **وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِليَّ بالنَّوَافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ ، فإذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ وبَصَره الذي يبصر به** »[1]، فهو يسمع ويبصر بتوفيق من الله ، فالله يحمي بصره من أن يرىٰ معصية، ويحمي سمعه أن يسمع حرامًا ، إنه يسير بنور الله، الله نور بصيرته فلم يعد يرىٰ الحرام .

كما قيل لبعضهم : ألا تنام ، قال : «إن آيات القرآن أَطَرْنَ نومي ، ما أخرج من أعجوبة إلا وقعت في أخرىٰ» فكذلك حين يسير وفي يده مصحفه، أو في قلبه آيات القرآن فهو يتلوها فيطير من رأسه التفكير في معصية الله .

بحسب قوة وشدة نور لا إله إلا الله .

قال ابن القيم في مدارج السالكين :

« اعلم أن أشعة لا إله إلا الله تبدد من ضباب الذنوب وغيومها، بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه ، فلها نور، وتفاوت أهلها في ذلك النور قوة وضعفًا، لا يحصيه إلا الله ، فمن الناس من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس، ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري ، ومنهم من نورها في قلبه كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء،وآخر كالسراج الضعيف، ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة ، بأيمانهم وبين أيديهم على هذا

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) كتاب الرقاق . باب التواضع .

المقدار، بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة علمًا وعملاً ومعرفة وحالاً .

يقول ابن القيم بعد هذا الكلام : (إنه يصل إلىٰ حال لا يصادف شبهة ولا شهوة ولا ذنبًا إلا أحرقه نور لا إله إلا الله، هذا حال الصادق في إيمانه، حرست سماء إيمانه بالنجوم من كل سارق لحسناته ، فلا ينال السارق منها إلا علىٰ غرة، وغفلة لا بد منها للبشر ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ [الأعراف: ٢٠١] فإذا استيقظ وعلم ما سرق منه استنقذه من سارقه ، إن فات حصل أضعافه بكسبه فهو هكذا أبدًا مع لصوص الإنس والجن ، ليس كمن فتح لهم خزائنه وولىٰ الباب ظهره) .

اسمع لكلام النبي ﷺ : حديث حذيفة عن الأمانة ورفعها فقال : «**يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الوَكْتِ** »[(١)] .

يبهت الإسلام في قلبه ، هذا هو ما يحدث أن الأخ يغفل ، يقبض الإيمان فيظل أثره باهتًا في قلبه ، يبقىٰ الإسلام خمول وكسل .

« **ثم ينام النومة فتقبض الأمانة ، فيظل أثرها مثل المَجْلِ كَجَمْرٍ دحرجته على رجلك فنفط ، فتراه منتبراً ، وليس فيه شيء فيصبح النَّاس يتابعون ، فلا يكاد أحدٌ يؤدي الأمانة فيقال : إنَّ في بني فلان رجلاً أمينًا وحتى يقال للرجل ما أعقله، ما أظرفه وما أجلده،وليس في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان**»[(١)] .

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري (٦٤٩٧) كتاب الرقاق . . باب رفع الأمانة ، ومسلم (١٤٣) كتاب الإيمان . باب رفع الأمانة والإيمان . وقال ابن الأثير في النهاية (٥/٢١٨) : ـ الوكتة : الأثر في الشيء كالنقطة من غير لونه والجمع وَكْتٌ .

والمجل : الدّمل في اليد .

ونَفِطَ الشيء : تَوَرَّم وانتفخ . ومثله المُنتبر .

يا رب سلم . . ينام ، يغفل المسلم عن ربه ، عن سنة رسوله ، عن دينه ، عن شرع الله ، عن الالتزام ، تقبض من قلبه ، يبدأ إسلامه في التغير والخفوت بعد أن كان يحرص على الصلاة في المساجد التي تطيل الصلاة ليزيد من استمتاعه بالقرآن ، تراه يتعمد الصلاة في المساجد التي يصلي فيها ذوو الأعذار ، والمرضى وذوو الحاجات ، بعد أن كان يثور حين يرى المنكر ، تراه يفقد الإحساس بكثرة ممارسته للمعاصي ، فيصير ولا غيرة عنده على الدين ، بعد أن كان يبكي طوال النهار إذا فاتته صلاة الفجر في جماعة أو قيام الليل ، يقول : وماذا في ذلك إن الصلاة بعد شروق الشمس أفضل ممن لا يصلي بالمرة .

ثم ينام ثانية ، فجزاء السيئة سيئة مثلها ، فيقبض الإيمان من قلبه فيبقى أثر الإيمان في قلبه مثل أثر المجل ، ثم يوضح لك ما هو معني المجل ، إنه كجمر دحرجته على رجلك فيصير منتبراً (منتفخًا من أثر الجمر) وبداخله هواء يصبح هذا هو شكل إيمانه مجرد فقاعات هواء في قلبه .

فترى الأخ يحتفظ بجميع مظاهر الأخ الملتزم من إعفاء لحية، تقصير للثوب ، حضور مجلس علم ، ولكن القلب فارغ .

إن الذي يدخل المجلس يلقاه الشيطان عند الباب يقول مرحبًا يالك من وجه لا يفلح أبداً ، حين يكون الالتزام منظراً فقط فهذا هو الخذلان .

إذا كان الإيمان مجرد منظر بداخله خراب ، مثله كمثل الخشب المطلي بالذهب ، فالظاهر مزين والباطن خراب ، وهذا نتيجة الجهل والغفلة ، وهذا الذي فتح لهم خزائنه ، وولى الباب ظهره فَسُرِق إيمانه .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (لهذا لما كان يوسف عليه السلام محبًا لله مخلصًا له الدين ، لم يبتل بالعشق قال تعالىٰ : ﴿ **كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾[يوسف : ٢٤] أما امرأة العزيز فكانت مشركة ، هي وقومها فلهذا ابتليت بالعشق، وما يبتلىٰ بالعشق الحرام أحدٌ إلا لنقص توحيده ، وإيمانه ، وإلا فالقلب المنيب لله تعالىٰ يصرف الله عنه العشق) أ هـ .

أعلمت ـ أخي في الله ـ علاج العشق ، العلاج هو التوحيد أن تقول : لا إله إلا الله من قلبك ، وأن تعرف إيمانك .

يقول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي : (متىٰ دخل الإيمان قلبه، وكان مخلصًا لله في جميع أموره ، فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه لقوله تعالىٰ : ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾ [يوسف: ٢٤] علىٰ قراءة من قرأها بكسر اللام ، ومن قرأها بالفتح فإنها من إخلاص الله إياه وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص توحيده لله أخلصه الله، وخَلَّصه من السوء والفحشاء، لولا أن رأىٰ برهان ربه ـ نور إيمانه في قلبه صرفه عن الحرام، فكلما قوىٰ التوحيد نفعك كلما هممت بمعصية) . اهـ.

أحد الإخوة أرسل برسالة يقول : إنه ملتزم ، يحفظ القرآن ، ويصلي ويقوم ولكن يخاف الوقوع في الحرام ، حتىٰ أن المرأة راودته عن نفسه ، فوقع أو كاد ، كذلك قال :

السبب ضعف توحيدك ، ضعف التوحيد في قلبك لو قوي توحيدك لعُصِمْت .

يقول ابن القيم في تفسير نفس الآية : ﴿ **كذلك لنصرف** ... ﴾ فالسوء والعشق والفحشاء والزنا كلها من ثمار ضعف التوحيد ؛ ولهذا كلما كان القلب أضعف توحيداً وأعظم شركًا كان أكثر فاحشة وأعظم تعلقًا بالصور وعشقًا لها) أهـ .

* * *

السبب العاشر

الغرور وحب الظهور أو ضدهما من الاستهانة واللامبالاة

من أسباب وخلفيات الفتنة والنكوص والحور بعد الكور داء عضال ، يفتك بالشباب فتكاً ، يحبط عملهم ، ويمحو ثوابهم ، ويُشْقِي عاقبتهم ، إنه الغرور وحب الظهور ، هذا المرض أن تجد الإنسان في أصله مغروراً متكبراً، معجبًا ، فعندما يلتزم ولم يطهر قلبه ، فإنه يزداد بالتزامه غروراً ، إن الإنسان في بداية الالتزام لا بد وأن يصلح قلبه بادئ ذي بدء ، لأنه إذا التزم ولم يَتَزَك ، لم يُزَكِّ قلبه وطلب العلم ، فإن العلم يزيده صلفًا وغروراً.

قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ العلمِ والهُدَى كَمَثَلِ الغيث الكثير أَصَابَ أَرْضًا**»[1] . فإذا نزل الغيث على الأرض فيها حنظل زاده مرارة، ودليل هذا من القرآن قال تعالىٰ : ﴿**وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

ما هو الذي زادهم : الآية من القرآن تزيد المؤمن إيمانًا ، وتزيد المتكبر كبراً ، والمغرور غروراً ، والمعجب عجبًا ، هو بدأ يلتزم تعلم كلمتين في أصول الفقه ظل يتكبر بهما على العلماء .

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري (٧٩) كتاب العلم . باب فضل من عَلِم وعَلَّم ، ومسلم (٢٢٨٢) كتاب الفضائل . باب بيان مثل ما بعث به النبي من الهدى والعلم .

وسبب الغرور

قد يكون الإخوة أو الدعاة مثلاً من أسباب بث الغرور ، وزيادته في نفس الملتزم .

السبب الأول المدح : مثلاً فإذا كنت تقابل أخاك المسلم ، فتقول له : كيف حالك يا شيخ ، والله إن رؤيتك تزيد الإيمان ، فإن هذا يثمر الغرور .

اسمع لكلام النبي ﷺ لما مدح رجل رجلاً أمامه فقال : « **أهلكتُم أو قطعتم ظهر الرجل** »[1] . وفي رواية « **ويلك قطعت عُنق صاحبك** .. »[2].

لا للمدح ، «**احثُوا فِي وُجُوه المدَّاحِينَ التُّرَابَ** »[1] فسبب الغرور أن يدمن سماع المدح ، وأن يبتلىٰ بأحد المنافقين عندما يراه يقول له : إنك تفيدني أكثر من أبي ، إن وُجد عشرة علىٰ شاكلتك حلت جميع مشاكل الدعوة .. إلخ ، هذا كلام يقصم الظهر ، يمنع الفلاح ، القلوب ضعيفة والفتنة خطافة ، والناس تصدق ، فكذلك يكون الغرور بكثرة المدح .

عندما يلتزم الأخ يقال له : أنت حسن الالتزام ، أنت طيب القلب ، نعم طيب القلب ، نعم الكلمة الطيبة مطلوبة ، ولكن الهوينىٰ ، فقليلاً من المدح مثل الذي يصلح الطعام ، ولكن إذا زاد يفسده فهذا هو السبب الأول لداء الغرور .

---

(١) مُتفق عليه أخرجه البخاري (٢٦٦٣) كتاب الشهادات . باب ما يكره من الإطناب في المدح وليقل ما يعلم . ومسلم (٣٠٠١) كتاب الزهد والرقائق . باب النهي عن المدح .

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢٣٣١٢) . وأصله في صحيح مسلم (٣٠٠٢) كتاب الزهد والرقائق . باب النهي عن المدح .

السبب الثاني : أن يكون الملتزم ذا عين نقادة ، وأذن لقاطة .

مستريب النظرات وعنده هواية اكتشاف العيوب ، فتجد مجموعة من الناس لا يعجبهم عمل ، ولا يرضون عن جهد ، همهم النقد والتجريح والسلب والتقبيح، إنه كذلك دومًا يقول: لا ، لا ، إن الشيخ لغته غير مضبوطة، إنه كثير الغلط في النحو ، يذهب إلىٰ آخر ، لا ، لا يبث آيات وأحاديث ، يذهب إلىٰ ثالث ، إن كل المحاضرة آيات وأحاديث ، فإذا أمسكت أنا المصحف أستفيد أكثر، لا يشرح ولا يوضح ، لا ، لا إن لغته عامية أكثر الوقت ، ونحن من المفروض علينا أن نتحدث بلغة أهل الجنة ، مثل هذا لا يعجبه شيء ، ولا يرضىٰ عن شيء ، عينه نقادة ، هو يريد أن يكون الناس كلهم مثله فقط ، كلهم وراءه ، هذا الإنسان أين هو من السلف الذين كان أحدهم يذهب إلىٰ مجلس العلم فيتصدق بالصدقة ويقول (اللهم استر عيب معلمي عني ، ولا تذهب بركة علمه مني) .

إنه من المحاسن التي تذكر لجماعة التبليغ والدعوة [رغم ما ننكره عليهم في منهجهم لاحتوائه علىٰ بعض البدع] أنه إذا وقف أحدهم ليقول بيانًا فيدعو له الإخوة (اللهم ارزقه الفصاحة ، اللهم ألهمه البيان يا رب) .

أين الإخوة اليوم . . . ؟

صاحب العين النقادة مصيره الفشل، فوالله لقد رأينا من السبعينيات أن من كان دأبهم هكذا لم يبق واحد منهم ولم يرتفع أبدًا . . . سنة الله في خلقه .

قال الإمام النووي في مقدمة المجموع (١/ ٦٦):

من طلب هذا العلم بذل النفس وخدمة العلماء أفلح (والعلم حرب للفتىٰ المتعالي كما السيل حرب للمكان العالي) .

لا ينال هذا العلم إلا بذل النفوس ، وخدمة العلماء ، أما صاحب العين النقادة فهو كما قيل : (إن بعض الناس نفوسهم ذبابية لا تقع إلا علىٰ القاذورات ، وجاء هذا في حديث ضعيف : فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **مثل الذي يجلس يسمع الحكمة ثم لا يحدث عن صاحبه إلا بَشرِّ ما يسمع كمثل رجل أتى راعيًا فقال : يا راعي أجزرني شاة من غنمك . قال : اذهب فخذ بأذن خيرها . فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم** »[1] هذا مثل من يجلس فلا يعرف إلا أسوأ ما سمع ، ولا يسمع إلا أسوأ ما قيل .

وفي الحديث الصحيح « **وَيْلٌ لأقْمَاعِ القَولِ** »[2] يا أيها الإنسان لا تكن كالمنخل يرسل أطيب ما فيه ويمسك بالحثالة .

السبب الثالث : الولوع بالخلاف والفرح بالمخالف ، والبحث عن كل جديد وشاذ ، أصحاب مبدأ خالف تعرف .

لنا صاحبٌ مُولَعٌ بالخلاف   كَثيرُ الخَطَأ قليلُ الصواب
أَشَدُّ لجاجًا من خنفساءَ   وأَزْهَى إذا مَشَى مِنْ غُرَابِ

إلىٰ الله نشكو أمثال هؤلاء ، تراهم في معرفة الخلاف والتخطيط

(1) أخرجه ابن ماجه (٤١٦٢) كتاب الزهد . باب الحكمة ، والإمام أحمد في مسنده (٨٤٢٥)، (٩٠٠٧) (١٠٢٢٨) ، وضعّفه الشيخ الألباني في ضعيف ابن ماجه (٩١٣) ، وقال محقق المسند الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى: إسناده حسن . وأشار إلى تضعيف البوصيري له أيضًا .

(2) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٨٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٦٥٠٥) (٧٠٠١) .وصححه الشيخ الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٩٣) والصحيحة (٤٨٢) .
وأقماع القول : أي الذين يسمعون القول ولا يعملون به .

للتفريق بين الإخوة يلهجون ، وللأخوة يصنفون ويقسمون ، وفي النهاية أين هو تراه ذهب أدراج الرياح ، ولم يعد له وجود ولا إيمان .

على الوجه الآخر السقوط تحت ابتزاز الشيطان يُسَفُّه نفسه ، ويُحَقِّر نفسه ، ويصغر نفسه ، يقول له تعلم يقول : أنا لا أصلح للعلم ، إني بالكاد أصلي ، إذا قلت له : ادع جارك أو زوجتك قال : أنا لا أكلم أحدًا ، هكذا يسفه نفسه ويصغر نفسه ، يركن إلى التباطؤ والكسل والعجز ، يحقر الشيطان نفسه عنده ، ويصور له أنه ليس بكفء للعمل ، ولا للالتزام ، فتضعف إرادته تحت قصف الوساوس فيتأخر حتى يسقط .

قال رسول الله ﷺ: « **لايَزَالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ عن الصف الأول حتَّى يُؤَخِّرهُمُ الله في النار**»[1] .

العلاج للمغرور

أن يعرف شيخًا يذل له وينكسر ، وكان هذا كثيرًا في السلف .

أيضًا من العلاج

أن يقبل الأخ النصيحة ، ويلزم التواضع ويحسن الظن بإخوانه ، ويسيء الظن بنفسه .

أيضًا من العلاج

أن يسأل الله شفاء قلبه ، وأن يبصره بعيوبه ، فيكون شغله بعيوبه شُغْلاً عن عيوب الناس .

أما الآخر . فينبغي أن يعرف أن الفرد قليل بنفسه ، ولكنه كثير بإخوانه ، الذي يعتقد أنه لا يصلح لشيء ينتقل إلى أن يفعل شيئًا للدين ، وحينها يرفعه الله فيكون بهذا الشيء شيئًا .

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٦٧٩) كتاب الصلاة . باب صف النساء وكراهية التأخر عن الصف الأول ، وصححه الشيخ الألباني في صحيح أبي داود (٦٣٠) .

السبب الحادي عشر

أن يبتلى الإنسان بداء المنطق التبريري

تجد هذا الداء مستشريًا هذه الأيام ، وللأسف الشديد أن صاحب المنطق التبريري يلقى باللائمة ابتداء على الدعاة وأهل الدين ، تجده يقول : مرضت فلم يعدني أحد ، غبت فلم يسأل عني أحد ، أين المناهج ؟ أين المتابعة ؟ أين المربون ؟ أين الشيخ ؟ الظروف .. الضغوط .. الفتن .. المشاكل ، لا أحد يدري بي ، لا أحد يشجعني ، لا أحد يسأل عني ... إلخ ، من هذه القائمة الطويلة من الأعذار الواهية والأسباب التافهة .

إخوتاه :

لنتخلص من الحوادث الجزئية في حياتنا ، لنتخلص من المنطق التبريري ، الذي هو إلقاء التبعة على غيرنا في فشلنا ، تعالوا لنتهم أنفسنا ، ولنحمل همومنا بأنفسنا لتعلو هممنا ، لنصدق مع الله ، لنقوي عزيمتنا لا يضرنا من خالفنا .

يقول عبد الله بن مسعود : « إن جمهورَ الجماعةِ الذين فَارَقُوا الجماعةَ ، الجماعةُ ما وَافَقَ الحقَّ وإنْ كُنْتَ وَحَدَكَ » .

تجد أختًا ترتدي الحجاب الشرعي ، فإذا قلت لها : لماذا لا ترتدين النقاب؟ كان ردها ، إنني لن أرتدي النقاب ؛ لأن الأخوات المنقبات يعملن أشياء غير موافقة للدين ، إن هناك نساء متبرجات ولكن قلوبهن أصفى وأنقى . مالك أنت وسلوك الأخريات ، انتقبي أنت ؛ لأنه فرض عليك وكوني مثلاً أعلى لهن ونرى منك السلوك الصحيح للمنتقبات .

إذا قلت لأخ قد حلق لحيته : لماذا لا تعفي لحيتك ؟ كان رده عليك : إن الملتحين لهم تصرفات أسوأ من حليقي اللحىٰ . فلم لا تعفي لحيتك أنت وتكون مثلاً أعلىٰ ؟!!

هذا الملتزم الذي ترك نقول له : لماذا تركت . قال لك : لا أحد يسأل عني إذا حضرت أو غبت .

إن هذا المنطق التبريري هو مصيبة عصرنا ، لأن الإنسان إذا ابتلي بهذا المنطق سيلقي باللائمة علىٰ غيره ، وساعتها لن ينجح ولن يفلح ، إنني أخاطب هذا الأخ ، لا بد من أن نعتب عليه ، إن هذا العتاب لا بد منه فنحن لا نريد أن نسلمك إلىٰ شيطانك .

إنني أقول لك أخي : بأي سنان تطعن القوم بعدما نزعت سنانًا من قناتك ماضيًا أفتخدع نفسك ؟ كيف ترىٰ في عين صاحبك القذىٰ ، ولا ترىٰ الجذعة في عينك ؟ تحاسبنا علىٰ صغائر لا يخلو منها مجتهد ، ولو شئنا أن نذكرك بنقص بعد نقص بدر منك لذكرناك ، لسنا بحاجة لأن نروي سوابق برودك ، وإنما نقول إنما اعتراك لما خالفتنا هذا الدأب الواضح ، هلا تناهيت وقبلت قول المرشد والناصح ، ألا ترىٰ - أخي - ما أنت فيه من الافتتان . .

هلم إلينا .. إلى الهدى ائتنا

ألا ترىٰ ما أنت فيه من الافتتان ، إنقاصًا لعدد الملتزمين ، وتوهية لركن كل داعية وفتًا في عضده ، وشماتة لعدوه .

أخي . . تعال وتدبر أمرك ، إني مذكرك بالله - تعالىٰ - فارجع إليه وخل الهوىٰ ، ثِقْ أن الدنيا بعد الالتزام لا تكاد تعدل جناح بعوضة عند

اللبيب الذي ذاق لذة طاعة الله ، والبذل والعمل له ، وصبرٍ لله ثم ترك الله، أفترىٰ في دنياك النعيم ؟ وتنسىٰ أنه عديم ، أتحسبها الغَنَاء وهي عن قريب الفناء ، أتظنها سلم الارتفاع لأنك تجهل ما فيها من قصص الاتضاع، أفيها ما يوثق له بعد ، لا ـ والله، إنما ـ نحن وإياك ـ كلانا عالمٌ بالترهات ، أنت تعلم رخص ما أقدمت عليه ، وما أنت مقدم عليه إنَّه ترهات ، دنيا فانية إن الذين يحيون في هذه الدنيا لا لهدف إلا إشباع الشهوات والرغبات يحيون كالبهائم السائمة لا يعلمون من أين أتوا وإلىٰ أين المصير؟

كلانا عالم بالترهات أنها ترهات ، ولكن الشيطان اللعين يوهمك الأمر أهون مما تظن، مَنْ غشك فأقعدك في بيتك قد ظهر لك تدليسه ، تب تجد باب ربك مفتوحًا، كل العبادات مدارج لمن أراد المعارج ، استعذ بالله أيها الأخ من الفتن، اطلب نصيحتك من العقلاء ، نق نيتك مما علق بها من شوائب ، اتق الله عند غضبك ، ابعد عن تأويل مستدرج وليسعك التغافر، سر في نصيحة الإخوة والدعاة والمربين ، إذا رأيت غلطًا انصح ولا تترك ، وكن أنت الأحسن ،احرص علىٰ نجاة نفسك ، انظر إلىٰ عيبك ، انظر صواب الدعاة إن نبهك أحد إلىٰ أخطائهم ، فقل : اللهم اغفر لي ولهم ، اهتم بعيوب نفسك وإصلاحها ، امسك عن الجدل والنجوىٰ والغدر ، وصن أذنك من استماع الغمز ، اتعظ بالتاريخ ، اتعظ بسير من قبلك ، اتعظ باستكبار الشرع لتغرب المهاجر ، إن من هاجر ثم ترك الهجرة وعاد الأدراج كبيرة في الشرع .

أخي . . بالغ في الصدق ، لا تحتج بزلات من سبقك ، واعلم أن الله لا يصلح عمل المفسدين ، احذر طبائع آخر الزمان ، خف تنكر الأرض

والمؤمنين للخوالف ، وإلا هجرناك بعد كل ما مضى ، وإلا هجرناك وكنت أنت البادئ ، والبادئ أظلم ، لا تجزعن من سنة أنت سيَّرتَها ، فأول راضٍ بسنة من يُسيِّرها ، نعم ـ أيها الأخ ـ عُد إنني أخشى ـ والله ـ أخشى أن تجرب ما أنت فيه من الخذلان ، جرب واسأل من سبقك بالفتنة والنكوص لا تجد ثم إلا غليظًا أو متهورًا أو مبتدعًا ، إنني أقول قول خبير ، ناصح أمين، أقول لك : والله لست أراك واجدًا عنا عوضا ، والله لن تجد ، اطلب وجرب واستقص واجتهد ، فلست أبدًا واجدًا عنا عوضًا أبدًا .

أخي . . لقد كان يكفيك ما أنت فيه من سير في الطريق السهل المشرق، لكن نفسك ركبت مركبًا من العلم باهظًا ، سقت نفسك لِشِعب أنت عنه في غنى ، إنها كلمة نصح أخيرة أقولها لك .

السهلُ أسـهلُ مسـلكًا	فـدع الطـريـق الوعرا
احفظْ لسانَك تسترحْ	فلقد كفى ما قد جرى
ولقد نصحتُ واجتـهدت	وأنـت بعـد تخيرا

كيف أصف لك شعورك يومها وقد صرت ـ كما صار كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ حين تخلف ، فقال : فإذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أنني لا أرى إلا رجلاً مغموصًا في النفاق .

أخشى ـ والله ـ أن تجد في النهاية نفسك ، وأنت تتلفت حولك فلا تجد حولك إلا رجلاً مغموصًا في النفاق .

تب وعد واتعظ واعمل بنصيحتي ، حينها تتخلص من منطقك التبريري ، و يكون علاجك بإذن الله .

يا مطرودًا عن الباب ، يا مضروبًا بسوط الحجاب ، لو وفيت بوعودنا ما رميناك بصدودنا ، لو كاتبتنا بدموع الأسف لعفونا عن كل ما سلف .

يا من ضاع قلبه اطلبه في مظان إنشاد الضلال ، يا من ضاع قلبه ابحث عنه كالباحث عن الضالة ، اطلبه في مظان إنشاد الضلال . . الضائع إنما ينشد في المجامع فاطلب قلبك في مجالس الذكر .

جئناك نبحث لك عن قلبك، فَتَفقَّده معنا لعلنا نجده معا ، واطلب قلبك في مجالس الذكر ، فإن لم يكن فبين أهل المقابر .

إلى الهدى ائتنا

في هذا الباب نذكر أسبابًا أخر للضلال بعد الهدىٰ والحور بعد الكور ، وكيف نعود إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ بعلاج تلك الأسباب .

* * *

السبب الثاني عشر

التفريط في النوافل والتساهل والوقوع في المكروهات

إن هذا السبب بتعبير أهل الأدب والاصطلاح يسمونه مرض (انتشار قائمة الأولويات النسبية) أو يسمونه مرض (عكس القواعد الشرعية في تفاصيل الأعمال الإيمانية) :

* إن هناك من يعكس القواعد الشرعية في وضعه قائمة الأولويات ليس شرطًا أن تكون عنده مكتوبة ، ولكنها عنده مُقَعَّدة مُؤَصَّلة في نفسه أنه إذا تعارض النوم مع حضور درس العلم ، قَدَّم النومَ ، وإذا تعارض العمل مع مجلس الذكر قَدَّم العمل ، وإذا تعارض وقت طبيبة المرأة مع وقت قراءته للقرآن قَدَّم العلاج ، إذا تعارض وقت مجاملات من أفراح أو زيارات . . . إلخ مع عمل أخروي قَدَّم كل ذلك .

إنها عكس القواعد الشرعية في تفاصيل الأعمال الإيمانية .

دائمًا يبدأ بالمفضول على الفاضل ، وبالمرجوح على الراجح ، وبالأدنى على الأعلى ، يترك الأَوْلى ويتبع الرخص ، فيوشك أن يتزندق ، عنده تنقلب الأسس والموازين وتنعكس المناهج والسبل ، فتحتاج البدهيات إلى أدلة وبراهين ، إنه مرض القلب وداء النفس الخطير .

قال رسول الله ﷺ : «**إنَّ الحلالَ بَيِّن وإنَّ الحرامَ بَيِّن وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في**

الشبهات وقع في الحرام..»[1] .

إن سبب هذا المرض الخطير فساد في القلب ، أدَّىٰ إلىٰ أن تصبح الأعمال الفاضلة عنده في المرتبة الثانية إذا تعارضت مع أعمال مفضولة ، فيقدم المفضولة هوىٰ ، اتباعًا لهوىٰ نفسه ورغباته الشخصية ، ومريحات نفسه الأمارة بالسوء ، لذلك نجده يضيع .

إن هذا الذي يترخص فيه [كمثال لبس الملابس الأفرنكية ، فإذا سألته لماذا لا ترتدي القميص الأبيض اتباعًا لسنة رسول الله ﷺ] قال لك : إنه ليس بحرام ، وقد أفتىٰ الشيخ الفلاني ، لم نقل أنه حرام ولكن . . أليس خلاف الأولىٰ ، إنك قد تلبسه مضطرًا في العمل أو في الجامعة أو خلافه ، فما الذي يدفعك إلىٰ أن ترتديه وأنت في المسجد ، وأنت واقف بين يدي الله سبحانه وتعالىٰ ، أنا لا أقول إنه حرام [تنزلاً مع الخصم] ، ولكنه خلاف الأولىٰ .

إن المسألة لا تحتاج إلىٰ أدلة ، نفس الشيء تجده عند النساء ، فتجدهن يرتدين الألوان الزاهية في النقاب، فإذا أمرتها بالسواد ، كان الرد هل السواد فرض ، نعم إنه ليس بفرض ، ولكن أليس فرضًا في زي المرأة ألا يكون مثيرًا للفتن ، أليس شرطًا ألا يكون زيها زينة في نفسه ، إن القضية عندهن تحتاج أيضًا إلىٰ أدلة .

كذلك في مسألة صلاة الجماعة وفرضيتها . . في مسألة الصف الأول

(١) متفق عليه أخرجه البخاري (٥٢) كتاب الإيمان . باب فضل من استبرأ لدينه ، ومسلم (١٥٩٩) كتاب المساقات . باب أخذ الحلال وترك الشبهات . ـ واللفظ له ـ

وفضله . . في مسألة الوقوف خلف الإمام وأهميته . . في مسألة حفظ القرآن . . إلخ .

إذا وجهته إلىٰ ذلك ، سألك هل حفظ القرآن فرض ؟ ليس بفرض وإنما الفرض أن تحفظ ما تصلح به صلاتك ، المسألة عنده أو عندها كون الأمر فرضًا أو ليس بفرض ، فإذا لم يكن فرضًا فهو ليس مهمًا علىٰ الإطلاق، وهنا نطرح سؤالاً . . أليس الانشغال بتلاوة القرآن وحفظه أولىٰ من الانشغال بقراءة الجرائد وتتبع المجلات ، أليس الأمر كذلك . . ؟ فيرد عليك قائلا : ألا تريدون منا أن نعلم أخبار العالم ، إنها قضية عكس القواعد الشرعية أن يعكسها من أجل هواه . . من أجل رغباته الذاتية ، وللأسف الشديد هنا يوشك أن يضيع . قال ﷺ : «**اجْعَلُوا بَيْنَكُم وبَيْنَ الحَرَامِ سُتْرَةً مِنَ الحلالِ**»[١] .

يقول ابن القيم : سألت شيخ الإسلام ابن تيمية عن بعض المباح فقال : هذا يتنافىٰ مع أصحاب الهمم العالية . أين همتك ؟

إن القضية قضية همم عالية، قضية الهمة التي تسفل بالإنسان ، فتجعله يطلب منك الأدلة .

***

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢٥٥١) ، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٨٩٦) .

العلاج

أولاً ـ الأخذ بالعزائم في بداية الأمر والحذر من التفريط :

إنه يجب عليك أن تبدأ بداية قوية وقد ذكرنا ذلك أكثر من مرة ، فإن النفس إن عودتها التساهل تساهلت فوصلت إلىٰ المعاصي والذنوب .

ثانيًا ـ حب الله والاستعانة به وصدق اللجأ إليه .

نعم . . إننا نحتاج إلىٰ أن نحب الله حقيقة فإذا أحببنا الله حقيقة فعلنا كل ما يرضيه بصدق واتبعنا رسوله ﷺ .

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١] .

ثالثًا ـ مجاهدة النفس ومصابرتها وتوبيخها : ـ

إن الناظر المتفحص في الأمور يجد أن غالبية غير الملتزمين يحبون الإسلام ، يحبون الله ورسوله ولكن طغي رَيْنُ المعاصي علىٰ قلوبهم فأنساهم ذكر الله .

هذا وإن كان علىٰ الجانب الآخر ، هناك أناس قد رسمت لأهل التدين صورة في أذهانهم علىٰ أنهم أعداء فيعاملونك معاملة العدو مباشرة ، ولكن دعونا من هؤلاء . . دعونا في الجانب الخَيِّر من الناس أحدهم يقول : وهو سائق تاكسي : أنا أخرج في الصباح وقد عزمت عزمًا أكيدًا علىٰ أن أصلي الظهر في جماعة ، ثم لا أصلي ، فقلت له : إنك تريد إذا قررت أن تصلي أن تجد نفسك منشرحة للصلاة . . لا . . إن الأمر يحتاج إلىٰ مجاهدة ،

إنك حين تسمع الأذان ، وتريد أن تقف للصلاة ستفاجأ باثنين أو ثلاثة يريدون الركوب معك ومن بينهم أخ عربي ، إنها فتن، ولذلك ستحتاج إلىٰ مجاهدة ، تحتاج لأن تترك كل ذلك وتوقف سيارتك لتدخل إلىٰ المسجد للصلاة ، تدخل مصممًا وقاهرًا لنفسك .

فقال لي : طبعًا ويرزقني الله خيرًا مما فاتني ، قلت : لا يجب أن تشترط علىٰ الله ، فهو إذا خرج ولم يرزقه الله خيرًا مما فاته فقد يفتن ، فينبغي ألا نربط قلوب الناس بالاشتراط علىٰ الله ، علىٰ العكس من ذلك فإنه قد يبتلي قال ربنا : ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ** ۝٢ **وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

قلت له : يمكن أن تسير بالسيارة ساعة فلا يطلب منك أحد أن توصله، فلا تيئس ، وإياك أن تكون ممن يعبد الله علىٰ حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب علىٰ وجهه ، إن الأمر يحتاج إلىٰ ترويض النفس الأمارة بالسوء .

أخيرًا : صحبة الصالحين والتأسي بأفعالهم .

***

السبب الثالث عشر

كثرة الخلطة بالعصاة والتعرض للفتن

إن الذي يكثر الاختلاط بالعصاة وقد يكون مضطراً لذلك أحيانًا في العمل ، في المكتب ، أو في الكلية ، في المدرسة ، أو في البيئة ، في البيت، كثرة الخلطة بالعصاة خطر . . إيمانك في خطر ، فحين تجلس في مكتب فيه ثلاثة موظفين ، وأربع موظفات ، أعوذ بالله، هذا يتباهى بمعصية ارتكبها ، والآخر يترنم بألحان أغنية سمعها ، وثالث يعجب بكلمات فيلم ، وحركات راقصة ، وممثلة ، ورابع يدخن ، وخامس يبسط مجلة ماجنة يقلب في صفحاتها ، وسادس لسانه منطلق بالسب واللعن والشتائم ، وهكذا ، أنَّى تجد قلبك في هذا الجو المريض ، فضلاً عن القيل والقال ، والغِيْبة والنميمة ، وأخبار المباريات ، والمسلسلات ، وأسماء الفنانات واللاعبات ، هذا مما لا يُحصَى كثرة ، إن بعض الأوساط لا تُذَكِّر إلا بالحرام، تجلس فلا تسمع إلا الفسق والمجون ، بل والكفر المحض ، وأحسن أحوال تلك الأوساط أنها تذكر بالدنيا ، هذا هو الحال في الكثير من مجالس الناس ، ومكاتبهم اليوم فأحاديث التجارة مثلاً ، والوظيفة والمال ، والاستثمارات ومشكلات العمل ، والعلاوات، والترقيات ، والانتدابات، والانتخابات ، كل هذا يمثل الصدارة في اهتمامات كثير من الناس وأحاديثهم ، هذا في العمل .

أما البيوت فحدّث ولا حرج ، حيث الطامات الكبرى والأمور المنكرات مما يندى له جبين المسلم ، وينصدع له قلبه فالأغاني الماجنة ،

الأفلام الساقطة، والاختلاط المحرم ، وغير ذلك مما تمتلىء به بيوت المسلمين . . مثل هذه البيئات تقتل القلب ، فتصبح القلوب بلا شك قاسية .

إن أماكن المعصية ومواطنها بلاء وأيما بلاء ، فكما ذكرت في أماكن العمل ، فبعض المكاتب تدخلها وسائل المعصية الخارجية ، فإذا موظف يصحب معه راديو ، وبعض المكاتب الأخرىٰ يوجد بها جهاز تلفاز للأسف الشديد ، فإذا أعطيته شريط قرآن ، قال لك : هذا ممنوع في العمل، فما المسموح إذن ؟ أهي أماكن مخصصة لمعصية الله - جل وعلا -، إنها مصيبة !! كارثة بكل المقاييس، كيف يجلس الإنسان في هذه الأوساط ؟! ماذا يصنع إذا كان هذا في العمل ، فإذا خرج إلىٰ الشارع فأضل سبيلاً ، ما بين المتبرجات ، إلىٰ الإعلانات التي صارت اليوم شيئًا شنيعًا ، ثَمَّةَ بلاء كبير في شوارع المسلمين اليوم ، ثم إذا وصل إلىٰ البيت ، إن لم يكن له بيت قد أعطاه الله إياه ليقيمه علىٰ الشرع فهنا كما قلت جنة المسلم بيته .

كثيرًا ما أقول للشباب سارع ، استقل بحياتك ، خذ شقة لو حجرة وصالة .

انظر إلىٰ يوسف لما كان في الفتنة قال : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف: ٣٣] هكذا أيها الإخوة إنك إذا عشت في بيت فيه أخ عاصٍ ، وأخت متبرجة ، وأب مدخن قاسٍ ،وأم ضُلِّلت بالفتن فإنك ساعتها ستعانىٰ المرار وليس فقط الأَمَرَّيْنْ .

كيف الحل وكيف النجاة ؟

أولاً ـ خذ بحظك من العزلة وادفن نفسك في أرض الخمول :

هذه قضية ذكرتها قديمًا في بداية بناء كل منا لذاته ، فلا بد له من مناخ

هادئ في أجوائه ، فلقد وصىٰ الكثير من علماء التربية بالبعد عن الضوضاء في بداية العلاج والبناء .

قيل : (ادفن نفسك في أرض الخمول ، فإنَّ ما نَبَتَ مما لم يُدفن لا يتم نتاجه) فَشُبِّهت بداية العبد كالبذرة التي تكون في بداية تكوينها تحتاج إلىٰ أن تدفن في باطن الأرض بعيدًا عن أشعة الشمس فتأخذ دورتها وتنمو بطيئًا فإذا أذن الله لها بالظهور ارتفعت علىٰ سطح الأرض بعد فترة حضانة كافية ، اكتسبت فيها القدرة علىٰ الظهور أمام الضوء ، واستطاعت الوقوف والصمود أمام الرياح ، أما إذا تركنا البذرة علىٰ سطح الأرض ولم ندفنها في باطنها ، فلم يكن لها نتاج وإن كان فسيكون ضعيفًا يسقط مع أول عاصفة هوجاء وإن طالت فلن تأتي بالثمار المرجوة لتعرضها لمناخ لم تؤهل له بعد .

ادفن نفسك في أرض الخمول ، إننا نريد في بداية التزام كل منا ، ومن منطلق علاج (إلىٰ الهدىٰ ائتنا) أن يحاول كل منا أن يوجد تربة إيمانية يدفن نفسه فيها أطول فترة ممكنة ، هذا علاج الغرور والعجب ، وحب الظهور ، وهذا علاج الفتن والاختلاط المحرم ، وهذا علاج التعرض للفتن .

أن تدفن نفسك ؟ كيف ؟ إن لم يكن لك بيت مستقل تستطيع أن تقوم فيه حياتك فليكن لك مسجد ، إذا كنت تعلم - أخي وحبيبي في الله - أنك تعود من عملك أو كليتك أو مصنعك إلىٰ بيت مليء بالمنكرات : تلفاز ، مذياع ، أغانٍ ، وموسيقىٰ ، فما الذي يجعلك تسارع إلىٰ هذا البيت ، لما لا تسارع إلىٰ بيت من بيوت الله علمت دوام فتحه فتقيم فيه الساعات الطوال ،

تقول : وماذا عن الأكل ؟ أقول : غذاء الروح أولىٰ ، اكتف بوجبة خفيفة من أي نوع حتىٰ تصل في آخر الوقت إلىٰ منزلك .

يا بشراك إن وجدت في المسجد مكتبة بعد أن تقرأ وردك من القرآن ، تتناول كتابًا تطالعه ، تجد حلقة قرآن فيها أحد الإخوة تنصحه وينصحك ، تساره وتحبه ، وخلاف ذلك من الخير الذي تجده في بيت ربك .

كان أحدهم إذا آنس من قلبه قسوة دخل المسجد وجلس فيه وقال : سيدي إليك جئت .

فماذا إذا ذهبت إلىٰ المسجد فوجدته مغلقًا ، أترجع وتقول هذا خير لي؟ لا إن الأفضل أن تجلس علىٰ الباب وتقول : يا رب إنني جالس ببابك ، أنتظر أن تأخذ بيدي إليك ، أَظْهِر الذل يرفعك الله ، ويرفع عنك البلاء والفتن .

ادفن نفسك في أرض الخمول ، لأن البذرة بذرة الإيمان التي نزرعها في قلبك هذه الأيام إذا ظلت علىٰ سطح القلب فسدت ، وإذا دفنت أنبتت .

لقد كان رسول الله ﷺ يختلي بنفسه قبل النبوة في غار حراء، وبعد النبوة كان يعتكف الأيام العشرة من رمضان ، وفي العام الذي توفي اعتكف عشرين يومًا « ليس المقصد اعتزال الناس ، بل المقصد هو إتاحة أكبر قدر من الهدوء لتكوين الذات ، المطلوب من العبد في هذا الوقت الأخذ والتكوين والتنمية والتربية ، فإن فاتته هذه المرحلة في البداية دون أن يأخذ منها ما يُكّون ذاته كان نتاجه سيئًا ، من أخطر الأشياء علىٰ العبد أن يتعرض للفتن ،

إننا حين نعرض أنفسنا للفتن لا نأمن قال رسول الله ﷺ : **أن السعيد لمن جُنِّب الفتن»** .

قال ابن مسعود : (إن الحي لا تُؤمن عليه الفتنة) .

ثانيًا ـ عدم فتح جبهات معارضة وحرب بدوام الجدال والمناظرة :

وقد ذكرت هذا قبلاً في كتاب « كيف أتوب » إن الإنسان في بداية الالتزام لا يجب عليه أن يفتح جبهات حربية في البيت ، يعادي أباه وأمه ، يعادي أخاه وأخته ، ثم في العمل يعادي المدير والزملاء ، وفي المنزل يعادئ الجيران ، وفي المسجد الذي يجاور منزله يعادي المصلين ويتهمهم بالبدع ، فهناك يصيبك شتات وعذاب ، لا . . بل يجب أن تمر المرحلة الأولىٰ بهدوء تام ، وبدون معارك حتىٰ لا تنكص علىٰ عقبيك ، إن كثرة المشاحنات وكثرة الفتن والمعارك تجعل الإنسان يفتر سريعًا ، وينكص أسرع مما بدأ ، فالمقصود، حاول بقدر الإمكان أن تتجنب هذه المعارك ابحث عن مسجد تجد فيه قلبك ، ولا تتعارك فيه علىٰ أي شيء ، إنني لا أطالبك بعدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا . . إنما في الفترة الأولىٰ اصطبر ، ثم إذا قمت علىٰ قدميك، أمكنك أن تفعل ـ إن شاء الله ـ عز وجل ـ .

إنني أنصحك ألا ترىٰ منكرًا . تباعد عن أماكن المنكر ، ولا تحضر في الأوقات التي يغلب علىٰ ظنك فعل المنكر فيها .

ثم مع قولي لك ابتعد عن المعارك، لا بد من إنكار المنكر . في عصرنا بعض الناس يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر لا بد من إنكار المنكر .

لقول النبي ﷺ : **«فَمَنَ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِن ، ومَنَ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ**

فَهُو مُؤْمِنٌ ، وَمَنَ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُو مُؤْمِنٌ ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[1] .

إياك أن ترىٰ المنكر ولا تنكره ، لا بد أن تنكر المنكر ، وكن حريصًا علىٰ ذلك إن استطعت في حدود الشرع ، ومراعاة المصالح والمفاسد ، إن أمكنك فبيدك، وإلا فبلسانك . . وإلا فأضعف الإيمان أن تنكر بقلبك . . إن عدم الرضا عن الأشياء والحزن والتألم لا بد منه .

وسنذكر ـ بإذن الله ـ أن المواظبة علىٰ ترك أمر من أوامر الله تسبب النكوص .

* * *

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢٥٥١) ، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٨٩٦) .

السبب الرابع عشر
الإصرار (ولو على صغيرة)
والترك (ولو حتى لنافلة)

تجد موظفًا في شركة يستقل الحافلة الخاصة بالعمل قبل موعد أذان العصر بخمس دقائق فتضيع عليه صلاة العصر في كل يوم ، إن المواظبة على هذا يوميًا تضيعه .

من تعود النوم في كل يوم من العصر للمغرب فتضيع أذكار المساء ، المواظبة على هذا تُضَيِّعه . من يواظب على تضييع صلاة الفجر يضيع .

من يديم النظر إلى مدرسته في المدرسة ولا يغض بصره، المواظبة تُضَيِّعه .

يوجد منكر يراه ولا ينكره ، يعتاد عليه فيضيع .

لذا نقول إنه عليك (بقدر الإمكان) أن تحرص على ألا تواظب على معصية ، ولا تواظب على التفريط في طاعة ، نحن نقول : افعل الطاعات واترك المنكرات ، وإذا وقعت فبادر بالتوبة ولا تسوف وحاول جهدك ألا ترجع إلى الذنب مرة أخرى ، إذا انتبهت من زلتك فاترك الوقوع في ذنب معين متكرر والمواظبة عليه ، فإن المواظبة تكون سببًا لضياع الإنسان وفتوره (إن لم تزل المنكر فزل عنه . قال الله : ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٠] .

ومن المعلوم أنَّه لا كبيرة مع استغفار ، ولا صغيرة مع إصرار .

قال ابن عباس : كل ذنب أصَرَّ عليه العبد كبير ، وليس بكبير ما تاب منه العبد .

خَلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقي
واصنع كماشٍ فوق أرضِ الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إنَّ الجبال من الحصى

وعليك أن تحتقر شيئًا من الطاعات فتتركه .

قال ﷺ : « **لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**»[١] .

وقال ﷺ : « **ركتعان خفيفتان بما تحقرون وتنفلون يزيدهما هذا في عمله أحبُّ إليه من بقية دنياكم** »[٢] .

وقد قيل : ثلاث مُخبأة في ثلاث ، الرضا في الطاعة فلا تحقرنَّ شيئًا من الطاعة ، والسخط في المعصية فلا تحقرن شيئًا من المعاصي ، وأولياء الله في خلقه فلا تحقرن أحدًا من خلقه .

* * *

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٦) كتاب البر والصلة والآداب ، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء.

(٢) رواه ابن صاعد في زوائد الزهد (١/١٥٩) وقال : حديث غريب حسن .

والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٣٥١٨) ، والصحيحة (١٣٨٨) .

السبب الخامس عشر

عدم وضوح الغاية

إن وضوح الغاية والهدف ضمان لاستقامة الطريق والثبات عليه ، لأن عدم وضوح الغاية يجعل الإنسان يستطيل الطريق ، فالذي لا يعرف لماذا التزم يتخبط ، يتلون ثم يعود أدراجه . كلما كان الهدف واضحًا ثابتًا بينًا ، كانت الأقدام ثابتة والسعي حثيثًا ، فالمسلم الذي التزم في مجتمع ما ، والأهداف غير واضحة عنده ، فإنه سيتحرك متخبطًا ، أما إذا اتضحت الأهداف . . ماذا تريد من التزامك ؟ فإن الخطوات ستكون مرسومة والمراحل مقدرة ، لا يشغله حدث ولا يغير مسيرته سبب ، ولا يعتريه فتور ، ومن ثم لا يحصل له اضطراب ، ولا يدخل في خلاف وصراع بغير الحق ، ولكن إن لم تكن هذه معروفة فكل فرد سيضع لنفسه الأهداف التي يراها بحسب توجهاته ، وميوله ثم يسير فتختلط عليه الدروب ، فيشعر بالملل ثم ينسحب ويرجع خاسرًا خائبًا ، يرجع خاسئًا وهو حسير .

أيها الإخوة . . إننا بحاجة إلى وضوح الهدف لنستطيع التخلص من الدروب الجانبية ، إذا كان الهدف واضحًا فسيصير الطريق واضحًا سنتخلى عن الدروب ؛ لأن أمامنا نقطة انطلاق ونقطة بلوغ ووصول ، نقطة هدف ، ننطلق من المنطلق إلى الهدف مباشرة .

أيها الإخوة : ما العلاج لعدم وجود الغاية ؟

١ ـ تحديد الهدف ، وتحديد الوسائل المعينة على تحقيقه .

٢ ـ عدم استعجال النتائج ، وعدم استعجال الثمرة الفورية .

٣ـ تعلق القلب بالآخرة .

إن رسول الله ﷺ لما بايع الأنصار قالوا : ما لنا إن فعلنا ذلك ؟

قال الجنة[١] ، لم يعد بشيء قبل الجنة ، فلذلك ما استطالوا الطريق ، بل لما وقفوا في الطريق هنيهة ، وقالوا : يعطيهم وسيوفنا تقطر من دمائهم ، قال : أوَلا ترضون أن يرجع الناس بالغنائم إلىٰ بيوتهم ، وترجعون برسول الله ﷺ[٢] : قالوا : رضينا برسول الله قَسمًا . فينبغي أن تنتبه لهذا الأمر ، وألا تستعجل النتائج ، واعلم أن غايتك الوصول إلىٰ الجنة .

أيها الإخوة : خذوا مني هذا العلاج

إن أول ما نطالبكم به الإيمان الحقيقي ، والاعتقاد الراسخ بهذه الصفقة المباركة .

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١] .

إن أول ما نطالبكم به إخوتاه: أن تأخذوا الدين جملة لا بالتقسيط ، ولا بالترقيع **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴿٢٠٨﴾﴾** [البقرة: ٢٠٨] .

---

(١) ففي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت أنَّه قال : « إنِّي لمن النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ ، وقال : بايعناه على أن لا نشرك بالله شيئًا ولا نزني ولا نسرق ولا نقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق ولا ننتهب ولا نعصي ، فالجنة إن فعلنا ذلك . . » .

أخرجه البخاري (١٨) كتاب الإيمان . باب علامة الإيمان حب الأنصار ، ومسلم (١٧٠٩) كتاب الحدود . باب الحدود كفارات لأهلها . - واللفظ له - .

(٢) متفق عليه .

أخرجه البخاري (٣٧٧٨) كتاب المناقب . باب مناقب الأنصار . - واللفظ له - ومسلم (١٠٥٩) كتاب الزكاة . باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام .

ثانيًا : نطالبكم أيضًا أن تصطبغوا بالإسلام، وأن تصطبغ شئون حياتكم، (فكرية كانت أو علمية بهذه الصبغة) ، قال تعالىٰ : ﴿**صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ** ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة: ١٣٨].

فينبغي - إذا كنت مسلمًا حقًا - أن تصطبغ حياتك جملة وتفصيلاً بالإسلام ، أسلمة الحياة ، فكل فعل من أفعالك ينبض باسم الإسلام .

كل قول من أقوالك ينبض باسم الإسلام لا بد من وضع هذه العلامة .

ثالثًا : أن تجعلوا سلوككم في الحياة سلوككم العام هو الدليل على الإخلاص والتجرد ، ليس الإخلاص والتجرد كلامًا ، وإنما أفعال تدل على هؤلاء الناس المسلمين الملتزمين ، يعيشون للدين لا للهوىٰ ولا للدنيا .

رابعًا : أن تبذلوا سعيكم لتزكية حياتكم وتطهيرها من كل شيء يخالف هذه الصفة .

أيها الإخوة . . إن من أخذ هذه الأربعة التي ذكرتها .

* الإيمان الحقيقي ، والاعتقاد الراسخ ، وأن ندخل في الدين كافة .

* أن تصبغ جملة شئونك ومفردات حياتك بصبغة الإسلام .

* أن يكون سلوكك العام في الحياة هو دليل على الاستقامة والتجرد والإخلاص .

* أن تبذل سعيك بصدق لتزكية حياتك .

هنا تقوىٰ الأرواح وتصقل النفوس ، وتهذب الأخلاق ، وتزكو السيرة .

إن حقيقة هذه البيعة أو الصفقة كما سماها الله كرمًا منه وفضلاً

وسماحة . إن الله ـ سبحانه ـ قد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم فلم يعد لهم منها شيءٌ لم يعد لهم أن يستبقوا من أنفسهم بقية ولا من أموالهم ، ما ينتفعون به لأنفسهم فكل نفوسهم وكل أموالهم . لله وفي سبيل الله .

لم يعد لهم خيار في أن ينزعوا أو يمسكوا ، كلا إنها صفقة مشتراة لشاريها أن يتصرف فيها كما يشاء وفق ما يفرض ، ووفق ما يحدد ليس للبائع فيها شيء سوىٰ أن يمضي في الطريق المرسوم ، أن يمضي في طريق الإسلام والالتزام ، لا يتلفت ولا يتخير ، لا يناقش ولا يجادل ، لا يراوغ ، ليس له إلا الطاعة والاستسلام والعمل ، والثمن هو الجنة .

قال تعالىٰ : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا** ﴾ [الأحزاب: ٣٦] .

قال ابن عطية : (ما من مؤمن إلا وفي عنقه بيعة ، وفّىٰ بها أو مات عليها) .

بيعة : أنك بعت لله ، ماذا بعت ؟ نفسك ، ومالك فلا بد أن توفي .

ومن وفَّىٰ وفِّي له ومن طفف فويل للمطففين .

* * *

السبب السادس عشر

الضغوط الخارجية

وضغط المحن والفتن والابتلاءات

ضغط الزوجة والأولاد ، ضغط الأب والأم والأقربين ، ضغط البيئة والعرف والمجتمع ، ضغط التقاليد والجيران والأصحاب ، ضغط العمل وكسب الرزق ، الزملاء والمديرين، ضغط الاتجاهات الأخرىٰ والدعوات المخالفة ، ضغط الوجاهة ، هذه كلها ضغوط تضغط علىٰ المسلم لكي يرجع ، وكأني بحديث رسول الله ﷺ « **إنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لابْنِ آدَمَ بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال : تُسْلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك فعصاه فأسلم ، ثمَّ قعد له بطريق الهجرة فقال : تهاجر وتدع أرضك وسماءك ، وإنَّما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطِّوَل فعَصاه فهاجر ، ثمَّ قعد له بطريق الجهاد فقال : تجاهدُ فهو جهد النَّفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويُقَسَّمُ المال فعصاه فجاهد...** »[1] .

كأني بقول الله حين طرد الشيطان من الجنة ﴿ **ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)** ﴾ [الأعراف: ١٧] إن هذه الضغوط شرط في صحة الالتزام ، لا بد أن تعلم ذلك يقينًا ، أنه لا بد أن تقع هذه الفتن والمحن وهذه الضغوط ، ليس منها نجاة إلا الاعتصام والارتباط بالآخرة .

---

(١) أخرجه النسائي (٣١٣٤) كتاب الجهاد . باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد . والإمام أحمد في مسنده (١٥٥٢٨) ، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (١٦٥٢).

ولابد من فهم عميق بخطط شياطين الإنس والجن في الإغواء ليمكنك الاعتصام بالله والاستمساك بدينه للنجاة من تدابيرهم. تأمل معي هذه القصة العجيبة وكن كعمر رضي الله عنه ؟ حاد الفهم ، قوي القلب .

(قال ابن إسحاق : ثم خرج عمر بن الخطاب ، وعياش بن أبي ربيعة حتىٰ قدما المدينة . فحدثني نافع عن عبد الله بن عمر عن أبيه . قال : أتعدنا لما أردت الهجرة إلىٰ المدينة أنا وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص التناضب[1] من إضاة بني غفار فوق سرف، وقلنا أينا لم يصبح عندها فقد حبس فليمض صاحباه ، قال فأصبحت أنا وعياش عند التناضب وحبس هشام وفتن فافتتن ، فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء ، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلىٰ عياش ـ وكان ابن عمهما وأخاهما لامهما ـ حتىٰ قدما المدينة ورسول الله ﷺ بمكة ، فكلماه وقالا له إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتىٰ تراك ، ولا تستظل من شمس حتىٰ تراك ، فرق لها فقلت له إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو قد آذىٰ أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت . قال فقال : أبر قسم أمي ولي هنالك مالي ولا تذهب معهما . قال فأبىٰ علىٰ إلا أن يخرج معهما ، فلما أبىٰ إلا ذلك قلت أما إذا فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول فالزم ظهرها ، فإن رابك من أمر القوم ريب فانج عليها . فخرج عليها معهما حتىٰ إذا كانوا ببعض الطريق قال له

(١) أخرجه النسائي (٣١٣٤) كتاب الجهاد . باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد . والإمام أحمد في مسنده (١٥٥٢٨) ، وصححه الشيخ الألباني في صحيح النسائي.

أبو جهل : يا أخي والله لقد استغلظت بعيري هذا أفلا تعقبني على ناقتك هذه قال بلى . فأناخ وأناخا ليتحول عليها ، فلما استووا بالأرض عدواً عليه فأوثقاه رباطًا ، ثم دخلا به مكة وفتناه فافتتن) .

وفتناه فافتتن !! سبحان الملك القدوس هكذا الأمر وما يقال لك إلاما قد قيل للمؤمنين المستضعفين من قبلك فالله المستعان .

إن الوقوع تحت ضغط الأب والأم والزوج والزوجة والأولاد والجيران وأهل الزوجة والمدير في العمل ، والزميل ، والحبيب القديم ، هذه الضغوط كلها سبب خطير للنكوص والردة ، قلت : إنه لا بد للملتزم في بداية الأمر من قضايا لا تقبل المناقشة ، مجموعة من المسلَّمات بمعنى : لا تقبل أي كلام من أي شخص في مسألة إعفاء اللحية ، إنها ليست محلاً للتفاوض من أي شخص كان، كذلك مسألة النقاب لزوجتك، هذه أوامر الله تسري على جميع الرقاب شاء الآخرون أم أبوا ، فلا يمكن أن نقبل مناقشة أو مفاوضة ، ولا بد أن توضح لهم هذا فتقول : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾

[الأحزاب: ٣٦] .

﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء: ٦٥] .

انظر عندما أسلم سعد بن أبي وقاص جاءت أمه فقالت : لن آكل حتى ترجع عن دين محمد ، فأموت فَتُعَيِّرك العربُ بي ، يومين ثم ثلاثة أيام وهم يضعون في فمها خشبة لكي تشرب ، ملت وتعبت فقال لها :

اسمعي يا أماه ، والله لو أن لك مائة نفس ، فخرجت كلها نفسًا نفسًا ما تركت دين محمد طرفة عين .

لذلك كثيراً ما يقول الإخوة ، أبي يحلف بالطلاق لأحلق لحيتي ، فأقول له ، قل لوالدك إن هذه المرأة زوجتك قبل أن تكون أمي ، وهي لا علاقة لها بلحيتي .

لحيتي لا دخل لها في موضوع الطلاق ، ولا أسمح بذلك ، الشاهد أن هذه المواقف القوية الثابتة تجعل الانطلاق قويًا والثبات طويلاً ، لا نقول : هذا مع سوء أدب بل نقول كما قال الله : ﴿ **فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا** ﴾ [لقمان: ١٥] .

أقول هذا وأُقبّل قدمه ، أقبل حذاءه ، لا بأس ، لكن في أمور الدين . . فلا تنازلات .

إن هذه الضغوط والمحن ، هذه الفتن ينبغي أن يكون فيها الإنسان قويًا صلدًا ، أن يتعالىٰ عليها وإلا أطاحت به أرضًا فلن تقوم له قائمة .

تأمل قصة مصعب بن عمير والجميع يعرفها ، شاهد الموضوعين موضوع الصراع بين بر الوالدين وطاعة الله ـ جل وعلا ـ بالإضافة إلىٰ فتنة المال .

قصة مصعب بن عمير نبراس يستضيء به الشباب ، إنها رائعة من الروائع ، بطولة وتضحية ، اجتازها مصعب بلا مشاكل ، اجتازها بامتياز ، وأصبحت قصة مصعب بن عمير مثلاً للأجيال التالية .

أعود إلىٰ سير هؤلاء الأفذاذ والأبطال أصحاب محمد ﷺ : وأقف متعجبًا مع بطولة وتضحية وصبر أبي جندل - رضي الله عنه - تعرض لابتلاء صعب ، بل صعب جدًا ، عذبه والده وآذاه مستغلاً زعامته لقريش أذاقه من التنكيل والتعذيب ما لا يطيقه البشر ، ومع ذلك لم ينجح في صد ابنه عن الإسلام .

وكيف ينجح أي أحد في أن يخرج إيمانًا قد توغل في باطن القلب ، ووصل إلىٰ مستقر الفؤاد ، لم ينجح ، كان الإيمان قد وقر في قلوبهم وأحسوا بلذته ، نعم ، ثم تعرض أبو جندل لفتنة أخرىٰ ، وانتبه - أخي وحبيبي في الله - لهذه القصة العجيبة ؛ لأنها من أعجب ما سمعت قط .

قال ابن هشام في السيرة : جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو ، وهو يرسف في الحديد ، وقد انفلت إلىٰ رسول الله ﷺ وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ قد خرجوا وهم لا يشكون في الفتح ، فلما رأوا ما رأوا في صلح الحديبية من الصلح والرجوع دخل علىٰ الناس في ذلك أمر عظيم حتىٰ كادوا أن يهلكوا . أ . هـ .

كلنا نعرف قصة صلح الحديبية وشروطه التي كان يظنها الظان إجحافًا بالإسلام وأهله ، فإذا بها فتحًا مبينًا ، وكلنا يذكر ما قاله عمر عندها عندما قال : ألسنا علىٰ الحق وهم علىٰ الباطل ؟ قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : بلىٰ، قال : فلم نُعطي بالدنية في ديننا [١] . . ؟ كان الكل يجهل الحكمة الإلهية في هذا الصلح ، وهو ما تبين فيما بعد ، ولكنهم كانوا مضطرين لطاعة رسول الله ﷺ الذي قال : إنِّي رسول الله ولن يضيعني الله أبدًا[٢] . . سبحان الله يا رسول الله ، إنك ترىٰ ما لا نرىٰ . . هكذا آمنوا

(١) أخرجه البخاري مطولاً (٢٧٣٤) كتاب الشروط . باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب .

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري (٣١٨٢) كتاب الجزية . باب إثم من عاهد ثمَّ غدر .

وصدقوا ، ولكن رَكِبَهم هَمٌّ عظيم لعدم علمهم بالعواقب، أما رسول الله ﷺ، فقد كان يعلم يقينًا أن الله ـ جل وعلا ـ لن يضيعه فكان راضيًا مستريحًا بل وسعيدًا حتى أطلعه الله ـ سبحانه وتعالى ـ على العواقب وسمى له صلح الحديبية فتحًا ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** ﴾ [الفتح: ١] فكأن الصلح كان من مبشرات الفتح .

المقصود أن هؤلاء الصحابة دخل عليهم أمر عظيم حتى كادوا أن يهلكوا .

لما رأى سهيل بن عمر ابنه قام إليه فضرب وجهه ، وأخذ بتلابيبه ، ثم قال : يا محمد ، قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا ، إنا قد اتفقنا أن من يأتيك مسلمًا ترده ومن يأتينا مشركًا لا نرده ، فقال ﷺ : صدقت، فجعل سهيل يجر ابنه أبا جندل من تلابيبه ليرده إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : (يا معشر المسلمين أرد إلى المشركين يفتنونني في ديني أدركوني)، فزاد ذلك الناس إلى ما بهم حزنًا فقال رسول الله ﷺ: « **يا أبا جندل اصْبِرْ ، واحْتَسِبْ ، فإنَّ اللهَ جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فَرَجًا ومَخْرَجًا** »[1] .

نعم : إني أرى أن واقعنا فيه شيء من هذا ، إننا نرى ما لا نقدر على تحمله ، نعم ولكن قول الله والرسول يحجزنا ، يقعدنا ، مضطرون ولكننا نحتسب هذا القعود وهذا الاضطرار ، في أمثلة كثيرة لا يقعدنا إلا الشرع ولا يسكتنا إلا الدين ، ولا يمنعنا إلا حكم العلماء في القضية ، انتبه . .

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد (١٨٤٣١) .

فلذلك نقول لك : اصبر ، واحتسب ، إن كثيراً من الشباب شغلوا أنفسهم بما يفعل اليهود ، وماذا نصنع ؟ وبما يفعله الصرب في كوسوفا وماذا نصنع ؟!! وبما يفعله المجرمون أعداء الإسلام في كل مكان ، ويظل هكذا مهتمًا بتلك الأمور تاركًا عيوب نفسه وإصلاح خلله حتى يضيع دينه بالكلية لا . . إنك يجب عليك أن تزيد إيمانك وان تطيع الله ، وأن تعبد الله ، وسيجعل الله لما رأيت فرجًا ومخرجًا إن شاء الله .

نعم أيها الإخوة . . قال له رسول الله ﷺ: « **يا أبا جندل اصْبِرْ ، واحْتَسبْ ، فإنَّ اللهَ جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فَرَجًا ومَخْرَجًا إنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وبينَ القومِ صُلْحًا وأَعْطَيْنَاهُم عَلَى ذَلكَ ، وأَعَطُونَا عَهْدَ الله وإنَّا لا نَغْدرُ بهِمْ** » قال : فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول : اصبر يا أبا جندل ، إنما المشركون دمُ أحدِهم دمُ كلب ، يقول عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ، ولكن الرجل ضن بأبيه . ونفذت القضية ، هذه القضية لقد كان فتحًا ماذا صنع أبو جندل ؟ ضَنَّ الرجل بأبيه ، ثمَّ مَنَّ الله عليه بعد ذلك فانفلت منهم .

أخي الحبيب

ما العلاج مع هذه الضغوط وتلك الفتن ؟

أولاً : لا تطع أحدًا في معصية الله ، كائنًا من كان مهما كلفك الأمر ، وعاملهم بالتي هي أحسن والأمران أي : عدم الطاعة في المعصية والمعاملة بالتي هي أحسن مرتبطان ارتباطًا وثيقًا ، لا تطع أباك في معصية الخالق ولكن احترمه ووقره وأحبه وادع له بالهداية .

ثانيًا : تحمل الأذىٰ ولا تضح بالدين من أجل الدنيا .

ثالثًا : اعلم أن ما تقدمه من تضحيات يعد قليلاً بالنظر للأجر المترتب عليه عند الله إذا صبرت واحتسبت ﴿ **وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ** ﴾ [المدثر : ٦، ٧] .

رابعًا : لا تجامل علىٰ حساب دينك أحدًا ، واعلم أن طاعة الله أولىٰ من طاعة أي مخلوق .

خامسًا: أكثر الدعاء لمن تعرض لك وآذاك وحاول فتنتك، بالهداية والصلاح، وأن يصرف الله عنك كيدَهم ، فإنه القادر علىٰ ذلك .

سادسًا : أكثر من العبادة والتضرع .

سابعًا : كن قدوة صالحة لأهل بيتك .

ثامنًا : تنازل عن حقوقك الشخصية ، وهذا علاج مهم ، ألا تطالب والدك بملابسك ، ولا بثمن الكتاب ، تنسخ الكتب بيديك ، ولا تطالبهم أن يغسلوا لك الملابس ، تغسلها ولا تطالب أمك بأن تعد لك الطعام أو أي شيء ، عندما تكون غير ذي كلفة عليهم في شيء سيحبونك ، أما إذا صرت حملاً ، كَلاً وعبئًا ، فإنهم سيطاردونك ويضغطون عليك من خلال احتياجاتك الشخصية ، أحسن إليهم ولا تنتظر منهم إحسانًا ، إذا أحضرت لك أمُّك الطعام تقبل يديها ، وتقول : واجب عليٰ أن أخدمك يا أمي . لو اشترىٰ لك أبوك قميصًا وسروالاً فقل له : يا أبتِ ، إنك لنعم الأب ، إنني بدونك لا أدري ماذا أفعل ، إنك أنت أحق بهذه الملابس مني ، إنني أعمل جاهدًا لكي تزداد من نعيم الله ، وتُرْفع درجتك في الجنة بإذن الله تعالىٰ .

فقد قال رسول الله ﷺ : « **إنَّ الرجل لترفع درجته في الجنة فيقول : أنَّى هذا فيقال : باستغفار ولدك لك** »[1] . . ادخل عليهم من هذا الباب ، فإذا أعطاك نقودًا فقل له : لا والله ، لا آخذها ، إنك تنفق عليَّ وعلىٰ إخوتي .

حين لا تكون حملاً ولا كلاً ولا عبئًا وتكون محسنًا ، صابرًا ، نظيف اللسان، كثير الشكر والامتنان ، فإنهم حينذاك يحبونك ويستخفونك .

تاسعًا : كن أبر إخوانك بوالديك وأحرص على أن تكسبهم في صفك .

عاشرًا : أن تكون لك مجموعة من القضايا والمسائل والتصرفات لا تقبل نقاشًا ولا جدالاً ولا ذبذبة .

أخيرًا - حاول الجمع بين مصالح أهلك ومصالح دعوتك فالتوازن أمر مطلوب ومحمود .

* * *

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٦٦٠) كتاب الأدب ، باب برا الوالدين . والإمام أحمد في مسنده (٨٥٤٠) وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (١٥٩٨) .

السبب السابع عشر
الابتعاد عن الأجواء الإيمانية لفترة طويلة

البعد عن مجالس العلم ولقاءات الإخوة ، البعد عن الزيارات والأعمال الدعوية ، هذا البعد يقسي القلب .

قال الحسن : (إخواننا أغلىٰ عندنا من أهلنا ، فأهلونا يذكروننا الدنيا وإخواننا يذكروننا الآخرة) .

احرص علىٰ حضور مجلس أو مجلسين للعلم في الأسبوع الواحد علىٰ الأقل تحضرهما في المسجد ، فإذا ظننت أن سماع الشريط يغني فإنك وَهِمٌ ، إنه لا يغني عن الحضور في المسجد ، فأثناء الجلوس في مجلس العلم في المسجد تحفك الملائكة ، تغشاك السكينة ، تتنزل عليك الرحمة ، ويذكرك الله فيمن عنده . . واللَّه هذا شيء آخر!! . لذلك تجد أكثر المتفلتين هم الذين فرطوا في مجالس العلم ، واظِب علىٰ مجلس علم ، احرص عليه ، تابعه تأخذ منه كل أسبوع شحنة إيمانية جديدة ، فإذا كان هناك خلل ينصلح أو صدع يلتئم إن شاء الله .

إن القضية هي أنك حين تحضر هذه المجالس يزيد إيمانك .

كنا نلتزم مع المشايخ في بداية الالتزام ، فغاب أحد إخواننا فسأل عنه الشيخ فقالوا : عكف علىٰ كتاب كذا يقرؤه فلم يأتِ ، قال: أخبروه أن لقاءك بإخوانك يزيد الإيمان في قلبك أكثر من مطالعة الكتب . نعم ، حضور المجالس الإيمانية لالتماس بركتها فلعل أحد الحاضرين يكون

مستجاب الدعوة ، فإذا أمن على دعاء المحاضر يستجاب الدعاء فيرحم الله الحاضرين أجمعين، فتفوز فوزًا عظيمًا ، وقد جاء في الحديث «**هُمُ القَوْمُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهم** »[1] .

ولذا قال الصحابي لأخيه « بنا نؤمن ساعة » .

ثم ماذا تفعل حين لا تحضر ؟

مشاغل دنيوية ، وهموم تافهة ، ونزغات شياطين والمسجد بيت كل تقي ، وإليه مفزع المؤمنين .

فارجع إلى المسجد ، والتزم حلقات الذكر .

وأوِ إلى الله يؤويك ولا تعرض فيعرض عنك .

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٦٤٠٨) ك الدعوات ، باب فضل ذكر الله عز وجل ، ومسلم (٢٦٨٩) ك الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب فضل مجالس الذكر - واللفظ له - .

السبب الثامن عشر
الإغراق في الانشغال بالدنيا
حتى يصبح القلب عبدًا لها

مصيبة العصر وفتنة العصر في الدنيا: هي المال، قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لكلِّ أُمَّةٍ فتْنَةً وفتنة أمّتي المالُ»[1] . وكثير من الشباب فتنته الدنيا وجذبته إلى الانشغال بها فانشغل بجمع المال فهلك في شعابها وأوديتها والشباب يصرخ، ما المخرج؟ هل نترك العمل لجمع المال بعد ذم الدنيا أم فعمل ونجتهد ونكون صناع الحياة ؟؟.

وكشف الغطاء في هذا: أن ما يراد لغيره، ولا يراد لعينه ينبغي أن يضاف إلى مقصوده، إذ به يظهر فضله، والدنيا ليست محذورة لعينها، بل لكونها عائقًا عن الوصول إلى الله تعالى؛ والمال ليس مكروها لذاته، بالعكس فإنه قد يكون مطلوبًا في بعض الأحيان، أما إذا شغل عن الله تعالى، فهنا يكون مذمومًا، فالدنيا ليست محذورة لعينها، ولكنها تشكل عائقًا، والفقر ليس مطلوبًا لذاته، ولكن لأنه فيه فقد العائق وعدم التشاغل بالمال عن الله، وكم من غني لا يشغله الغنى عن الله - جل وعلا - كسليمان عليه السلام، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، لم يشغلهم المال عن الله، وأبو بكر الصديق كان لنا مثلاً وأسوة. وكم من فقير شغله فقره عن المقصود وصرفه عن حب الله تعالى والأنس به، وإنما الشاغل له هو حب الدنيا، إذ لا يجتمع حب الله وحب الدنيا في قلب واحد أبدًا، فإن

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٣٦) كتاب الزهد عن رسول الله، باب ما جاء أنَّ فتنة هذه الأمة في المال، وقال: حسن صحيح غريب. والإمام أحمد في مسنده (١٧٠١٧).

المحب للشيء مشغول به في وجوده وعند فقده . بل قد يكون انشغاله به عند فقده أكثر .

ولذلك قالوا : لا يصلح لطلب العلم إلا من ضربه الفقر ، لأنه مشغول بالعلم لا بطلب المال ، فالمحب للشيء مشغول به سواء كان في فراقه ، أو في وصاله، بل قد يكون شغله في الفراق أكثر ، والدنيا معشوقة الغافلين ، فالمحروم منها مشغول بطلبها ، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها ، فلذلك إذا أخذت الأمر باعتبار الأكثر فالفقير عن الخطر أبعد، لأن فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ، ومن العصمة ألا تجد .

ولذلك فإن الثبات وعدم النكوص يكون بفهمك للحكمة في فقرك أنك حرمت المال لكونك إذا أغنيت ضللت ، وانشغلت فمنعك الله - عز وجل - صيانة لك . إذا فهمت هذا صبرت ومن هذا قول شيبان الراعي « عُدّ منع الله عطاءً فإنه لم يمنعك بخلاً وإنما منعك لطفًا » فإذا منعك المال فإنه أعطاك اللطف بك حتى لا تضل ولا تزل ، إذا فهمت هذا صبرت ورضيت .

واعلم أن فراقَ المحبوب شديدٌ ، فإذا أحببت الدنيا ، كرهت لقاء الله، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه ، وفراقك لما تحبه ، ولك أن تعلم أنَّه ما فارق مُحِبٌّ محبوبًا إلا كان أذاه في فراقه بقدر حبه له وأنسه به ، فينبغي أن تحب من لا يفارقك وهو الله ، ولا تحب الدنيا ؛ لأنها تفارقك أو تفارقها . فلذلك إياك والحرص على الدنيا ؟

العلاج

العلاج أيها الإخوة . .

(١) عدم النهم بالدنيا وعدم التوسع في المباحات فقد كان رسول الله ﷺ يكره كثيراً من الإرفاه . . أي الرفاهية ، لذلك أمرنا أن نحتفئ أحيانا . . أي أن تمشي بدون حذاء . . لماذا ؟ لكي لا تتعود الإرفاه؛ ففي حديث عبد الله بن بريدة أنَّه قال : « إنَّ رسول الله ﷺ كان ينهانا عن كثير من الإرفاه»[1]. وقال : كان النبي ﷺ يأمرنا أن نحتفي أحيانًا .

(٢) أن تأخذ من الدنيا بقدر حاجتك قال رسول الله ﷺ : « **طوبى لمن هُدِي ورزق كفافًا وقنعه الله بما آتاه** » .

(٣) التطلع إلى المتاع الأخروي فليس شرطًا سيارة في الدنيا طمعًا فيما عند الله وليس شرطًا زوجة جميلة انتظار لمجموعة من حوريات الجنة .

(٤) لك في رسول الله ﷺ أسوة « **مالي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل بظل شجرة ثم راح وتركها** » .

***

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٣٤٤٩) وأبو داود في سننه (٤١٦٠) كتاب الترجل . وصححه الشيخ الألباني في صحيح أبي داود (٣٥٠٦).

السبب التاسع عشر

فتنة الشهوة

وهذه أيضًا من الأسباب الخطيرة ، فتنة الشهوة من الفتن التي تعصف بشباب المسلمين في هذه الأيام ، وسيكون لنا قريبًا كتاب أتمنى أن يقرأه جميع الشباب باسم (مواجهة الشهوة) .

والشهوات أنواع وإنما أقصد هنا شهوة الفرج ، وهي درجات أيضًا أو فتن :

* فأشدها وأعمها إطلاق البصر في المحرمات، والاختلاط المحرم في المجتمعات بالكلام أو بالمزاح أو المصافحة أو غير ذلك .

* العادة السرية التي أصبحت مصيبة منتشرة . كثير ممن أدمنوها لم يستطيعوا التخلص منها بعد الالتزام فهي تفتك بهم دينيًا ، وجسديًا ، وإيمانيًا، وقلبيًا ، ونفسيا على جميع المستويات[1] .

* مصيبة الزنا . . أسأل الله العافية والنجاة لجميع المسلمين والمسلمات .

أسباب الوقوع في فتنة الشهوة :

السبب الأول : الغفلة عن الله :

الغفلة الشديدة عن الله والجهل بأسمائه وصفاته ، هذا السبب لا شك مشترك في كل معصية فلو أن العاصي استشعر عظمة الله وأحس أنه واقع تحت نظر الله ، وتذكر قدرة الله تعالى ، وأن بطشه شديد ، وأنه ـ سبحانه ـ

---

(1) راجع في ذلك رسالتنا « القواعد الجلية للإقلاع عن العادة السرية » .

يحيط به، وأنه لا يمكنٌ أن يخرج من قبضة الله، وإنما هو العبد الضعيف، فلو استشعر هذه المعاني لما ثارت شهوته حرامًا أبدًا ، فإن فتنة الشهوة سبب في ردة كثير من الشباب .

فأنت ترىٰ الشاب يعبد الله ويذكره ، فإذا خرج إلىٰ الشارع رأىٰ امرأة متبرجة ، فلا يرىٰ سبيلاً إلا الحرام : إما الزنا أو الاستمناء ، هنا تسقط إيمانياته إلىٰ الحضيض ، إنه بعد فعل أي من هذين الفعلين المتدنيين يهم بالانتحار ، فيترك الالتزام لكونه لا يستطيع أن يتخلص من عاداته السيئة .

فإنه إذا خرج إلىٰ الشارع يرىٰ الفتيات المنتظرات علىٰ جانب الطريق تعرضن أنفسهن فلا يملك إلا أن يقع في هذا الفخ ويضيع دينه .

يقول رسول الله ﷺ : « **لايَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُو مُؤْمِنٌ** »[1] . يسلب منه الإيمان فيضيع الالتزام ؛ ولذلك فإن فتنة الشهوة من أخطر الفتن التي تعصف بالشباب المسلم .

السبب الثاني : إطلاق البصر :

كل الحوادث مبدأها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر

حاسة البصر من أخطر الحواس من ناحية الإثارة الجنسية ، وقد حذرنا الإسلام ونهانا عن إطلاق البصر ، ثبت في العلم الحديث بالبحث والدراسة ضرر البصر علىٰ الأعضاء ، إن الشاب الذي يقضي نهاره ينقل بصره في مطالعة مفاتن المتبرجات ثم يعود وقد شحن خاطره بالصور الفاسدة لا بد أن

---

(١)متفق عليه ، أخرجه البخاري (٢٤٧٥) ك المظاليم والغضب ، باب النهي بغير إذن صاحبه. ومسلم (٥٧) ك الإيمان ، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس .

يفرغ هذه الشحنة بضياع التزامه بضياع دينه ، يمسك المصحف فإذا بصور النساء المتبرجات تتراءىٰ له علىٰ صفحات المصحف ، يجلس لذكر الله فإذا لسانه يتكلم وعقله يفكر في أشياء لا يرضاها الله ، يطبق مصحفه ويكف عن الذكر ، وينطلق يرتع في شهواته بعد أن يتخلىٰ عن دينه ، فالقابض علىٰ دينه كالقابض علىٰ جمر ، والنار قد حفت بالشهوات غض بصرك تنطفئ نار شهوتك .

السبب الثالث : ضعف النفس ومهانتها :

إن الشاب إذا علت همته وعظمت غايته ونبل هدفه لا يلتفت إلىٰ مثل هذه الأمور ، بل ينشغل عنها ويرتفع ويتعالىٰ عليها ، فزكاة النفس وعلو همة الشخص من أهم العوامل التي تحمي دينه ، ومن أقوىٰ السياج التي تحوط بالتزامه فتمنعه من الهُوِيِّ في حمأة الرذيلة .

السبب الرابع : الخواطر والأماني الباطلة :

يقول ربنا عز وجل : ﴿ **كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ** ﴾ [النور : ٣٩] أخس الناس همة وأوضعهم مَنْ تعلق بالأماني الكاذبة ، والخيالات الكاذبة ، كواذب الآمال ، أضر شيء علىٰ الإنسان ، يتولد منه العجز والكسل ، ويتولد التفريط والحسرة والندامة .

والمتمني لما فاته مباشرته في الحقيقة بجسمه حوّل صورتها في قلبه ، وعانقها وضمها إليه فقنع بوصال صورة وهمية خيالية ، صورها فكره ، وذلك لا يجزي عنه شيئًا ، يسير في الشارع يطلق البصر ، ثم يعود بخيال

الوهم ، يعانق الوهم ، يعيش الوهم ، هذا إنسان كذاب ، فلا يلبث أن يعاقب بكذبه ، لأن الوصول في هذا الطريق بالصدق « إنَّ تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ »[1] .

السبب الخامس : الفراغ القلبي والعقلي :

يقول ربنا : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾ ﴾ [الشرح: ٧، ٨] الجاهل لا علم له بذلك ، فحين يفرغ ينشغل بالمطالعة ، مطالعة المجلات والجرائد ، ينشغل بالرقود والتقلب على سرير الوهم ، هذه كلها من الفتن ، تضيع دينك ، اشغل نفسك بحفظ القرآن ، وسيأتي هذا في العلاج .

السبب السادس : الصحبة السيئة :

يقول رسولنا ﷺ : «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِه ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ»[2] .

وقال ربنا - جل وعلا - في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩] الاختلاط السيء ، والصحبة السيئة كم أنزلت على الشباب من محنة ، وعطلت من منحة ، وأحلت من رزية ، وأوقعت في بلية ، وكم من شاب لم يكن يعرف شيئًا عن

(١) أخرجه النسائي (١٩٥٣) كتاب الجنائز . باب الصلاة على الشهداء ، وصححه الشيخ الألباني في صحيح النسائي .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٧٨) كتاب الزهد عن رسول الله ، باب ما جاء في أخذ المال بحقه ، وقال: حسن غريب . وأبو داود (٤٨٣٣) كتاب الأدب . باب من يؤمر أن يجالس . وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٩٢٧) وصحيح الجامع (٣٥٤٥) .

العادة السيئة، وعن هذا الاختلاط ، ولا عن هؤلاء النسوة، ومع الجلوس والكلام والسماع، وقع في هذا البلاء وضل وفقد دينه .

السبب السابع : اتباع خطوات الشيطان :

إن إطلاق النظر هو إطلاق سهم مسموم من سهام إبليس ، نظرة فابتسامة ، فسلام ، فكلام ، فموعد ، فلقاء ، كلها خطوات من خطوات الشيطان ، زلات الشيطان . تعالوا إخوتاه إلىٰ العلاج .

والعلاج يتمثل في الآتي :

أولاً ـ الاستعانة بالله تعالى :

قال ابن القيم في المدارج (وأولُ معاني التوبةِ أنْ تنظرَ إلىٰ ما كان من انخلاعك عن الاعتصام بالله حال إتيان الذنب، وأن الله منع عصمته عنك، اعتصم بالله ترشد، ومن يعتصم بالله فقد هدىٰ إلىٰ صراط مستقيم) ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٨] هذه هي الأولىٰ .

قال رسول الله ﷺ : « وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ »[1] . فاطلب العفاف بالاستعانة بالله .

ثانيًا ـ التعرف على الله بأسمائه وصفاته ومعايشة القرب :

يقول ابن القيم (وأشدُّ مِن هذا كلِّه المجاهرةُ بالذنب مع تيقن نظر الرب ـ جل جلاله ـ من فوق عرشه إليه ، فإن آمن بنظره إليه وأقدم علىٰ

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٦٤٧٠) كتاب الرقاق ، باب الصبر عن محارم الله . ومسلم (١٠٥٣) كتاب الزكاة . باب فضل التعفف والصبر .

المجاهرة فعظيم ، وإن لم يؤمن بنظره إليه واطلاعه عليه فذلك كفر وانسلاخ من الإسلام بالكلية ، فالأمر دائر بين الأمرين ، قلة الحياء وبين الكفر والانسلاخ من الدين ، فذلك يشترط في صحة التوبة ، تيقنه أن الله كان ولا يزال مطلعًا عليه ، يراه جهرة عند مواقعة الذنب ؛ لأن التوبة لا تصح إلا من مسلم ثم العلاج بدفع الخواطر الرديئة ، وعمارة الوقت بالطاعة) ا.هـ .

قال ابن القيم : (دافع الخطرة ، فإن لم تفعل صارت شهوة ، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمة ، فإن لم تدافعها صارت فعلاً ، فإن لم تتداركها بضده صارت عادة ، فيصعب عليك الانتقال عنها) اهـ لا بد أن تتخلص من العادات ، لا بد أن تنهي هذه الأمور ، لا بد أن تدفع الخواطر من البداية . . كيف ؟ بالانشغال . . . .

*** انشغل بحفظ القرآن ، انشغل بذكر الله ، فإنه جنة الله في الأرض .**

* انشغل بطلب العلم ، صحح عقيدتك ، أصلح عبادتك ، تعلم الأدلة الشرعية على كل عمل تقوم به ، اشغل نفسك بالدعوة إلى الله تعالى، وقيادة الناس إلى الجنة ، اشغل قلبك بحب الله ، واملأه بنور التوحيد والإخلاص .

أيضًا من ألوان العلاج في مواجهة الشهوة :

ثالثًا : غض البصر عن النساء المتبرجات في الشوارع، عن الإعلانات، عن الصور ، والمجلات والجرائد ، عن التليفزيون ، وغض السمع ، لا تستمع إلى الأغاني ، ولا تستمع إلى أصوات النساء المرققة . . حاول قدر الإمكان ألا تختلط .

رابعًا : منع الاختلاط ، وغض البصر في الشارع ، وعدم الالتفات إلى الصور والجرائد التي تعرض الصور العارية ، الابتعاد عن التلفاز وما يعرضه من مسلسلات وأفلام ماجنة ، عدم الاستماع للأغاني لكي لا تذكرك بأيام ما قبل الالتزام ، حاول ذلك قدر الإمكان .

❊ ❊ ❊

السبب العشرون

طول الأمل

جاء في الأثر أربعة من الشقاء :

١ ـ جمود العين .

٢ ـ قسوة القلب .

٣ ـ طول الأمل .

٤ ـ الحرص على الدنيا .

يتولد من طول الأمل الكسل عن الطاعة والتسويف للتوبة ، والرغبة في الدنيا ، والنسيان للآخرة ، والقسوة في القلب؛ لأن رقة القلب وصفاءه إنما يكون بتذكر الموت ، والقبر ، والثواب ، والعقاب ، وأهوال القيامة .

قال الله تعالى : ﴿ **فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الحديد: ١٦] إياك من طول الأمل ، قال رسول الله ﷺ : « **لا يزال قلب الكبير شابًا في اثنتين في حب الدنيا وطول الأمل** »[١] .

قال الحافظ ابن حجر : سمّاه شابًا إشارة إلى قوة استحكام حبه .

وقد قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥)** ﴾ [محمد: ٢٥] .

قال الحسن البصري : أي مَدَّ لهم الشيطان في الأمل ، ووعدهم طول العمر .

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٢٠) كتاب الرقاق . باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العُمر .

فاحذر - أخي الكريم - من ذاك الداء العضال ، إنَّ طول الأمل يقسي القلوب ، ينبت فيها بذور النفاق .

قال تعالىٰ : ﴿ **يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ (١٤)** ﴾ [الحديد: ١٣ - ١٥] .

قال بعض أهل التفسير : « وغرتكم الأماني » إشارة إلىٰ طول الأمل . فطول الأمل من صفات المنافقين نسأل الله الصدق والإخلاص في القول والعمل .

وقال الله تعالىٰ : ﴿ **ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣)** ﴾ [الحجر: ٣].

قال الحافظ : قال الجمهور هي عامة ، وقال جماعة : هي في الكفار خاصة والأمر فيها للتهديد وفيه زجر عن الانتهاك في ملاذ الدنيا .

فانظر لمن خاب أمله هذا حالهم ، إنَّ أخسر النَّاس صفقة ذاك الذي أخلق يديه في آماله ولم تساعده علىٰ أمنيته فخرج من الدنيا بغير زاد ، وقدم علىٰ الله تعالىٰ بغير حجة .

قال يحيىٰ بن معاذ : الأمل قاطع عن كل خير ، والطمع مانع من كل حق ، والصبر صائر إلىٰ كل ظفر ، والنفس داعية إلىٰ كل شر .

والعلاج من هذا :

أولاً : تذكر الموت والقبر والثواب والعقاب وأحوال القيامة . فإنَّها موقظات من الغفلات .

قال ابن عمر : « إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموت »[(١)] .

ثانيًا : المبادرة بالأعمال الصالحة

قال ﷺ : « **بادروا بالأعمال سبعًا هل تنتظرون إلا فقرًا منسيًا أو غنى مطغيًا أو مرضًا مفسدًا أو هرمًا مفندًا أو موتًا مجهزًا أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر** »[(٢)] .

وقال ﷺ : « **بادروا بالأعمال ، فتنًا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا ، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا** »[(٣)] .

فاعلم ـ أخي ـ أنَّ من قَصُر أمله قلَّ همه وتنور قلبه ، فاقطع أملك . فقد قَرُب ـ والله ـ أجلك .

يا من بدنياه اشتغل ... وغره طول الأمل
الموت يأتي بغتة ... والقبر صندوق العمل
إنما الدنيا كظل زائل ... أو كضيف بات ليلاً فارتحل

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٦) كتاب الرقاق . باب قول النبي كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٠٦) كتاب الزهد عن رسول الله . باب ما جاء في المبادرة بالعمل . وقال: حسن غريب .

(٣) أخرجه مسلم (١١٨) كتاب الإيمان . باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن .

[نداء أخير]

يقول ربنا في كتابه العزيز : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

ونحن ننادي إخواننا الذين ابتعدوا عنا نقول : يا من كان له قلب فمات . . يا من كان له وقت ففات . . ابكِ علىٰ ظلام قلبك يضيء . . يامن كان له قلب فمات . . إن أشرف الأشياء قلبك ووقتك . . فإذا أهملت قلبك ذهبت منك الفوائد . . وإن ضاع وقتك فقد قطع السيف عمرك . . إن كنت تبكي علىٰ ما فات فابكِ علىٰ وقتك . . إن كنت تبكي علىٰ ما مات فابكِ علىٰ قلبك . .

ويَبْكي على الموتى ويَتْرُكُ نفسَهُ ... ويَزْعُمُ أنْ قَدْ قَلَّ عَنْها عزاؤُهُ

ولو كان ذا رأيٍ وعقلٍ وفطنةٍ ... لكانَ عليه لا عَلَيْهِمْ بُكَاؤُهُ

يا من نسىٰ العهد القديم وخان . . من الذي سواك في صورة الإنسان . . من الذي غذاك في أعجب مكان ؟ من الذي بقدرته استقام منك الجثمان . . ؟ من الذي بحكمته أبصرتْ العينان . . ؟ من الذي بصنعته سمعت الأذنان . . ؟ من الذي وهب العقل فاستبان منك للرشد وبان . . ؟ من . . ؟ إله مع الله . . ؟

فلم استبدلت بالله ﴿ **أتتخذونه وذريته** ﴾ يعني الشيطان ﴿ **أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً** ﴾ [الكهف : ٥٠] .

من الذي بارزته بالخطايا وما زال يستر العصيان . . ؟

من الذي تركت شكر نعمته فلم يؤاخذ بالكفران . . ؟

إلىٰ كم تخالف الله، وما يصبر علىٰ ما تفعله الأبوان . . ؟

تعامل الله بالغدر الذي لا يرضاه الإخوان . . ؟ وتنفق في خلاف ربك ما عز عندك وهان . . ؟ لو علم الناس منك ما يعلم الله ما جالسوك في مكان . . فارجع إلىٰ الله فإنه أهل المعروف والإحسان . . ؟

وهو الحبيب الذي يعطىٰ ويغفر ومن أحببت سواه يأخذ ويغدر . .

من ترضىٰ غير الله حبيبًا ؟

ومن ترضىٰ سواه مألوهًا محبوبًا مطاعًا؟

وقد حق فيك قول الشاعر :

نَقِّلْ فؤادَك حيثُ شِئت من الهوى ... ما الحبُّ إلا للحبيبِ الأولِ

كَمْ مَنْزِلٍ في الأرضِ يَألفُه الفتَى ... وحنينُه أبدًا لأولِ منزل

يا مبارزًا بالقبيح مهد عذرك إذا لقيت الملك ـ جل جلاله ـ فقال : ألم أخلقك وأرزقك وأذرك ترأس وتربع ، فلِمَ عصيتني ؟ مهد عذرك ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** ﴾ [غافر : ٥٢] .

﴿ **بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ** ﴾ [القيامة : ١٤، ١٥] .

يا مبارزًا بالقبيح مهد عذرك . . يا مواصلاً نقض العهود جانب غدرك . . يا مديمًا للتواني تدبر أمرك . . يا مؤثر الفاني علىٰ الباقي خالف خبرك . . يا لاهيًا في أيام العوافي والله ما تركك . . الله إليك أقرب .

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥)﴾ [القلم: ٣٥] والله ما تُترك.. يا واقفًا مع الأماني ضيعت عمرك.. يا فرحًا بقصره.. يا فارحًا بعمره.. يا لاهيًا بصحته، تذكر قبرك.

يا حاملاً أثقال الذنوب هلاَّ خففت ظهرك.. سار الصالحون إلىٰ ذكر الله وآثرت هجرك.. وسمعت عن سيرهم وضيعت أجرك.. إن أردت صحبة المتقين فاشرح لليقين صدرك.. وإن أحببت حلاوة العواقب فاستعمل صبرك.. وإن حلا شراب مناجاتنا فبدد خمرك.. وإن طاب لك سماع ذكرنا فاكسر زمرك.. اعتبر من قبل نزول الثرىٰ.. ولبس الأكفان.. وتفكر في البلاء وتذكر الرفاق فإنك لا تترك.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)﴾ [الأعراف: ٣٤].

لقد تحيرت كيف أدعو أخانا الذي فتن؟..

الذي كان علىٰ هدىٰ رسول الله وعلىٰ سنته، فإذا به قد حلق اللحية والشارب!!

وبعد أن كان القميص الأبيض والعمامة يضيئان وجهه، فإذا به يتشبه بالكفار في ملابسهم وفي حلق رءوسهم!!

بعد أن كان من أتباع النبي ﷺ.. صار قدوته أتباع الشيطان..

ءأناديه أخي المطرود..؟ ءأناديه أخي المصر علىٰ النار..؟ ءأناديه

أيها الرجل الصفر . . كان واحداً وصار صفراً . . بماذا أناديه . . . ؟؟؟؟

إني لا أستطيع أن أناديه إلا بيا . . يا من هجر الصحبة وترك الطريق . . يا من جفا الله وصار من المطرودين عن صحبة أهل العلم . .

إخواني : هلموا ، نقم مأتمًا للفراق . . وننـدب إخواننا الظاعنين

هلموا نرق دَمْعَ تأسفنا على قبح تخلفنا . . هلموا نبعث مع المتقين الواصلين رسالة محصر لعلنا نحظى بأجر المصيبة . .

يا من ابتعد وجفا . . اعلم أن أنجع المراهم لجراحات الذنوب البكاء . . هتكة الدمع ستر على الذنب . .

لقد كان محمد بن المنكدر كثير البكاء ، فسئل عن ذلك فقال : آية من القرآن أبكتني . . قيل وما هي ؟ فقال : ﴿ **وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ** ﴾ [الزمر: ٤٧] .

وكيف لا تذهب العيون من البكاء ، وما تدري ما أعدَّ لها .

أخي في الله : سبقت السعادة لمحمد قبل كونه . . ومضت الشقاوة لأبي جهل قبل وجوده . . خوف السابقة وحذر الخاتمة قلقل أرواح السلف هيبة ﴿ **لا يسأل** ﴾ مع تحكم ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا** ﴿١٣﴾ ﴾ [السجدة: ١٣] وهو لا يسأل عما يفعل فقد سبق حُكْمُه وحِكْمته ، وعدله أما فضله فيؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . . أخي يا من ابتعد عن الطريق . . وعصى الملك الذي منه قـريب . . وهو الذي أحسن إليه أتراك تقف لأناديك فأقول .

أترى سـألوا لمـا رحلوا ماذا فعـلوا أمـن قتلوا

يا من فقد قلبه . . وعدم الحيل في طلبه . . تنفس في كرب الوجد . . فبريد السحر يحمل الملطفات . . ريح الأسحار ركابي الرسائل ، ونسيم الفجر . . ترجمان الجواب ﴿ **إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا** ﴿٧٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٨].

أخي . . يا من ابتعدت قم هيا وناد . . يا دائرة الشقاء أين أولك . . ؟ يا أرض التيه متى آخرك . . قم الليل فهو شفيع مشفع . . تمسك بالبكاء فهو رفيق صالح . . ادخل في زمرة المتهجدين على وجه التطفل وقل بلسان التذلل أنا تائب أنا نادم . . قال الله في الحديث القدسي : « **وإن أتاني يمشي أتيته هرولة** »[1] .

الله يناديك ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا** ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر: ٥٣].

ولكن أبواب الملوك لا تطرق بالأيدي ولا بالحجارة . . ولكن بالنداء والدعاء الخفي . . بالدموع والتذلل . . فإذا رأيت نفسك متخبطة لا مع المحبين ولا مع التائبين فاعلم أنك ضعت، ولكن ابسط رماد الأسف واجلس مع رفيق اللهف، وابعث رسالة القلق مع بريد السعداء لعله يأتي الجواب بكشف الجوى .

أخي في الله : يا من ذهبت ولم تعد . . كم نرمي هدف سمعك برشق كلام . . كم نلدغ أصل قلبك بحمى ملام . . ولكن لا تنفع الرياضة إلا في نجيب . . لو سقى الحنظل بماء السكر لن يخرج حلواً . . ومن البلية عذل

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٧٤٠٥) كتاب التوحيد ، باب قول الله: ويحذركم الله نفسه، - واللفظ له - . ومسلم (٢٦٧٥) كتاب التوبة ، باب في الحض على التوبة والفرح بها .

من لا يرعوي عن غيه . . ومن الخطل خطاب من لا يفهم . . ويحك ما زال لي فيك أمل وما زال لي فيك رجاء . . باب التوبة مفتوح جهة الغرب حتى تطلع الشمس منه . . إلهك وربك يقول في الحديث القدسي : « يا ابنَ آدمَ ، إنَّك ما دَعَوْتَني وَرَجَوْتَني غَفَرْتُ لَكَ على ما كَانَ منك ولا أُبَالي ، يا ابنَ آدمَ لو بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السماء ثم اسْتَغفَرْتَني غَفَرْتُ لك ولا أُبَالي »[1] . بعد كل هذا النداء ما زلت بعيداً ولما تأت . .

يا نائح الفكر نَضِّد . . يا نادب الحزن عدِّد . . يا لائم النفس شدد . . يا رامي القلب سدد . . يا جامع الدمع بدد . . يا مطرب السر ردد . .

يا مقيداً عن السير بقيود الشواغل . . أيطمع في لحاق الطير مقصوص القوادم . . صَوِّت في الأسحار بالسائرين لعل عطفًا إليك في عطفة رحمة . . ناد على السائرين . . خذوني معكم . . اصحبوني معكم . . اجعلوني معكم . . اشفعوا لي معكم . . ناد لعله ينعطف أحد فيأخذك معه . . فقد ترق الساقة لأهل الفاقة . . .

سل الليل عن الأحباب فعنده الخبر . . من لم يكن له مثل تقواهم لم يعلم ما الذي أبكاهم . . من لم يشاهد جمال يوسف لم يعلم ما الذي آلم قلب يعقوب . . .

أخي في الله : يا من ابتعد فآثر أن يطرد ويقصى . . يا من كانت له مع الله معاملة وطالت بينه وبين الله المواصلة ثم اختار الهجر والمفاصلة . . إن

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠) كتاب الدعوات على رسول الله . باب فضل التوبة والاستغفار . وقال :- حسن غريب . وصححه الشيخ الألباني في صحيح الترمذي (٢٨٠٥) .

لم يكن جميلا فلتكن مجاملة . . . يا من لم يُؤَثِّر هذا كله فيه . . ولم يقربه من الله ولا يدنيه . . كل هذا الجفاء والبعد وكنت تدَّعى حب الله وتؤثر قربه . . فما هذا الصبر الذي تدعيه . . . ؟

كنت تستطيب رياح الأسحار . . وما تغير المحب أبدًا . . ولكن دخل برد الفتور ولم تحذره فأصابك زكام الكسل . .

كنت في الرعيل الأول . . فما الذي ردك إلى الساقة ؟ قف الآن على جادة التأسف ، والزم البكاء على التخلف . . ؟

فأحق الناس بالأسى من خص بالتعويق دون الرفقاء . .

قل : اهدني فيمن هديت . . وعافني فيمن عافيت . . وتولني فيمن توليت . . فلقد شفيت فلانًا فاشفني . . وقربت فلانًا فدلني . . وفلانًا أعنته فخذ بيدي . .

يا هذا : يا من بعت قيام الليل بلقمة . . يا من شربت كأس النعاس ففاتتك الرفقة . . يا من ابتعدت وتكاسلت إياك أن تستمرئ الكسل . .

إخوتاه تريدون طي الصفحات على هذه الحال . . غفلة شاملة عيون جامدة . . لا . . بالله لا تفعلوا . .

لا بد أن ترطب القلوب، وتذرف العيون، وإلا فما صحبتنا بنافعة . . ولا دعوتنا بمجدية . .

اللهم لا تتركنا هملاً . . وتكلنا لأنفسنا . . اللهم لا تخيب فيك رجاءنا . . ولاتقبضنا إلا وقد أصلحت قلوبنا . . وهديت قلوبنا . . ورطبت قلوبنا . . وقبلتنا فيمن قبلت توبته . . أنت ولي ذلك والقادر عليه . .

إخوتاه . . بالله لا تطووا هذه الصفحات بدون تدبر لما قد جاء فيها . . ولا تقاوموا العبرات إذا انهمرت ذلاً لمولاها وباريها . . لا تقلبوا صفحات هذا الكتاب وتعودوا كما بدأتم . .انتبهوا . . هذا هو الحادي ينادي . . يحذر من وعورة طريق السالكين لغير درب الله . . انتبهوا ففي الطريق مفاوز وقفار . . وفي الطريق قطاع طريق . . ووحوش . . ومخاطر . . انتبهوا . . عودوا إلىٰ كنف من رباكم . . اسكبوا العبرات وذلوا لرب الأرض والسموات ، وادعوه يستجب . .

إلهي : نور دنيانا بنور من توفيقك . . واقطع أيامنا في الاتصال بك . . وانظم شتاتنا في سلك طاعتك . . فأنت أعلم بتلفيق المقترف . .

اللهم افتح مسامع الأفهام لقبول ما ينفع . . اللهم سلم سيارة الأفكار من قاطع طريق . . اللهم احرس طلائع المجاهدة من خديعة كمين . . اللهم نَجِّ شجعان العزائم من شر هزيمة . . اللهم وقع علىٰ قصص الإنابة بقلم العفو . . اللهم لا تسلط جاهل الطبع علىٰ عالم القلب . . اللهم لا تبدل نعيم عيش الروح بجحيم النار . . اللهم لا تمت حي العلم في حي الجهل . . اللهم أخرجنا إلىٰ نور اليقين من هذا الظلام . . اللهم لا تجعلنا ممن رأىٰ الصبح فنام . . اللهم لا تؤاخذنا بقدر ذنوبنا فإنك قلت : ﴿ **وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ** ﴿٢٣٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣٧] . . اللهم لا تعذب نفساً قد عذبها الخوف منك . . اللهم ولا تخرس لسانًا طالما يروىٰ عنك . . اللهم ولا تعذب بصراً طالما يبكي لك . . اللهم ولا تخيب رجاء هو منوط بك . . إلهي . . ضع في ضعفي قوة منك . . إلهي . . ضع في كفنا الكف عن غيرك . . إلهي . . ارحم عبرة

تترقرق على ما فاتها منك . . إلهي وارحم كبدًا تحترق على بعدها عنك . .

إلهنا وسيدنا ومولانا . .

واعجبا لمن عرفك ثم أحب غيرك . . ولمن سمع مناديك ثم تأخر عنك . . وا أسفي لمنقطع دون الركب متأخر عن لحاق الصحب يعد الساعات في متى ولعل . . ويخلو بفكر في عسى وهل . .

أيها المتخلف في أعقاب الواصلين . . استغث بربك تلحق بهم . . علق على قطارهم لعل جملك يصل . . يا من قد مضت له ليالي مناجاة . . ثم قطع المعاملة اندب زمان الوصل لعل حالاً حال يعود . .

منازل كنت تهواها وتألفها أيام كنت على الأيام منصورًا

ما زلنا ننادي ونناجي . . نناجي أخانا الذي قد يكون في عصرنا بجسمه لا بقلبه . . إننا نناديه . . تعال وقد أسره شيطان مريد . . ونفس خبيثة . . وهوى عتيد عنيد . . ليت شعري كيف فكاكك أيها الحبيب . . إنني ما زلت أحاول أن أجر حبلك . . أن أصل وصلك . . وأن أقرب أملك . . أن أقوى رجاءك . .

أخي الحبيب هل ضعت مني . . ؟ هل تهت عني . . ؟ أثمة أمل لتوبتك . . ؟ كأني أسمع الشيطان المريد الفاجر يقول لي : اقطع حبال آمالك، فقد أسرته وحبسته على شهواته ، أدبر بطمعك فيه ، فلن يرجع إلى الطاعة بعد أن ذاق المعصية ولذة الفجور .

أما أنا فأقول : أخي . . يامن وقعت في المعصية وقارفت الفجور . . كلا . . كلا . . لن تضيع إنني أقول . . أعوذ بالله من الشيطان

الرجيم . . اخسأ يا ملعون ، فلن تَعْدُوَ قَدْرَك . . إنني أطارد الشيطان عنك ـ أخي في الله ـ فساعدني حتىٰ نطرد الشيطان معًا . .

أخي . . لن أضيعك . . لن تفوتني . . أخي لن أسلمك . . أخي لن أبيعك . . أخي ساعدني . . مد يدك إلي لكي نعبر . .

وأنت أيها الشيطان المريد اللعين . . أقول لك : إن أخي لن يقيم علىٰ معصية بعد أن ذاق يومًا حلاوة الإيمان ولذة الطاعة . . إنه أبدًا لن يكون معك بعد أن كان يومًا مع الله ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [البقرة: ٦١] .

إن قلبًا خضع للملك القدوس يومًا لا يسلمه الله لك أبدًا . . وسأبدأ حربي وعراكي لأفك أسيرك . . لأزيل حصنك وأدك قلعتك . . وأنت أخي وقرة عيني . . أعني علىٰ نفسك . . وأحضر قلبك يشهد . . ألق سمعك لخطاب ربك . . وسبحه هاديًا ونصيرًا . . يقول ربك لك : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٣] .

أخي . . حاذر الآن شيطانك . . كأنني أسمع هرولته إليك وقد مال قلبك واشتاق فؤادك إلىٰ سيدك وخالقك . .إن الشيطان يريد لك الغواية . . يحول بينك وبين الهداية . . ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧] .

أخي . . اتفل عن يسارك واستعذ بإلهك وربك واسمع قول الله :
﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١، ٢٠٢].

أخي . . تذكر . . تبصر . . تنبه . . إنني أذكرك ببداية الهداية وأول الطريق . . بحلاوة الالتزام ولذة الطاعة . . بنعيم القرب . . أذكرك بنعم الله عليك وآلائه التي ساقها إليك دون سبق طاعة من عندك، أو طلب إلحاح من نفسك ، بل تتوالىٰ نعمه العظيمة . . وآلاؤه الجسيمة . . في كل شهقة وزفرة . . ما بين كل نظرة وفكرة أذكرك بالله .

أصرت تكره الله . . ؟ أنسيت الله . . ؟ أبعت الله . . ؟

كم أسبغ عليك من الأفضال ما كنت ترجوها ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٤] كما ساق إليك من الأرزاق طعامًا وشرابًا ، وهو لا يرىٰ منك إلا كل قبيح . . وكم صرف عنك من البلايا والرزايا وهو يراك توالىٰ أعداءه بالمديح . . يذكرك بالنعمة تلو النعمة وأنت لا تقلع . . وتناديك آلاؤه ليلاً ونهاراً وأنت لا تسمع . .

أخي . . يا من عصيت الله فأقصاك ، وما زال يناديك « **من تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا** »[1] تذكر عظيم حلمه عليك . . وصبره عليك إذ عصيته فسترك . . وحاربته فعذرك . . ونسيته فلم يعجل بإهلاكك

تذكر . . كم من كبيرة موبقة فعلتها واجترأت عليه بها فما قطع عنك رزقًا . . ولا حجب عنك خيرًا . . بل بسط يده لتتوب إليه . . « **إنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ باللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهارِ ويَبْسُطُ يَدَهُ بالنَّهار ليتوبَ مُسِيءُ اللَّيلِ** »[2] .

(1) متفق عليه . أخرجه البخاري (٧٤٠٥) كتاب التوحيد . باب قول الله تعالى ويحذركم الله نفسه . ومسلم (٢٦٧٥) كتاب الذكر والدعاء باب الحث على ذكر الله . واللفظ له - .

(2) أخرجه مسلم (٢٧٥٩) كتاب التوبة من الذنوب . باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة .

تذكر . . كم رآك وأنت تستهين بنظره وعلمه . . وتغتر بكرمه وجوده وحلمه . . فلم يعاجلك بالعقوبة الماحقة . . ولم يعاملك بسطوته الساحقة . . وكم عصاة قبضوا وهم يزنون . . وهلكوا وهم سكارىٰ غافلون . . فختم لهم بالشقاء والفضيحة . . ونزلوا عنده بالمنزلة القبيحة . . وأنت ما زلت تمهل . . اللهم استرنا ولا تفضحنا ، ونجنا ، واعف عنا ، وأحسن خاتمتنا .

أخي في الله تذكر سالف عهدك مع ربك وتوفيقه لك . . أليس هو الذي هداك وهو الذي علىٰ طاعته أعانك . . أليس هو الذي لتلاوة كتابه وفقك . . ؟ أليس هو الذي لقيام الليل أقامك وأوقفك . . ؟ اصطفاك وأيقظك . . ؟

أليس هو . . ؟ أ إله مع الله . . ؟

فلم هجرته . . ؟ لم نسيته . . ؟ كم سمع منك تراتيل الدجىٰ إذا الليل سجىٰ . . وأفاض عليك . . أسبل عليك من غفرانه ورحمته . . كم أخذ بمجامع قلبك . . كم رزقك دموعًا نزلت من عينيك . . كم عبرةٍ أسبلتها عيناك بريد صدق وولاء وطهارة . . فغسل بالدمع القليل الذنب الكثير . . كم . . وكم . . وكم . .

أخي . . أخي . . أخي . . تعالَ . . اسمع . . ألم تكن التقي النقي . . ألم تك يومًا ريحانة المؤمنين . . وأربح المتقين . . ألم تكن من كاسري دنان الخمر . . ألم تكن من القابضين علىٰ الجمر . . فلم ألقيت الجمر . . وعاقرت الخمر . . . !!!

أخي . . تذكر . . كم من مرة رفعت يديك ودعوته فلباك . . واستوهبته فحباك . . واستغفرته . . فنقاك . . واستعنته فأغناك . .

واستنصرته فقواك . . واستأذنته فأدناك وأملاك . . وقربك وأحبك ونفعك ورفعك وأقر عينك . . أبعد هذا تهجره وتوليه ظهرك . .؟ بعد أن عاينت القرب بقلبك . . بعد أن ذقت حلاوة الإيمان بحبك . .؟ لماذا هجرته . .؟ لماذا استدبرته . .؟ لماذا أعطيت في حقه الدنية . .؟ وأعظمت في إبليس الأمنية . .؟

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النساء: ١٢٠] .

أخي . . ويحك أما ترعوىٰ . . ويلك الموت يطلبك . . والساعة موعدك ﴿ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾ [القمر: ٤٦] لَتُطْرَحَنَّ علىٰ فراش الموت مجندلاً . . ترمق من حولك وأنت عن خطابهم عاجز . . ويرمقونك بأبصارهم الكليلة ، والأجل ناجز . . لَتُنْزَعَنَّ روحك عن جسدك . . وتُعَايِنَنَّ الموت حقًا وصدقًا . . وَلَتُدْرَجَنَّ في كفنك بعفنك . . ولَتُطْرَحَنْ في قبرك فريدًا . . وحيدًا . . وَلَتُبْعَثَنَّ عاريًا ، حافيًا ، وَلَيُنَادَيَنَّ عليك بين الخلائق . . يا فلانًا أجب رب السموات والأرض . . تأهب للحساب وأعد للسؤال جوابًا . .

أخي . . أين حبك للرسول . . أين انقيادك لأوامره ﷺ . .؟ أين طاعتك له في المنشط والمكره . .؟ في الأثرة والإيثار . .؟ أما تخاف أن يُعْرِضَ عنك النبي محمد ﷺ . . فيقول إذا لقيك يوم القيامة . . سحقًا سحقًا لمن بدل بعدي[1] وغيّر . . يا من ترك سنة الحبيب وسار علىٰ سنن الشياطين . .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخاري (٦٥٨٥) كتاب الرقاق . باب في الحوض . ومسلم (٢٢٩١) كتاب الفضائل . باب إثبات حوض نبينا وصفاته .

أتراك بدلت . . ؟ أم على العهد ثبت . . وبالعقد وفيت . . قال ربك : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ** ﴾ [المائدة: ١] ﴿ **وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً** ﴾ [الإسراء: ٣٤] .

أين عهودك مع الله . . ؟ أين مواثيقك التي بذلتها لنصرة الدين . . ؟ أين المروءة والوفاء . . ؟ أين الرجولة . . أين العلاء . . ؟

أخي . . أما اشتقت إلى صحبة المؤمنين . . أما اشتقت إلى رياض الصالحين . . ؟ أما اشتقت إلى مجالس البكائين . . ؟ أما تذكر أيام النقاء والصفاء . . ؟ أيام التحليق والسمو . . ؟ أيام الرفعة والعلو . . ؟ ألم يكن كل منا يُذكِّر الآخر إذا نسي . . ؟ ألم تُعاوِنِّي على الطاعة . . ويشد كل منا أزر الآخر . . ألا تذكر كيف كنا نتراحم إذا عطس أحدنا . . ليت شعري من يشمتك من رفقة السوء إذا عطست . . ؟ بل من يذكرك بالصلاة إذا غفلت . . ؟ ومن يزجرك عن المنكر إذا انزلقت . . ؟

أخي . . أقبل . . تعال نخف الله . . نرجوه . . ندعوه . . تعال نشفق من عذاب النار . . فإن أهل الجنة يقولون : ﴿ **إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ** ﴾ [**الطور**: ٢٦ – ٢٨] .

أخي . . حبيبي في الله . . أسوق آخر سهم في كنانتي . . وآخر كلمة في جعبتي . . وآخر محاولة من ذهني وقلبي . . فأقول لك . . تنبه . . أمتك تحتضر . . تناوشها أنياب اللئام . . صارت كَلأً لكل الطغام . .

أخي في الله . . تيقظ إنهم سيهجمون . . لقد نهبوا كل شيء . . أخذوا أندلسًا . . صقلية . . وقبرص . . حازوا بالكلية . . اجتاحوا أرض

المسرى وبها عبثوا . . وتنمر ناب القوم لأقصانا . . أرأيت الذل أخي يعربد في الأرجاء . . أرأيت الأسد تموء وقد كانت تزأر . .

أخي . . تعال . . الأمة تحتاج إليك . . فلا تكن علينا بعد أن كنت لنا . .

ألم يتحرك فيك النبض سريعًا . . ؟ ألم تتفجر أوداجك كمدًا حين رأيت العربيدة تزري برسول الله . . ؟ لم يثر نخوتك أنهم سيهدمون الأقصى . . ؟ ألم يحرك قلبك أنهم شتموا النبي ﷺ . . ألم يفجر قوتك أنهم يهددون بهدم مسجد الرسول ونقل الكعبة . . ؟ أين أنت من كل هذا . . ؟ ثم بعد ذلك يهنأ لك عيش . . ؟ ويهدأ لك بال . . ؟ ويغمض لك جفن . . ؟ تأكل وتشرب مستريحًا . . ؟ ما هنأت عين الأنذال بحال مثل حالك . .

لما أخذت قدس الأقداس . خاصم صاحب حطين فراشه . . وهجر النوم . . وطلق زينة دنيا ملعونة . . وساح بأرض الإسلام وصاح . . قدساه . . يا قدساه . . ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٤١] .

أخي في الله . . أما زلت بعد أن رأيت كل هذه المهانات تلحق بالإسلام والمسلمين . . ما زلت تعطي ظهرك لله . . ؟ اتخذته وراءك ظهريًا . . ما زلت توالى أعداء الإسلام في معصية الرحمن . . ما زلت بعيدًا . . ؟ منازلنا تهوي في الأسر . . تنادي فينا نخوة معتصم . . تنادي قلب كمي مقدام . . تنادي العزة فينا . . هل نامت . . ؟ أم نحن نيام . . ؟ الوقت يضيع سدى . . فاغنم في دهرك فرصة إمهال . . تزلف للرحمن

بسابق وده لن ينساك . . ولَفَرْحَتُه برجوعك أعلىٰ من أي حساب . . قال ﷺ : « **لله أشدُّ فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه ، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامُه وشرابه فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها ، قد أيس من راحلته فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : - اللهمَّ أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح** »[1] .

الله يفرح بك إذا عدت أشد من فرحة هذا الرجل . . أفلا تعود طلبًا لفرح الله . . قد ناديتك بكل لغة واستثرت فيك كل نخوة . . وحاولت أن أبعث فيك أي روح . . فإن طويت هذه الصفحة ، وانتهيت من سماع هذا الكلام ، ولم تقم فيك حياة فلست بحي ﴿ **لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴿٧٠﴾ ﴾ [يس: ٧٠] أسأل الكريم أن يحييٰ موات قلوبنا . . والحمد لله رب العالمين أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا .

وبالله التوفيق . .

وكتبه حامدًا ومصليًا

محمد بن حسين يعقوب

غفر الله له ولوالديه وزوجاته وأولاده وبناته وأزواجهنَّ

* * *

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٧) كتاب التوبة . باب في الحض على التوبة والفرح بها . وأخرجه البخاري (٦٣٠٩) كتاب الدعوات . مختصرًا .



فهرس الكتاب

قالوا : أصل الكتاب
فهرس جامع

الفهرس

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع **الصفحة**

مطابع دار الصحيفة
٠١٢٣٢٢٥٨٨١